وزارة التعليـم العالـي والبحث العلـمي
الجامعة المستنصرية/كلية الآداب
قسم اللغة العربية

استراتيجيات الخطاب في أدب أبي حيّان التوحيديّ (ت٤١٤هـ)

أطروحة تقدّم بها

إلى مجلس كلّيّة الآداب في الجامعة المستنصرية

عمر حسين عبد المحسن الميّاحيّ

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه

في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

أ.د سامي ماضي إبراهيم

١٤٣٨هـ

٢٠١٧م

مدونة
Riyadh Hamza
/https://riyadhhamza.blogspot.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ
التمهيد: الاستراتيجية والخطاب والكفايتين اللغوية والتداولية	١
أولا: مفهوم الاستراتيجية العام	١
ثانيا: مفهوم الاستراتيجية في الخطاب.	٤
ثالثا: مفهوم الخطاب:	٨
١-لغة: أ-القرآن الكريم ب-المعجمات العربية	٨-٩
٢-اصطلاحا: أ-آراء الغربيين ب- آراء العرب	 ١٢ ١٥
رابعا: الكفاية اللغوية والكفاية التداولية أ-الكفاية اللغوية ب- الكفاية التداولية	 ١٧ ١٩
١-الكفاية التداولية في التراث العربي	١٩
٢-الكفاية التداولية في اللسانيات الحديثة	٢٢
الفصل الأول **المعيار الاجتماعي للخطاب**	
المبحث الأول: (العلاقة بين طرفي الخطاب)	٢٥-٤١
١- مسلّمة الحوارية	٢٦
٢- طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب	٢٨
٣- قواعد المحادثة:	٣١
أ-مبدأ التعاون.	٣٣
ب-مبدأ التأدّب:	٣٥

الموضوع	الصفحة
١- قاعدة التعفف	٣٦
٢- قاعدة التخيير	٣٦
٣- قاعدة التودّد	٣٧
ج-مبدأ الوجه	٣٧
د-مبدأ التأدّب الأقصى:	٣٨
هـ-مبدأ التصديق	٣٩
المبحث الثاني: الاستراتيجية التضامنية	٤٢-٦٩
أولا: تعريفها	٤٢
ثانيا: مسوّغاتها	٤٣
ثالثا: الاستراتيجية التضامنية عند أبي حيّان التوحيديّ	٤٤
وسائل الاستراتيجية التضامنية	٤٤
أولاً: الأدوات:	٤٥
أ-العلم:	٤٥
١- الاسم	٤٥
٢- الكنية	٤٥
٣- اللّقب	٤٦
ب-الإشاريات الشخصية:	٤٨
١- الضمائر:	٥٠
أ- المنفصلة:	٥٣
أنا	٥٣
نحن	٥٤
أنت	٥٦
ب-المتصلة:	٥٧
٢- النداء:	٥٨

الموضوع	الصفحة
ثانيا: الآليات:	٦١
أ- المكاشفة	٦١
ب-نكران الذات وتأنيبها	٦٢
ج- التعجب	٦٣
د- الطُّرفة	٦٥
هـ- المصانعة	٦٦
و- ذكر الخصائص الإيجابية للمرسل إليه	٦٧
ز- التنغيم	٦٨
المبحث الثالث: الاستراتيجية التوجيهية:	٧٠
أولا: تعريفها وعلاقتها بالسلطة	٧٠
ثانيا: مسوّغاتها	٧١
ثالثا: الاستراتيجية التوجيهية عند أبي حيّان التوحيديّ	٧٢
-وسائل الاستراتيجية التوجيهية	٧٢
١- الأمر:	٧٢
صيغة إفعل	٧٢
صيغة لتفعل	٧٤
أسماء الأفعال	٧٥
المصدر	٧٦
ألأمر بالخبر	٧٦
٢- النهي	٧٧
٣- الاستفهام	٧٩
٤- التحذير	٨٠
٥- الاغراء	٨١
٦- التوجيه بذكر العواقب	٨٢

الموضوع	الصفحة
٧- التوجيه المركّب	٨٣
الفصل الثاني **معيار شكل الخطاب اللغوي**	٨٥-٩٣
المبحث الأول: الشكل اللغوي للخطاب	٨٥
أولا : التصريح والتلميح في التراث العربي	٨٥
ثانيا : التصريح والتلميح عند الغربيين	٨٩
ثالثا : التصريح والتلميح عند العرب المحدثين	٩١
رابعا : خرق قواعد التخاطب	٩٣
المبحث الثاني: الاستراتيجية التلميحية	٩٤
أولا : تعريفها	٩٤
ثانيا : مسوّغاتها	٩٤
ثالثا : الاستراتيجية التلميحية عند أبي حيّان التوحيدي	٩٥
-وسائل الاستراتيجية التلميحية:	٩٥
١- التلميح بالكناية	٩٥
٢- التلميح بالاستعارة	٩٨
٣- التلميح بالتشبيه	٩٩
٤- التلميح بالتهكم	١٠٠
٥- الاستلزام:	١٠٣
-موقف المتكلمين من قواعد التخاطب وتأثير ذلك في الاستلزام	١٠٥
أ-الاستلزام النموذجي (المعمّم)	١٠٥
ب-الاستلزام الحواري الخارق (المخصص)	١١٢
١- قاعدة الكم	١١٢
٢- قاعدة الكيف	١١٤
٣- قاعدة الملاءمة	١١٦

الموضوع	الصفحة
٤- قاعدة جهة الخبر	١١٧
الفصل الثالث **معيار هدف الخطاب**	١١٩-١٩٣
المبحث الأول: هدف الخطاب	١١٩-١٢٥
أولا : أهمية هدف الخطاب وأولويته في تحديد نوع الخطاب	١١٩
ثانيا : هدف الخطاب في الأفعال اللغوية	١٢٠
ثالثا : أثر الهدف في تحديد الأدوات اللغوية	١٢٢
المبحث الثاني: الاستراتيجية الحجاجية:	١٢٦-١٩٣
أولا : مفهوم الحجاج:	١٢٦
١-لغة	١٢٦
٢-إصطلاحًا	١٢٦
ثانيا : الحجاج في الفكر الغربي قديمًا	١٢٧
ثالثا : الحجاج في الفكر العربي قديمًا	١٢٩
رابعا : الحجاج في الفكر الغربي حديثًا	١٣٠
خامسا : الحجاج في الفكر العربي حديثًا	١٣٣
سادسا : العلاقة بين الحجاج والإقناع	١٣٤
-الاستراتيجية الحجاجية:	١٣٥
أولا : تعريفها	١٣٥
ثانيا : مسوّغاتها	١٣٥
ثالثا : الاستراتيجية الحجاجية عند أبي حيّان التوحيدي:	١٣٦
أ- الآليات اللغوية:	١٣٦
١- الروابط الحجاجية:	١٣٦
أ- الروابط المدرجة للحجج:	١٣٧
لأنّ	١٣٧

الموضوع	الصفحة
لام التعليل	١٣٩
ب- الروابط المدرجة للنتائج:	١٤١
إذن	١٤١
لهذا	١٤٤
ج- روابط التعارض الحجاجي:	١٤٥
لكن	١٤٦
بل	١٤٩
د- روابط التساوق الحجاجي:	١٥١
حتى	١٥١
هـ- روابط التتابع الحجاجي	١٥٤
الواو	١٥٤
و- روابط الشك والتقريب	١٥٥
لعلّ	١٥٥
٢- العوامل الحجاجية:	١٥٦
أ-المفعول لإجله	١٥٧
ب-ربّما	١٥٩
ج-إنّما	١٦٠
د-لا.... إلاّ	١٦١
٣- التكرار:	١٦٣
أ- التكرار الشكلي	١٦٤
تكرار اللفظ	١٦٤
تكرار عبارة	١٦٤
تكرار عنصرين اثنين من مادة واحدة	١٦٥
ب- تكرار المضمون:	١٦٦

الموضوع	الصفحة
علاقة العام بالخاص	١٦٦
علاقة الترادف	١٦٦
علاقة اللاحق بالسابق	١٦٧
٤- التوازن	١٦٨
ب- الآليات البلاغية:	١٧٠
١- تقسيم الكل إلى أجزاء	١٧٠
٢- الطباق	١٧٢
٣- السجع	١٧٢
٤- المقام	١٧٣
ج- السلّم الحجاجي:	١٧٤
قوانين السلّم الحجاجي:	١٧٥
١- قانون النفي	١٧٥
٢- قانون القلب	١٧٧
٣- قانون الخفض	١٧٩
د- الحجج المبنينة للواقع:	١٨٠
١-شاهد الحال	١٨١
٢-الاستشهاد	١٨٢
أ- القرآن الكريم	١٨٢
ب- الشعر	١٨٤
هـ- الحجج شبه المنطقية:	١٨٦
- حجة التناقض وعدم الاتفاق	١٨٦
و- الأفعال اللغوية:	١٨٧
١- الشرط:	١٨٧
إن	١٨٨

الموضوع	الصفحة
إذا	١٨٩
لو	١٩١
لولا	١٩٢
الخاتمة والنتائج	١٩٤-١٩٧
مصادر البحث	١٩٨-٢٢٥
ملخص باللغة الإنكليزية	A-B

/https://riyadhhamza.blogspot.com

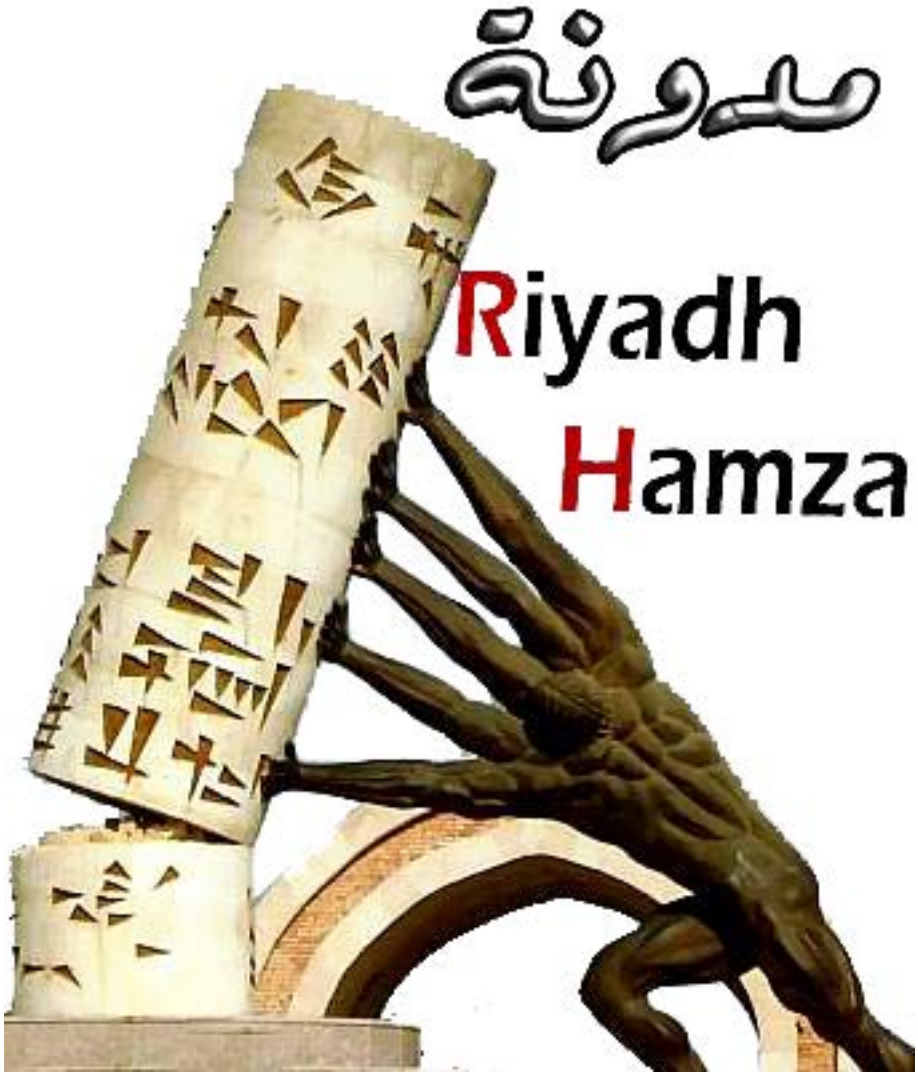

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم فاتحة كلّ خير وتمام كلّ نعمة، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فتُعدّ اللغة الوسيلة الأساسية للتواصل الإنساني، فهي تمثّل اجتماعيته، وتُجسّد تفاعله مع غيره ما يساعده في التأثر والتأثير، وهي ترتبط في المنظور التداولي بمقاصد المتكلّم، وبوضعه الاجتماعي، وأهدافه انطلاقا من القصد، والهدف الذي يسوق عَبره خطابه الذي يختلف تبعًا لاختلاف العناصر السياقية ممّا يفرض عليه أُطرًا معينة ينبغي له أن يحترمها، من تأسيس علاقة ناجعة بالخطاب مع الطرف الآخر في العملية التواصلية سواء أكان هذا الطرف حاضرًا حضورًا فعليًّا، أم مُتَخيَّلاً.

و الخطاب الأدبي على غرار الاستعمالات اللغوية يحمل قصدًا، وهدفًا يسعى من خلالهما لتأسيس علاقة مع المتلقي من جهة، والمحافظة على هذه العلاقة من جهة أخرى.

وقد اكتسب الخطاب أهمية كبيرة قديمًا، وحديثًا، وتعددت أوجهه بين ما هو شفوي، وما هو مكتوب، فهو حدثٌ لغويٌّ يُرسِله متكلّم، أو مرسِل نحو مخاطَب، أو مرسَل إليه قصدَ إفادته بمعلومات، أو أخبار جديدة في مقام محدد، وباستعمال وسيلة تبليغية محددة، والانطلاق من ظروف، أو أحوال، وأوضاع مشتركة بين المتخاطبَين لايعرفها غيرهما، فهو نشاطٌ تواصلي يتأسس على اللغة المنطوقة أولاً، ويرتبط بالتعبير عن كلّ نُظُم الإفادة في الممارسة الاجتماعية ثانيًا فلكلّ معرفة خطابها المعبّر عنها الشارح الواصف لمحتوياتها المحدد لأهدافها فهو لسان حالها في منظومات المعارف التي تقتضيها مجالات الحياة، وسياقاتها الاجتماعية المختلفة.

وعليه فلابدّ للمتكلّم أن يمتلك من الكفاية اللغوية، والتداولية الشيء الكثير حتى يكونَ قادرًا على اختيار الاستراتيجية المناسبة، ومن هنا تنبع أهمية الموضوع ف(استراتيجيات الخطاب) من الموضوعات اللغوية المهمّة، وتتجلّى أهميّته في كلّ

مجال من مجالات الحياة الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والتعليمي ... فلكلّ مجتمع سياقات مختلفة تتطلّب خطابات متنوعة؛ لترضيَ بها أهداف الناس المتباينة.

وقد مثّلت رغبة الباحث في دراسة استراتيجيات الخطاب، ومعرفة أبرزها، وما ترتكز عليه من أسس، ومصطلحات داعيًا من دواعي اختيار هذا الموضوع، فضلاً على الرغبة في محاولة إسقاط النظرية الحداثوية على التراث العربي، وما تنتجه هذه العملية من مقاربة من ناحية المصطلح، والمفهوم.

وآثرت أن أُخصصَ دراستي في أدب أبي حيّان التوحيديّ – ممثلًا في مؤلفاته (الاشارات الإلهية، والامتاع والمؤانسة، وأخلاق الوزيرين، والبصائر والذخائر، والرسالة البغدادية، والصداقة والصديق، والمقابسات، والهوامل والشوامل) – ليكون ميدانًا تطبيقيًا للدراسة، فهو من كبار أدباء القرن الرابع من الهجرة، إذ تميّز بثقافة واسعة، وبمزاج خاص أكسب مؤلّفاته طابعًا خاصًّا، وقد عني كثير من الباحثين بدراسة التوحيديّ (حياته، ومصنفاته) فهو شخصية تغري الباحث لما فيها من عمق، ولما تمتلكه من قوة أسلوب، وتمكّن في الكتابة؛ لذلك وُصِف بأنّه (أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء)، فجاء البحث موسومًا بـ(استراتيجيات الخطاب في أدب أبي حيّان التوحيديّ (ت٤١٤هـ)).

وقد سعت الدراسة إلى الوقوف على أبرز الاستراتيجيات الخطابية المتبعة من قبل أبي حيّان في مخاطبة جمهوره، وتحليلها في ضوء المنهج التخاطبي (التداولي)، وقد كان انتقاء النصوص هو المنهج المتّبع في اختيارها، وعلى الرغم من أنّ الاستراتيجيات لاحصر لها إلاّ أنّها من الممكن أن تنضبط تحت ثلاثة معايير تمثّل معايير انتاج الخطاب، وعلى هذا الأساس قسّمت البحث وفقًا لهذه المعايير على ثلاثة فصول تسبقها مقدمة، وتمهيد، وجعلتها دراسةً نظرية تطبيقية وعلى النحو الآتي:

المقدّمة: بيّنت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج المتّبع في الدراسة، فضلاً على توضيح مضامين الفصول، والمباحث.

التمهيد: وقد تضمّن: (مفهوم الاستراتيجية العام، ومفهوم الاستراتيجية في الخطاب، ومفهوم الخطاب في اللغة والاصطلاح، وآراء الباحثين العرب، والغرب في ذلك،

والكفاية اللغوية والكفاية التداولية وتجليات هذين المصطلحين في التراث اللغوي العربي، واللسانيات الحديثة). ولابد من الإشارة هنا إلى أنّني لم أتطرق للحديث عن حياة أبي حيّان، ومؤلفاته؛ كوني سُبِقت بدراسات فصّلت، وأسهبت في ذلك فضلاً على مقدمات التحقيق لمؤلفاته. وقد سعيتُ أن أذكر الشواهد كاملة حتى لا تبدو مبتورة فتفقد قيمتها.

الفصل الأول: (المعيار الاجتماعي للخطاب) وتضمّن ثلاثة مباحث: الأول: نظري تناولت فيه (العلاقة بين طرفي الخطاب، ومسلّمة الحوارية، وطبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب، وقواعد المحادثة، وأهداف (غرايس) منها.)

المبحث الثاني: (الاستراتيجية التضامنية) ضمّ (تعريفها، وعناصرها، ومسوّغاتها، والاستراتيجية التضامنية عند أبي حيّان ممثّلة بالأدوات: (العلم، والكنية، واللّقب، والإشاريات)، والآليات (المكاشفة، ونكران الذات، والتعجب، والطُّرفة، والمصانعة، وذكر الخصائص الإيجابية للمرسَل إليه، والتنغيم).

المبحث الثالث: (الاستراتيجية التوجيهية): (تعريفها، علاقتها بالسلطة، مسوّغاتها، والاستراتيجية التوجيهية عند أبي حيان التوحيديّ، وقد تجسّدت بالوسائل الآتية (الأمر، والنهي، والاستفهام، والتحذير، والاغراء، والتوجيه بذكر العواقب، والتوجيه المركب).

الفصل الثاني: (معيار شكل الخطاب اللغوي) وضمّ مبحثين:

المبحث الأول: تنظيري تحت عنوان (الشكل اللغوي للخطاب) وتناولت فيه (التصريح، والتلميح عند العرب، والغربيين، وخرق قواعد المحادثة).

المبحث الثاني: (الاستراتيجية التلميحية) وتضمّن: (تعريف الاستراتيجية التلميحية، ومسوّغاتها، والاستراتيجية التلميحية عند أبي حيّان، وقد تجلّت في: التلميح بالكناية، والتلميح بالاستعارة، والتلميح بالتشبيه، والتلميح بالتهكم، والاستلزام بنوعيه: المعمم (النموذجي) والمخصص (الخارق).

الفصل الثالث: (معيار هدف الخطاب) وضمّ مبحثين:

الأول: تنظيري تحت عنوان (معيار هدف الخطاب) وتناولت فيه: (أهمية هدف الخطاب، وأولويته في تحديد نوع الخطاب، وهدف الخطاب في الأفعال اللغوية، وأثر الهدف في تحديد الأدوات اللغوية).

الثاني: (الاستراتيجية الحجاجية) (الإقناعية) وتضمّن: (مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح، والحجاج في الفكرين العربي، والغربي قديمًا وحديثًا، والعلاقة بين الحجاج والإقناع، والاستراتيجية الحجاجية: تعريفها، مسوّغاتها، وتجلّيات الاستراتيجية الحجاجية عند أبي حيّان وقد تجسّدت بـ(الآليات اللغوية) التي ضمّت بدورها (الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية)، والآليات البلاغية وتمثّلت بـ(تقسيم الكلّ إلى أجزاء، والطباق، والسجع، والمقام)، والسلّم الحجاجي وقوانينه، والحجج المبنينة للواقع: (شاهد الحال، والاستشهاد)، والحجج شبه المنطقية ممثّلة بـ(حجة التناقض وعدم الاتفاق)، والأفعال اللغوية وقد تمثّلت بـ(الشرط).

وهنا لابدّ من توجيه الشكر الجزيل لأستاذي المشرف أ . د سامي ماضي إبراهيم على ما أبداه من حرص ومتابعة طيلة مدة الكتابة فكانت لملاحظاته الأثر الكبير في ظهور الأطروحة بهذا الشكل .

التمهيد:

أولا: مفهوم الاستراتيجية العام:

مصطلحُ (الاستراتيجية) اشتُقَّ أصلًا من الكلمة اليونانية (strategy)، الّتي اشتُقَّت في الأصل من كلمتين مركبتين (stratos) وتعني الجيش، و(Agien) وتعني قيادة، واستعمال الكلمة المركّبة في اليونانية القديمة (strategos) تعني قائد الجيش. وقد أدرك اليونانيون منذ القدم مفهوم (الاستراتيجية) على أنّها تعني الشمولية في التفكير، والتصرف مع النظرة الواسعة بعيدة المدى، فقد عرّفها اليونانيون القدماء بأنّها (مجموعة القرارات الهامّة المشتقّة من عملية إداريّة عالية التنظيم لاتخاذ القرار على أعلى المستويات)[١]

ويبدو أنَّ مصطلح (الاستراتيجية) في بدايته يحمل معنى، فن قيادة عمليات الجيش في ميدان القتال وهو يقابل حينها (tactique) بمعنى خطّة، وقد أفضى الأمر بهذا المفهوم إلى اكتساب معنى أشمل يفيد كلّ عمل يتمُّ القيام به بصورة منسّقة لبلوغ هدف ما؛ فالناس يتحدثون عن استراتيجيات مختلفة (انتخابية، تجارية، سياسية، أدبية ...) ولأنّه مفهومًا فهو يُستعمل استعمالًا مركزيًا في فنون فكريّة مختلفة نحو نظرية الألعاب، وعلم النفس العرفاني، وعلم النفس الاجتماعي، وفي تحليل الخطاب، فهو في نظرية الألعاب يقابل مجموعة القواعد الضابطة لسلوك اللّاعب في أيّ وضعية لعبٍ ممكنة، وفي علم النفس العرفاني يقابل العمليات المتسلسلة التي تعكس الاختبارات التي يتوخاها المرء ليبلغ –وبأنجع الطرق، وأقلّها كلفة– غايةً محددةً سلفًا، كإقناع مخاطب معين بصحّة تأويلٍ حول مشكل خاص، ويمكن لهذه الاستراتيجيات أنْ تختلف بحسب إكراهات المقام، والقدرات العرفانية للمتكلم.[٢]

وفي علم النفس الاجتماعي أكّد (كارون carron) ضرورة عدم التحدث عن الاستراتيجيات إلاّ إذا توافرت الشروط الآتية: مقام عدم التيقّن، هدف يسعى إليه،

---

(١) ينظر: الاستراتيجية العسكرية: ٢٥/١، وينظر: الادارة الاستراتيجية: ٢٥.

(٢) يُنظر: معجم تحليل الخطاب:٥٣٢-٥٣٣.

الفاعل سواء كان ذلك عن وعي أم عن غير وعي قواعد اللعبة، وتعاقب منظَّم لاختيارات معبِّرة عن خطَّة عامَّة. [١]

وقد تعددت آراءُ الباحثين حول مصطلح (الاستراتيجية) فمنهم من أرجعه إلى أصول عربية إذ يقول: ((وأصله عربي (سترات ذي)، (سراط ذي) بـ الإضافة المعكوسة فتصبح (سراتي، وسراطي) بعد إسقاط حرف الذال كما هي الحال في الصياغة العربية لعدد من الكلمات بالإضافة المعكوسة، ومعناها الطريق والمسار، وبدلا أن نقول (ستراتيجيتنا) يمكننا القول (سراطيتنا، أو سراطنا) وهذا يساوي المعنى نفسه كما جاء في القرآن الكريم ((السراط المستقيم)) مما يعني الطريق أو الاستراتيجية القويمة التي لا عوج فيها)).[٢]

في حين قارب بعضهم بين مصطلح الاستراتيجية، ومصطلح (المسالك) بقوله: والمسلك يشبه إلى حدّ كبير ما يقصده بعض الباحثين في مجالات التخاطب وتحليل الخطاب بـ(الاستراتيجيات)[٣]

فالطريق هو المسلك، من سلك يسلك سلوكا، وسلْكاً[٤]

وقد ذكر السيوطي (ت٩١١هـ) المعنى نفسه في قوله:((سلك الطريق أسلكه))[٥]

ويُفهم من هذا أنّ المسلك يدلُّ على الطريق، أو الطريقة والمذهب، ويومئ بالمعاني الآتية (الدقة، والاستقامة، والاتقان، والوسيلة، والاختيار، والتصرف)، وجلّها معان مقصودة فيما أُريد من هذا المصطلح (المسلك) فهو شبيه بالمقاربة التي تشبه (approach) التي تعني الاقتراب من موضوع ما في اتجاه معين؛ لكونه المدخل

---

(١) يُنظر : معجم تحليل الخطاب : ٥٢٣ .

(٢) ينظر: الاستراتيجية والتكتيك والتكنولوجيا في اللغة العربية، مجلة أقلام الديوان (مقال). www.diwanalarab.com

(٣) ينظر: مسالك الخطاب وغايات التخاطب (مقال) www.alhewar.org

(٤) ينظر: لسان العرب: ٤٤٢/١٠، مادة (سلك).

(٥) المزهر في علوم اللغة:٣٢٧.

إلى موضوع التخاطب، وهو المنفذ إلى عقل المخاطب، وفؤاده، وهو الطريق لتحقيق غاية التخاطب.(١)

وفيما يبدو أنّ مصطلح (الاستراتيجية) قريب جدا من مصطلح (المسلك) وقد ذكر اللساني الهولندي (توين فان دايك Twin van diak) أنَّ الاستراتيجية في علم النفس تحيل على (سلوك إدراكي نوعا ما)، وذكر أيضا أنَّ (الاستراتيجيات) تنتمي إلى طرق السلوك الفعَّال في مقام معيَّن لتحقيق هدف ما، وبينما تحدد القواعد الخطوات الممكنة تحدد (الاستراتيجيات) أي خطوة من الخطوات الممكنة التي يمكن اختيارها لتحقيق أهداف المتكلم على أفضل وجه.(٢)

إذن فـ(الاستراتيجية) تتعلق بالإعداد، والتهيئة؛ ولأنَّ الانسان يسعى إلى تحقيق أهدافه عن طريق الأفعال التي يمارسها، والتي ترتبط بسياق معين من جانب، وتختلف من جانب آخر فإنّه يسعى إلى اتباع طرائق متباينة تتناسب والسياق. وهذا يعني أنّ المتكلم يتخذ طريقةً يتمكن بها من مراعاة الأطر التي تحيط به بالدرجة الأولى أي عناصر السياق المتعددة التي تمكّنه من تحقيق هدفه، وهي طرائق محددة لتناول مشكلة ما. (٣) وبما أنّ الاستراتيجية خطة فهي ذات بعدين:

الأول: تخطيطي ويتحقق في المستوى الذهني.

الثاني: مادي يجسَد الاستراتيجية المتحققة فيه فعلاً.

ويرتكز العمل في كلا البعدين على الفاعل الرئيس فهو الذي يحلل السياق، ويخطط لفعله ليختار من الإمكانات ما يفي بما يريد فعله، ويضمن له تحقيق أهدافه.(٤)

ولاريب أنّ مصطلح (الاستراتيجية) أصبح يحمل قدراً من اللبس في لغتنا الفصحى ولعلّ ذلك يعود إلى سببين:

ألأول: شيوع هذا المصطلح بلفظه الدخيل.

---

(١) ينظر: مسالك الخطاب وغايات التخاطب.

(٢) ينظر: م، ن .

(٣) يُنظر: إشكالات النص، دراسة لسانية نصية، المداخلة أنموذجًا: ١٧٣ .

(٤) ينظر: م، ن: ١٧٤.

ألثاني: كثرة استعماله في مجالات معرفية، وحضارية فهو اصطلاح عسكري، وهو علم وفن ينصرفان إلى الخطط، والوسائل المعدَة من أجل تحقيق هدف معيَن.[١]

وغالبا ما تقترن الاستراتيجية بالأهداف بعيدة المدى، وهذا المفهوم يدلّ على أنّ الاستراتيجية تتعلق بإعداد الخطط ذات الأهمية، ويبدو معنى الاستراتيجية حينئذ لا يعني الخطة الرئيسة، أو المهمة، وإنما صار يعني (الأهمية القصوى). للشيء، والهدف هذا هو المعنى السائد في اللغة العربية الفصحى.[٢]

وذهب الفيلسوف الفرنسي (ميشيل فوكو Michel foucau) إلى أنّ للاستراتيجية استعمالات متعددة منها:

١-التدليل على الطريقة التي يتصرف بها أحدُ الشركاء في لعبة معيّنة، تبعا لما يعتقد أنّه سيكون تصرف الآخرين، ولِمَا يُخال أنّ الآخرين سيتصورون أنّه تصرّفه هو، باختصار: الطريقة التي يحاول بها التأثير على الآخرين.[٣]

٢-التدليل على اختيار الوسائل المستعملة للوصول إلى غاية معيّنة، والمقصود بذلك هو العقلانيّة المستعملة لبلوغ هدف ما. وهي إشارة إلى البعد التخطيطي.

٣-التدليل على مجمل الأساليب المستعملة في مواجهةٍ ما للسيطرة على المتلقي.[٤]

ثانيًا: مفهوم الاستراتيجية في الخطاب:

ارتبط مفهوم الاستراتيجية بمفهوم الخطاب؛ لكونه عملية اختيار من المرسِل للعبارات، والكلمات المناسبة، فضلًا على اختيار السياق المناسب فقبل التلفظ بالخطاب يخطط لكيفية إنتاجه، وكذلك كيفية إيصال معناه إلى المتلقي، فالمخاطِب يحرص كلّ الحرص على استعمال اللغة استعمالا دقيقا يتلاءم والسياق، ولكي يتمكن من القيام بهذه العمليات لابدَّ وأن تكون لديه كفاية لغوية فضلًا على الكفاية

(١) ينظر: الموسوعة العسكرية: ٦٦/١.

(٢) يُنظر: مسيرة فلسفة:٢٠٠.

(٣) ينظر: م.ن: والصفحة نفسها.

(٤) ينظر: م.ن: ٢٠١.

التداولية، وحتى تتم عملية التواصل، فالناس يستعملون اللّغة بكيفيات منظمة، ومتناسقة.(١)

يفيد مصطلح (الاستراتيجية) في لسانيات الخطاب (linguistics of discourse) وتحليل الخطاب (discourse Analysis) مجموع عمليات المعالجة الموجهة إلى هدف، فكلّ منتج خطاب لابدّ له من هدف يعتمد في تحقيقه على استراتيجية تخاطبيه تتمثل بسلسلة من عمليات الاختيار لتنفيذ أهداف تواصلية، ومن هنا تبدو الصورة واضحة في أنّ الاستراتيجيات تتوسّط بين المهام التواصلية المستنبطة من التفاعل، والاكراهات الاجتماعية، فضلًا على أهداف المشاركين في العملية التواصلية هذا من جهة، وبين الوسائل اللّغوية، وغير اللّغوية الموضوعة لتحقيقها، والتأليف بينهما من جهة أخرى.(٢)

فالمتكلم ينتج خطابه بمراعاة السياق، إذ لا خطاب بمعزل عن سياق معيّن، كما لا يتجلّى الخطاب دون استعمال العلامات المناسبة، ومن ثمّ تعرّف الاستراتيجية التخاطبية دائما من أهداف معينة مستنبطة من التفاعل، فهي تستند إلى حالة مستقبلية يطمح إليها المتفاعلون، ويرتبط بمكون الهدف هذا، تنشيطُ أنظمة معرفية، وتمثيلات نماذج عقلية، واستحضار آراء خاصة، وأوجه إقناع، ومواقف، والاعلام بالقيود الموقفية للفعل التواصلي المخطط له، وبوجه خاص التوجيه المستمر للنشاطات الإدراكية كلّها إلى الوظيفة الممكن توقّعها للخطاب المخطّط في التفاعل.(٣)

وللاستراتيجية في تحليل الخطاب استعمالات وتحديدات مختلفة باختلاف تيارات البحث، فـ(الكلمات) عند بعضهم تدخل في استراتيجيات اجتماعية، وهي مؤشرات لاستراتيجيات الفردنة، وفي نظر آخرين، فإنّ الاستراتيجية هي من شروط إنتاج الخطاب، وعلى وفق وجهة نظر أخرى تتكون هيكلة عمل لغة ما من فضاءين، الأول: اكراهات تتضمن المعطيات الدنيا التي ينبغي الاستجابة لها ليكون

(١) ينظر: المعنى وظلال المعنى:١٤٨، وينظر: النص والخطاب والاتصال:٢٢.

(٢) ينظر: مدخل إلى علم لغة النص:٢٦٩.

(٣) ينظر: م ، ن:٢٧٠.

عمل اللغة صحيحًا، والثاني: فضاء استراتيجية يطابق الاختبارات الممكنة التي يتوخّاها المتكلّمون، ليقوموا بإخراج عمل اللّغة.(١)

وفي نظر الفرنسي (باتريك شارودو Patrick charaudeau) لا يمكن استعمال مفهوم (الاستراتيجية) إلاّ بالنسبة إلى إطار تعاقدي يضمن استقرار السلوكيات، وقابليتها للتوقّع بحيث يُمكن للفرد أن يتدخل فيتعامل إمّا مع معطيات العقود، وأمّا في صلبها وهكذا يذهب (شارودو) إلى حدّ الاقتراح أنّ هذه الاستراتيجيات تتطور حول ثلاثة رهانات لا يقصي بعضُها بعضًا، ولكن ينماز بعضها من بعض بطبيعة غائيتها وهي:

١-رهان المشروعية الرامي إلى تحديد موقع سلطة الفرد.

٢-رهان المصداقية الرامي إلى تحديد موقع الفرد من الصدق.

٣-رهان الاستهواء الرامي إلى إدخال طرف التبادل التواصلي في إطار تفكير الذات المتكلمة.(٢)

وعلى الرغم من قلّة الاهتمام بتحديد معنى الاستراتيجية في إطار مصطلحات اللَسانيات فان الباحثين العرب اكتفوا في الغالب باستعمال اللفظ كما هو عدا بعض المحاولات كترجمة الدكتور تمَام حسّان للاستراتيجية (strategy) بمعنى (المرتكزات)، وهذه الترجمة هي في إطار النظرية النصية الاجرائية.(٣)

والغريب في ترجمة الدكتور تمّام حسّان أنّ مصطلح (المرتكزات) يعني عناصر العملية التخاطبية (المتكلم، والمتلقي، والنص)، ولا يعني الطريقة، أو المسلك!!

وفسّرها (فالح العجمي) بأنّها (الإمكانات) التي بها يصل المنشئ إلى هدفه، إذ يقول: ((تتم اجراءات تقدير أفضل الطرق، أو أقصرها للوصول إلى ما يهدف الباث إليه من خطابه وسط موازنة بين عدّة إمكانات، أو استراتيجيات – كما يسميها

---

(١) ينظر: معجم تحليل الخطاب:٥٣٣.

(٢) ينظر: م ، ن:٥٣٣-٥٣٤.

(٣) يُنظر: النص والخطاب والإجراء:٧٦.

التداوليون – للخطاب تتوفر لديه، وتقدم اللّغة أساليب مختلفة لكل منها فيلجأ صاحب الخطاب إلى الأسلوب الذي يناسب الاستراتيجية التي يختارها)).[١]

وعرّفها د.(جمعان بن عبد الكريم) في مجال النص، بأنّها المخطط الذهني الرئيس، وما يتبعه من المنجز النصي الأساسي الذي يحقق الهدف الرئيس، وتبدو أهمية هذا التعريف؛ في كونه ينطلق إلى استراتيجية النص قبل أن يكون نصّا، واستراتيجية النص عندما يكون نصّا، فهو يشمل كلّ الدراسات التي عالجت مسألة الاستراتيجية النصّية التي تنظر إلى النصّ من وجهات نظر متباينة، فهو يشمل استراتيجيات بناء النصّ، كما يشمل استراتيجيات بناء الخطاب الذي يُقصد به الملفوظ في حالة التواصل، كما يشمل استراتيجيات الخطاب حتّى في حالة الكتابة، فضلًا على استراتيجيات تحليل الخطاب الذي تُقصد به المفاهيم الدلالية الكلّية التي تنبثق من النصّ بمختلف مستوياته.[٢]

أمّا باعتماد معيار الأساليب الإنجازية فللاستراتيجية مفهومان:

الأول: مقترن بالمناورة، والمواربة، موصول بمبدأ انتهاج الطرق الملتوية، وترسّم المسلك الملائم لها.

الثاني: مجموعة الوسائل اللّغوية التي يتوسّلها المتكلّم ويُحدث بينها تفاعلا، ويوظّفها في تحقيق المقاصد الصريحة، والضمنيّة.[٣]

ونستخلص من ذلك أنّ الاستراتيجيّة الخطابيّة هي مجموعة طرائق يترسّمها المتكلّم وهو يستحضر في ذهنه مخاطبَه، ويستدعي مختلف العناصر المقامية الحافّة بالعمليّة التخاطبيّة، والمؤثّرة فيها، والتي بها ينعقد الخطاب.

---

(١) اللَغة والسحر:١٦٤-١٦٥.

(٢) يُنظر:إشكالات النص، دراسة لسانية نصية:١٧٥.

(٣) ينظر: الوصايا ألأدبية:٣٣٢.

ثالثًا: مفهوم الخطاب:

١-لغة:

أ- القرآن الكريم:

إنّ مصطلح (الخطاب) مشتقٌ من مادة (خطب)، اعتُمِد من طرف الفكر النقدي العربي الحديث ليحمل دلالة المصطلح النقدي العربي[١]؛ ولإدراك مدلوله لابدّ من الرجوع إلى القرآن الكريم، ومعجمات اللغة.

فقد وردت مادة (خطب) في القرآن الكريم في اكثر من موضع منها:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ الفرقان ٦٣

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴾﴾ ص: ٢٣

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴾ النبأ:٣٧

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾ ص: ٢٠

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾المؤمنون: ٢٧

بملاحظة الآيات السابقة نجد أنّ مصطلح (الخطاب) ورد بمعان مختلفة، فقد جاء بمعنى توجيه الكلام[٢]، والقوة في الكلام أي القدرة على المحاججة، والجدال.[٣]

وبمعنى عدم امتلاك القدرة على الاعتراض عليه سبحانه وتعالى في ثواب أو عقاب،

---

(١) يُنظر: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص:١٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٤٦٩/٦.

(٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣٥٢/٨.

وجاء بمعنى إيجاب اليمين على المدّعى عليه والبينة على المدّعي؛ لأنّ خطاب الخصوم لا ينفصل، ولا ينقطع إلاّ بهذا[١].

وجاء بمعنى الطلب[٢]. وعلى الرغم من تعدد المعاني التي وردت بها لفظة الخطاب إلاّ إنّنا يمكن أن نحدّد المعنى اللّغوي الذي جاء به القرآن الكريم، وهو المراجعة في الكلام.

ب- المعجمات العربية:

يعدّ مفهوم الخطاب من المفاهيم ذات الدلالات المتعددة، إلاّ إنّنا لو انعمنا النظر فيما أوردته المعجمات العربية تحت مادة (خطب) لوجدناها تدور حول معان أربعة هي: (الشأن والحال، والنكاح، ومراجعة الكلام) وما يهمنا هو المعنى الرابع.

ذكر الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت١٧٥هـ): ((الخطبُ: سبب الأمر... والخطاب مراجعة الكلام، والخطبة مصدر الخطيب)).[٣]

وقد تنبّه ابن فارس (ت٣٩٥هـ) إلى ملاحظة مهمّة وهي ضرورة وجود سمة المشاركة في الخطاب إذ يقول: ((الخاء، والطاء، والباء، أصلان أحدهما الكلام بين اثنين يُقال خاطبه يخاطبه خطابا، والخُطبة من ذلك والخطْبُ ألأمر يقع، وإنما سُمّي بذلك لما يقع فيه من التخاطب، والمراجعة ... وأمّا الآخر فاختلاف لونين))[٤]

فالخطاب في رأيه كلام متبادل بين متخاطبين، ومن ثمّ فهو تعاون بينهما.

ونلحظ في مادة. خطب عند ابن منظور (ت٧١١هـ) قوله: (... الخطب: ألأمرُ الذي تقعُ فيه المُخاطَبَةُ، والشأنُ، والحالُ... والخطابُ المخاطبةُ مراجعةُ الكلام، وقد خاطبَه بالكلام مخاطبَةً، وخطابا، وهما يتخاطبان... والخُطبةُ مصدرُ الخطيب... وخَطَبَ الخاطبُ على المِنْبر، واختَطَبَ يخطُبُ خَطابَةً، واسم الكلام الخُطْبَةُ... والذي قال إنّ الخُطبةَ مصدرُ الخطيبِ لا يجوز إلاّ على وجهٍ واحدٍ وهو الخُطبة اسمٌ للكلام الذي يتكلّم به الخطيبُ فيوضع موضع المصدر... وهي الكلام

---

(١) يُنظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٩/٨.

(٢) يُنظر: الكشاف:٤٨٣.

(٣) العين: ٤١٨/١-٤١٩ باب الخاء.

(٤) معجم مقاييس اللَغة: ١٩٨/٢-١٩٩.

المنثور المُسَجَّعُ، ونحوه... والخُطبةُ مثلُ الرّسالة التي لها أولٌ، وآخرٌ، قال وسمِعت بعض العرب يقول (اللّهم ارفع عنّا هذه الضُّغطَةَ) كأنّهم ذهبوا إلى أنّ لها مدّةً، وغايةً أولًا، وآخرًا، ولو أراد مرَّةً لقال(ضَغطة)، ولو أراد الفعل لقال (الضِّغطة) مثل المِشية...، والمُخاطبة مُفاعلة من الخطاب، والمشاورة))[١].

يفهم مما ذُكر أنّ الخطاب مرادف للكلام، له بداية، ونهاية، فضلًا على خاصية التفاعل فيه..

وما ذكره الفيومي (ت٧٧٠هـ) عن الخطاب قوله: ((هو الكلام بين متكلم، وسامع ومنه اشتقاق الخُطبة بضم الخاء، وكسرها))[٢].

ولم يضف الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ) شيئا جديدا بهذا الصدد إذ يعدّ هو الآخر الخطاب بمنزلة الكلام. [٣]

وذهب التهانويَ (ت١١٥٨هـ) إلى أنّ الخطاب وعلى وفق أصل اللغة ((توجيه الكلام نحو الغير للإفهام ... ثمَ تطورت الكلمة لتدل على الكلام الموجه إلى الغير للإفهام))[٤]

ويبدو أنَ التهانوي يميز بين فعل توجيه الكلام، و الكلام نفسه، أي بين لحظة انتاج الخطاب الموجه للآخر، و حدث الكلام، مع التركيز في المعنيين على ضرورة وجود طرف آخر يحتاج إلى الفهم، وعلى ذلك فإنّ وظيفة الخطاب هي الإفهام، ولا وجود له من دون وجود شخصين، أو أكثر؛ لتحقيق سمة التواصل.

قد يقودنا استعمال التهانويَ لمصطلح (الإفهام) إلى القول بأنَه أكّد أمرين:

الأول: وجود شخصين، أو اكثر، والثاني: وهو مرتبط بالأول ارتباطا وثيقا ألا وهو ضرورة الإفهام، تمييزا له من كلام لم يقصد الإفهام، بأنّه لا يسمى خطابا، فهو يؤكّد التواصل في العملية الخطابية الذي هو أعمّ وأشمل من الخطاب، فكلّ تواصل خطاب، وليس كلّ خطاب تواصلاً.

---

(١) لسان العرب: ١١٩٤/١٤، مادة (خطب).

(٢) المصباح المنير:٦٦.

(٣) يُنظر : القاموس المحيط : ٨١ ، باب الباء فصل الخاء مادة (خطب)

(٤) كشّاف اصطلاحات الفنون : ٧٤٩.

وقد أشار (المعجم الوسيط) إلى ما أشارت إليه المعجمات السابقة، فضلًا على اشتماله على بعض الإشارات الأخرى، فورد في هذا المعجم: ((الخطاب الكلام، والرسالة... والخطاب المفتوح خطاب يوجّه إلى أُولي الأمر علانية... والخُطبة الكلام المنثور يخاطِب به متكلم فصيح جمعا من الناس لإقناعهم... والخطيب الحسنُ الخُطبة، ومن يقوم بالخطابة في المسجد وغيره المتحدّث عن القوم)).[١]

وعلى ذلك فإنّ هذا المعجم يكون قد أكّد ثلاثة أمور جديدة تُعدّ من صميم مكونات الخطاب، فالخطاب يجب أن يكون موجّها نحو أشخاص معنيين، وأنّه يهدف إلى الإقناع، وقد ينوب متكلّم واحدٌ عن آخرين.

وبذلك يتأسّس مفهوم الخطاب في اللّغة –على الرغم مما تحمله لفظة (خطاب) من دلالات متعددة– على التلفظ، أو القول بين طرفين: أحدهما مخاطِب، وثانيهما مخاطَب، وقد يتحاوران في شكل حديث حرّ، فيُقال حينئذ إنّهما يتخاطبان فيُفهِم احدهما الآخر عن طريق البيّنة، وفصل الخطاب.[٢]

إذن ليس هناك خطاب أحاديّ الجانب، موجّه على ذاته، وإنّما لابدّ من وجود جانب آخر هو المتلقي.[٣]

ومن هنا تولّد مصطلح الخطاب بوصفه رسالةً لغوية يبثّها المتكلّم إلى المتلقي، فيستقبلها، ويفكّ رموزها.[٤]

وهكذا تعود جذور مصطلح (الخطاب) إلى عنصري اللغة والكلام، فاللغة نظام من الرموز يستعملها الفرد للتعبير عن اغراضه، والكلام إنجازٌ لغويٌّ فرديٌّ يتوجه به المتكلم إلى شخص آخر يُسمّى المخاطَب.[٥]

---

(١) المعجم الوسيط:٢٤٣.

(٢) يُنظر: مفهوم الخطاب في النظرية النقدية المعاصرة (بحث):١٢٤.

(٣) يُنظر: النقد والدلالة نحو تحليل سيميائي للأدب:١٤٣.

(٤) يُنظر: تحليل الخطاب الادبي وقضايا النص:١١.

(٥) يُنظر: م. ن، الصفحة نفسها.

٢-إصطلاحًا:

المصطلح في عرف البحث العلمي هو ما تمّ الاجماع عليه ، فيكون مفهومه جامعا مانعا، وفي الحقيقة لا يحصل هذا المفهوم إلاّ بتضافر عدد من التعريفات من منابع عديدة، إذ إنّ التعريفات تشكل أرضية للمفهوم، ومادام الأمر يتعلق بمفهوم الخطاب فإنّ مفهومه تأرجح بين النسخ عن الغرب، واتخاذ مفاهيمهم أساسا للحكم على النص الأدبي العربي، وبين الانطلاق من المفهوم الغربي، وصياغة مفاهيم جديدة تتساوق والنص الأدبي المدروس، وفي الحالين يصار إلى استبعاد الأساس العربي الذي رسم حدودا لمفهوم الخطاب لا تبعد في جوهرها عن المفهوم الغربي الحديث له.[١]

ولا بأس أن نطرح عددا من التعريفات الاصطلاحية التي توصّل إليها عدد من الباحثين الغربيين، والعرب:

أ- آراء الغربيين:

وضع الباحثون المتخصصون المعاصرون تعريفات شتّى للخطاب بوصفه ممارسة اتصالية بين المتكلم، والسامع، نورد بعضا منها، نراها تعبّر عن عمق التحليل، ومصداقية التعبير، وما ينماز به واضع التعريف من قدرة على استيعاب حيثيات الخطاب وبما ينسجم مع التطور الزمني للعلوم اللغوية، واللسانية، وما توصلوا إليه من استنتاجات علمية، وواقعية بعد تجارب استغرقت الوقت الكثير.

ولعلّ أبرز من أعطى التعريف حقّه من العلماء المحدثين، وحدّد قواعده هو العالم الفرنسي (ميشيل فوكو) إذ عرّف الخطاب بأنّه ((مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية، أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لانهاية، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ، بل عبارة عن عدد محصور من المنطوقات التي تستطيع تحديد شروط وجودها)).[٢]

---

(١) يُنظر: تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث (أطروحة):٢٠.

(٢) مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو:٩٥.

ويرى الفيلسوف البلغاري (تزيفيتان تودوروف Tzevetan Todorov) أنّ الخطاب هو: أي منطوق، أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ، ومستمع، وفي نية الراوي التأثير في المستمع بطريقة ما.(١)

ويشير (تودوروف) إلى أنّ الخطاب إنّما يؤشّر إلى طبيعة الخلق في اللغة، وليس هناك من فرق بين المنطوق، والمكتوب في وصفه بالخطاب إذا تحققت فيه شروط يمكن إجمالها في الآتي: (الاستدلال، والاحتجاج، وسرد الأدلّة، والبراهين، والحوادث التي تنطوي في تلافيف أبعادها العلائقية على بعد زمني معين فضلًا على الحدث الذي تبثّه هذه الواقعة الإسنادية).(٢)

والخطاب من وجهة نظر اللساني وعالم الإنسانيات الفرنسي (بول ريكور paul Ricoeur) هو (الواقعة اللغوية)، ومن المعروف أنّ الخطاب، أو الكلام هو نقطة الضعف المعرفية للغة في رأي اللغويين الذين يطبّقون معايير البنى، والأنظمة؛ لأنّه ينطوي على البعد الزمني؛ وهو بعدٌ متغير تريد الأنظمة أنْ تتخطاه، وبسبب هذا البعد الزمني؛ فالخطاب واقعة.(٣)

أهمّ صفة يتصف بها الخطاب على وفق (ريكور) هي الإسناد، وهو ينقل عن (بنفنيست) أنّ اللّغة تستغني عن الفاعل، أو المبتدأ، أو المفعول، أو غير ذلك من المقولات اللغوية ولكنّها لن تستغني أبدا عن المسند(٤).

وخلاصة القول إنّ الخطاب، من حيث هو واقعة، أو قضية، –أي من حيث هو وظيفة اسنادٍ متداخلة، ومتفاعلة بوظيفة هوية شيء مجرّد يعتمد على كلّ عيني ملموس–، هو الوحدة الجدلية بين الواقعة، والمعنى في الجملة، والواقعة الكلامية تذكرنا أنّ الخطاب يُدرَك زمنيا وفي لحظة آنية، في حين أنّ النظام، أو النسق اللغوي افتراضيّ، وخارج الزمن، لكنّ ذلك لا يحدث إلاّ في لحظة التحقق الفعلي، والانتقال من اللغة إلى الخطاب، وأنّ هذه الوظيفة هي ما تسمّيها نظرية أفعال الكلام

(١) ينظر: اللغة والأدب في الخطاب الأدبي:٤٨.

(٢) يُنظر: الأدب والدلالة:١٦.

(٣) ينظر: نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى:١٢.

(٤) يُنظر: م،ن:١٣.

عند الفيلسوف البريطاني (جون لانجشو أوستن jouhn langshou Austin) بالأداء (performance)[١].

أمّا اللساني السيميائي الفرنسي (إميل بنفنيست E benveniste) فيعرّفه بأنّه كلّ تلفظ يفترض متكلّما ومستمعا، عند الأول هدف التأثير في الثاني بطريقة ما فيقع التلفظ بضمن علم لغة الكلام، ويصفه بأنّه إجراء اللغة بمقتضى فعل فردي في الاستعمال، أي أنّ الخطاب عبارة عن اللغة في حالة فعل بوصفه اللغة بين شركاء التواصل.[٢]

أمّا عند اللسانيين الفرنسيين (جون كلود أونسكومبر jean claud eniscomper) و(أوزفالد ديكرو Oswald decro) فهو نشاط كلامي مؤدّى (محقّق) من قبل المتكلم في اللحظة التي يتحدث فيها، ومن قبل المستمع ايضا في اللحظة التي يسمع فيها، فضلًا على إنّه يمثل مجموعة النصوص ذات العلاقات المشتركة.[٣]

وعرّفه اللساني الألماني (روبرت شولز Robert scholes) بأنّه ((تلك الجوانب التقويمية، والتقديرية، أو الإقناعية، أو البلاغية في نص ما، أي في مقابل الجوانب التي تُسمّى، أو تُشخّص، أو تنقّل فقط)).[٤]

بعد هذه التعريفات للباحثين الغربين يمكن لنا أن نصل إلى بعض الحقائق:

١-إنّ الخطاب رسالة معدّة مسبّقا، وبأطر محددة.

٢-الخطاب نظام ذو تركيب وتناسق معينين.

٣-الخطاب نتاج، وكلّ منتج خطابي لابدّ له من هدف ذي مضامين واضحة، ومؤثّرة في السامع بطريقة ما.

٤-لابدّ للخطاب من مرتكزات ثلاثة هي: (المرسل، والمرسل إليه، والنص).

---

(١) يُنظر: نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى: ١٣.

(٢) ينظر: عن الذاتية في اللغة(بحث):٦٢.

(٣) ينظر: النص والخطاب والاجراء:٦.

(٤) سيمياء التأويل:٢٤٥.

٥-أهداف الخطاب متنوعة قد تكون إجبارية، أو توجيهية، أو إقناعيه، وربما كلّها معا.

ب- آراء العرب:

أمّا الباحثون العرب فقد كانت لهم آراؤهم، وتحليلاتهم، ومنهم من وضع تعريفا للخطاب، فقد عدّ بعضهم آراء (سوسير) عن الكلام كلاما يقصد في معناه الخطاب مثلما نجد في حديث (رابح بوحوش) إذ يقول: ((تعود نشأة الخطاب الأولى إلى اللغوي السويسري (فرديناند دي سوسير Frdinand de Saussure) الذي ذكر بأنّ الكلام نتاج فردي كامل يصدر عن وعي، وإرادة، ويتصف بالاختيار الحرّ، وحرية الفرد الناطق تتجلّى في استعماله انساقا للتعبير عن فكره الشخصي)).[١]

وعرّفه (عبد الواسع الحميري) بقوله: ((هو استراتيجية التلفظ، أو هو نظام مركّب من عدد من الأنظمة التوجيهية، والتركيبية، والدلالية، والوظيفية (النفعية) التي تتوازى، وتتقاطع جزئيًا، أو كلّيا فيما بينها)).[٢]

وذهبت الباحثة (ذهبية حمّو الحاج) إلى القول: ((إنّ التلفظ من الناحية المبدئية هو مجموعة من الظواهر المُشاهدة عندما نبدأ في الحديث، وضمن فعل تواصلي معين، فينبغي أن يكون للفرد ملكة لغوية يقوم بتسخيرها انطلاقا من تداولاته وإلّا بقيت تلك الملكة في مواطن اللاملفوظ)).[٣]

ويذكر (سعيد يقطين) أنّه: ((لتحديد الخطاب، وتحليله، التحديد، والتحليل المقبولين، علينا أن نحدد الاتجاه الذي ننتمي، والمجال الذي نشتغل فيه وفق أسئلة أبستمولوجية محددة، نجيب من خلالها عن هذه الأسئلة لماذا هذا التعريف؟ ماهي الأدوات، والإجراءات المناسبة؟ إلى ماذا نبغي الوصول؟ وكيف؟)).[٤]

ثمّ تكلّم يقطين عن توجّه اللساني الفرنسي (فرانسوا راستي franswah raastee)، وضرورة قيام علم خاص بالخطابات، ويتناول بعد ذلك مفهوم الخطاب

---

(١) الاسلوبيات وتحليل الخطاب:٧١.

(٢) ما الخطاب؟ وكيف نحلله:٩.

(٣) لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب:٩٤.

(٤) تحليل الخطاب الروائي(بحث):٢٦.

عند الفرنسي (دومينيك مانغينو Dominique maingueneau) الذي يضيف مقام التواصل إلى خاصية الإنتاج، والدلالة.[١]

وقد جمع (فرحان بدري الحربي) مقولات هامة قِيلت في الخطاب محاولا استيفاء وجوه التطور الحاصل في المفهوم بقوله: ((الخطاب مصطلح مرادف للكلام (parol) وفقًا لرأي (سوسير)، وهناك خطاب أدبي وفقًا لرأي (شارل موريس)، ومن هذه المقولات:

- الخطاب وحدة لغوية ينتجها المخاطِب تتجاوز الجملة، أو الرسالة، وفقًا لرأي اللغوي الأمريكي (زيليغ هاريس zellig Haris).
- هو وحدة لغوية تفوق الجملة ترد من لغة جماعية كما ذكر (بنفنيست).
- مفهوم الخطاب يقابل مفهوم التلفظ، في المدرسة الفرنسية، إذ إنّهم يرون أنّ النظر إلى النص على أنّه بناء لغويٌّ يجعل منه ملفوظًا، أمّا البحث في ظروف إنتاجه وشروطه فإنّه يجعل منه خطابا.
- وهو نظيرٌ بنيويّ المفهوم والوظيفة في استعمال اللغة وفقًا لرأي (تود وروف))[٢].

في حين يعدّ(أحمد المتوكل) كلّ ملفوظ أو مكتوب خطابًا يشكّل وحدة تواصلية قائمة الذّات.[٣]

وبعد هذه التعريفات للخطاب تبرز ثلاثة تصورات يُعتقد أنّها ادّت إلى صياغة تلك التعريفات:

١-التصور التركيبي: وهو التصور الذي ينطلق من وجهة نظر تركيبية، وينظر إلى الخطاب من خلالها على أساس المكونات التركيبية، وتبعا لذلك تتم مقابلته بمفهوم الجملة.

٢-التصور الدلالي: يقوم هذا التصور على اعتبار دلالة الخطاب، فدلالة الخطاب ليست كدلالة الجملة، أو النص وإذا كان بعض اللسانيين يرون أنّ الخطاب

---

(١) يُنظر: تحليل الخطاب الروائي:١٩.

(٢) الأسلوبية في النقد العربي الحديث:٣٩-٤٠.

(٣) يُنظر : الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط: ٢٤ .

مساو للنص من ناحية الدلالة، فإنّهم يشترطون فضلًا على شمولية الجملة أن يكون متماسكا.

٣-التصور التداولي: هو الأكثر شيوعا، وهو لا ينظر إلى الخطاب بوصفه تتابعا جمليا، أو كلًّا دلاليا، متماسكا وإنّما هو سيرورة تواصلية دلالية لا تنفك عن المقام التواصلي الذي تمّ انتاجه فيه.(١)

وعلى هذا فإنّ الخطاب يأخذ مفهومه بالنسبة إلى الوحدات اللسانية ألأخرى على النحو الاتي:

- بالنسبة للجملة: يعدُّ الخطاب وحدة فوق جميلة.
- بالنسبة للملفوظ: يشكل الخطاب وحدة تواصلية مجموعة بظروف إنتاج معينة، وتشير إلى جنس معين من أجناس الخطاب، بينما النظر إلى النص من جهة بنائه اللغوي يجعلنا نتكلم عن ملفوظ هو نتاج عملية التلفظ أينما يكون تحليل ظروف إنتاج هذا النص حديثا عن الخطاب.
- بالنسبة إلى النص: يعدّ النص خطابا إذا نظرنا إليه مجموعا مع سياق إنتاجه.
- بالنسبة إلى التلفظ: يعدُّ التلفظ حاملا نوعيا لسياق الخطاب، وعلى هذا فهو ضروري في اعتبار الملفوظ خطابا.(٢)

والملاحظ عند استعراض مختلف التعريفات التي وُضعت للخطاب نرى أنّها أكّدت الدور التفاعلي، والتأثيري للخطاب، وهذه الوظيفة هي الفارقة بينه، وبين سائر النصوص باعتباره نصا لغويا.(٣)

رابعًا: الكفاية اللغوية والكفاية التداولية:

لقد عرفت النظرية اللغوية طائفة من الثنائيات المفهومية التي ارتبطت بنظريات ومناهج في الفكر اللغوي.(٤) وتعدّ (الكفاية اللغوية والكفاية التداولية) إحدى هذه الثنائيات.

---

(١) يُنظر: تداولية الخطاب السردي:١٤-١٥.

(٢) يُنظر: م،ن: الصفحة نفسها.

(٣) يُنظر:مقدمة في نظرية الخطاب:٣٠.

(٤) يُنظر: النص والخطاب والاتصال: ١٥.

الكفاية في اللغة وكما أشارت لذلك المعجمات العربية، هي: ((كفى يكفي كفاية إذا قام بالأمر، ويُقال استكفيته أمرا فكفانيه، ويُقال كفاك هذا الأمر أي حسْبك... ويُقال كفاه مؤونته كفاية، وكفاك الشيء يكفيك، واكتفيتُ به))[١]. والملاحظ أنّ معنى الكفاية ينعقد على مفهومين، الأول: القيام بالأمر، والثاني: الوصول الى درجة المبتغى.

أمّا في الاصطلاح: فهو القيام بأمر ما، والوصول إلى درجة معينة من الإتقان تتفاوت تبعا للشخص الذي يقوم به. بحيث تصل هذ الكفاية أحيانا إلى مستوى التميز ضمن مستويات المقبولية.[٢]

أ- الكفاية اللغوية linguistic competence

و تتحدد الكفاية اللغوية بأنّها المعرفة الضمنية بقواعد اللغة التي هي قائمة في ذهن متكلّم اللغة، وهي حقيقة كامنة وراء الأداء الكلامي الذي ينحرف بعض الشيء عنها، وهي التي توجهه في ظروف التكلّم المختلفة.[٣]

وتعدّ الكفاية اللغوية من الأهمية بمكان أنّه يجب على أي متكلّم امتلاكها، وهي ((تستمدّ وجودها من وجود قواعد، وأنظمة لغوية معينة، بمختلف مستوياتها، الصوتية، والتركيبية، والدلالية))[٤] وقد استعمل (ابن خُلدون) (ت٧٢٩هـ) مصطلح (الملكة) مشيرا إلى (الكفاية اللغوية) فقد جاء قوله: ((اعلم أنّ اللغات كلّها شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها، وقصورها، بحسب تمام الملكة، أو نقصانها، وليس بالنظر إلى المفردات، وإنّما بالنظر إلى التراكيب فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع وهذا هو معنى البلاغة)).[٥]

---

(١) لسان العرب: ٣٩٠٧/٤٣.

(٢) يُنظر: مصطلح الكفاية وتداخل المفهوم في اللسانيات التطبيقية(بحث): ٥.

(٣) يُنظر: التواصل اللغوي، مقاربة لسانية تداولية وظيفية:٤٢.

(٤) الكفاية التواصلية والاتصالية، دراسات في اللغة والاعلام: ٨٨.

(٥) المقدمة: ٣٧٨/٢.

يتّضح لنا أنّ ابن خُلدون يقدّم مفهوما للبلاغة اعتمادا على الكفاية اللغوية بتركيب الألفاظ المفردة لتدلّ على المعاني المقصودة، ومطابقتها لمقتضى الحال الذي يمر به المتكلّم عند تلفظه الخطاب.

وقد ذهب الدكتور (كمال بشر) إلى أنّ الكفاية اللغوية هي: معرفة الانسان بلغته (وهي معرفة عقلية)، أو بعبارة أخرى، هي نظام القواعد التي يسيطر عليها الإنسان وهي سيطرة لاشعورية، وغير خاضعة للملاحظة الاختيارية.[١]

ب- الكفاية التداولية (communicative competence)

١-الكفاية التداولية في التراث العربي:

اهتمّ اللغويون العرب اهتماما كبيرا، وعميقا باللغة، وقد ارتبط مفهوم (الكفاية التداولية) عند المفكرين من اللغوين العرب بمصطلحات (الفطرة، أو السليقة، أو الملكة ...)، ويمكن لنا أن نجمل ذلك بثلاثة اتجاهات[٢] هي:

- **الاتجاه اللغوي:** ويمثله علماء اللغة ولعلّ أبرزهم (ابن جنّي) (ت ٣٩٢هـ) و(ابن فارس) (ت٣٩٥هـ) أمّا ابن جنّي فقد وقف متحيّرًا في اصل اللّغة أهي توقيف أم اصطلاح ومواضعة، فلم نره يُجزم بأحد الرأيين ولو أنّه رجّح أن تكون توقيفًا من الله على حدّ قوله ((فقويَ في نفسي اعتقادُ كونها توقفًا من الله سبحانه، وأنّها وحيٌ))[٣] في حين تنبّه ابن فارس إلى أنّ اللغة تُؤخذ بطريقة اعتيادية هي: (الاكتساب الفطري) من طريق الاستماع مشيرا إلى أنّ الصبي العربي يسمع من أبويه، وغيرهما فهو يأخذ اللغة عنهم على مرّ الأوقات.[٤]
- **الاتجاه البلاغي النقدي:** وأبرز من تصدّى لهذا الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) فقد أشار الجاحظ إشارتين مهمّتين في هذه القضية ذكر في الأولى كيفية اكتساب الطفل للغة، وأنّ ذلك لا يكون بمحض إرادته، وإنّما (الفطرة) لها أثرٌ في ذلك إذ يقول: ((الميم، والباء أول ما يتهيأ في أفواه

---

(١) يُنظر: علم اللغة الاجتماعي: كمال بشر:٥٨.

(٢) الكفاية التداولية في التراث اللغوي العربي واثرها في العالم الاجتماعي دل هايمز (بحث)

(٣) الخصائص: ٤٧/١.

(٤) يُنظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية:١٣.

الأطفال كقولهم (ما ما، با با)؛ لأنّهما خارجان من عمل اللسان، وإنّما يظهران بالتقاء الشفتين))[١].

أمّا الإشارة الثانية فهي: عملية اكتساب اللغة الثانية بعد التقدّم في السن إذ يرى إمكانية ان يتعلّم الكبير غير لغته التي نشأ عليها، لكنّ تعليمه، واكتسابه لها يكون بصورة غير صحيحة يقول: ((فأمّا حروف الكلام فإنّ حكمها إذا تمكّنت في الألسنة خلاف هذا الحكم، ألا ترى أنّ السندي إذا جُلِب كبيرا فإنّه لا يستطيع إلاّ أن يجعل الجيم زايا ولو أقام في عليا تميم، وفي سفلى قيس، وبين عجز هوازن خمسين عاما، وكذلك النبطي القُحّ خلاف المِغلاق الذي نشأ في بلاد النبط ؛لأنّ النبطي القحّ يجعل الزاي سينا، فإذا أراد أن يقول (زورق)، قال (سورق)، ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول (مشمعل) قال (مشمئل))[٢]؛ لأنّه ((متى ترك شمائله على حالها، ولسانه على سجيته كان مقصورا بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه))[٣].

- **اتجاه علماء اللغة الاجتماعيين السلوكيين:** وقد بدا هذا الاتجاه واضحا عند ابن خُلدون الذي أدرك أنّ اللغة كامنة في المجتمع، وهي نتاج احتكاك أفراد المجتمعات فيما بينها ولاسيما في حالة تداخل نمطين لغويين، أو أكثر مما يؤدّي إلى إنتاج حركية في التأثير، والتأثر بين اللغات[٤]، وقد ميّز بين نوعين من الاكتساب اللغوي:
- **الأول:** يرى أنّ المتكلّم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطبتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم؛ كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها؛ فيلقّنها أولا ثمّ يسمع التراكيب بعدها، ويلقّنها أيضا ومع تجدد هذه العملية تُصبح ملكةً، وصفةً.[٥]

---

(١) البيان والتبيين: ٦٢/١.

(٢) م.ن: ٧٠/١.

(٣) م.ن: الصفحة نفسها.

(٤) يُنظر: ابن خُلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية: ٥٠.

(٥) يُنظر: المقدمة: ٣٧٨/٢.

- **الثاني:** الاكتساب اللغوي لغير الناطقين بلغة العرب، وهم مضطرون للنطق بغير لغتهم فهم لا يملكون ملكة اللسان المطلوبة، فقد ذهبت عنهم، وبعدوا عنها فيحصلون على الكفاية اللغوية من دون الإجادة التواصلية.(١)

وقد عَرَفَ علماء أصول الفقه الإسلامي ثنائية مشابهة لثنائيتي سوسير (اللغة، والكلام)، وتشو مسكي (الكفاية، والأداء)، وهي ثنائية (الوضع، والاستعمال)، فالوضع هو عزو معنى للفظ يدلّ عليه، والاستعمال هو إطلاق اللفظ وإرادة المعنى الوضعي الأصلي، أو معنى آخر مقترن بقرينة الدلالة عليه.(٢)

فالوضع إذن عملية سابقة زمنيا، وافتراضيا على الاستعمال، وهي من شؤون أهل اللغة. أمّا الاستعمال فهو عمل يقوم به المخاطب، والوضع قد يكون فرديا جزئيا كما في تحديد معنى الكلمة بعينها في اللغة، نحو (أسد) في دلالتها على الحيوان المفترس، وقد يكون عامّا كلّيا يتعلّق بصوغ قاعدة كلّيّة، أو بناء نمط عام لتركيب ما. وفي كلّ الأحوال فإنّ متكلّم اللغة محكوم بمواضعات لغوية سابقة، وضوابط، ومبادئ استعمالية تُعينه على أداء عملية التخاطب بنجاح.(٣)

من هنا نجد أنّ علماءنا العرب ركّزوا على أمور متعددة منها: التمييز بين الملكة اللسانية الفطرية، وصناعة العربية المكتسبة، والقدرة على الإبداع في تنويع الكلام، وتجديده فضلًا على تركيزهم على صناعة الكلام بالاعتماد على قوانين اللغة.(٤)

حتى أنّنا نجد أنّ مصطلحاتهم اقتربت كثيرا من المصطلحات اللسانية الحديثة، والتي لها علاقة بـ(الكفاية التداولية) نحو (الاكتساب الفطري، أو اللغوي، أو السليقة) التي تقابل الكفاية التداولية، و(أحكام إجادة اللسان)، مقابل الكفاية اللغوية.

---

(١) يُنظر: م ، ن: ٣٨٨/٢.

(٢) يُنظر: علم التخاطب الاسلامي:٥٩.

(٣) يُنظر: الكفاية اللغوية والكفاية التداولية (بحث): ٧.

(٤) يُنظر: دلائل الإعجاز: ٩٣.

٢-الكفاية التداولية في اللسانيات الحديثة:

يُستعمل مصطلح (الكفاية) في اللسانيات الحديثة مقابلا للمصطلح الانكليزي (competence) الذي يشير إلى مفهومين: الأول: القدرة وهي التي تكمن عند الفرد، وتمكّنه من انتاج عدد لامتناه من الجمل، والثاني: الملكة اللسانية، فالقدرة أو الكفاية اللسانية تعدّ تجسيدا، أو تمثيلا للملكة اللسانية.(١)

وأول من استعمل هذا المصطلح هو العالم اللساني الأمريكي (دل هايمز dill hymes) عندما رأى أنّ فكرة الفيلسوف الأمريكي (إفرام نعوم تشو مسكي Avram noam Chomsky) عن القدرة بأنّها محدودة، وغير شاملة، كما ذكر بعضهم أنّ الكفاية النحوية (grammatical competence) تعني نظاما ثابتا من المبادئ المولّدة التي تمكّن كلّ واحد منّا من انتاج عددٍ لامتناه من الجمل ذات معنى، ويبدو أنّ (تشومسكي) يركّز على الكفاية اللغوية، والأداء الكلامي لدى الفرد؛ لكونها المعرفة الضمنية لمتكلّم اللغة، أي توضّح الاستعمال اللغوي عند الانسان.(٢) نستخلص إذن أنّ الكفاية اللغوية عند (تشومسكي) تعني: معرفة المتكلّم بلغته، والكفاية التداولية ما ينتج عن هذه المعرفة من كلام متحقق في مواقف ملموسة.(٣)

وهذا ما دفع (هايمز، ومعه اللساني الانكليزي (مايكل هاليدي m-Haliday) إلى اقتراح ما أسمياه (الكفاية الاتّصالية) التي تشمل المعرفة بأصول الكلام، وأساليبه، ومراعاة المخاطَبين، مع القدرة على تنويع الكلام بحسب مقتضى الحال، فضلًا على ذلك المعرفة الواعية بقواعد اللغة.(٤)

وتتجلّى أهمية الكفاية التداولية في دفع النظرية في اتجاه مساعدتنا على فهم الكيفية التي يمكن أن تستعمل بها العبارات اللغوية في التفاعل التواصلي، أي الكيفية التي تجعل من الممكن استعمال العبارات اللغوية في خصائصها البنيوية مع وقائع تواصلية معينة، ويتطلّب ذلك أن تكون الأنحاء الوظيفية مزوّدة بجهاز من

---

(١) يُنظر: اللسانيات واللغة العربية: ٢/٢٥٦.

(٢) يُنظر: مباحث في الألسنية واللغة العربية: ١٥٤.

(٣) يُنظر: المعايير النحوية والمعايير الاتصالية، دراسة لغوية تداولية: ١٧.

(٤) يُنظر: النص والخطاب والاتصال: ١٦.

المفاهيم يستطيع رصد الخصائص التداولية للظواهر اللغوية؛ كما يفرض أن يكون المكون التداولي في بنية النحو مكونا أوليا انسجاما مع الافتراض الأساسيّ القاضي باعتبار بنيات اللغات الطبيعية تتحدد بمختلف الأهداف التواصلية التي تستعمل من اجلها؛ إذ على كل نحو وظيفي أن يُراعي – في تحديد العلاقة بين مكوناته – أسبقية التمثيل لخصائص اللغة التداولية على خصائصها الدلالية، والتركيبية انسجاما مع الافتراض الذي يعدّ التركيب تابعا للدلالة، ويَعِدُّ كلًّا من التركيب، والدلالة تابعين للتداول.(١)

وممّا أسلفنا يبدو واضحا أنّ الكفاية التداولية، مكون فاعل ضمن تكوين الإنسان السويّ تماما كما هي الكفاية اللغوية، التي لا يمكن أن تنهض لوحدها بعملية التواصل المناسب للسياق على الرغم من كونها أساسا فيها، فالكفاية التداولية هي التي تستثمر تلك القوالب الكامنة في ذهن الإنسان، بما في ذلك كفايته اللغوية، بما تفرضه من قوانين بحسب مظاهر السياق، وما يستحسنه المرسل؛ ففيها تتبلور جميع المعطيات، اللغوية، والسياقية الأخرى فتصبح هي القوة المائزة.(٢)

إذ إنّ عمل القوانين اللغوية وصف ما يفعله المخاطِب، والمخاطَب في لغة معينة، أمّا قوانين التواصل فإنّها تصف ما يستحسن فعله، وتتعامل الاستراتيجيات مع عملية اختيار أفضل الوسائل تأثيرا من السلوكيات التواصلية التبادلية.(٣)

والجدير بالذكر أنّ الكفاية التداولية ليست نسقا بسيطا، بل هي أنساق متعددة متآلفة إذ ذهب (فان دايك) إلى أنّ المقدرة التداولية لدى مستعملي اللغة الطبيعية تتكون من خمس ملكات هي:

١–الملكة اللغوية: وهي قدرة مستعمل اللغة على انتاج، وتأويل عبارات لغوية متنوعة.

٢–الملكة المنطقية: القدرة على اشتقاق معارف أخرى، عن طريق قواعد محكومة بالمنطق الاستنباطي، والمنطقي الاحتمالي.

---

(١) يُنظر: التواصل اللغوي، مقاربة لسانية وظيفية: ٤٢.

(٢) يُنظر: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية: ٥٩.

(٣) يُنظر: آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي: ٣٢.

٣-الملكة المعرفية: القدرة على تكوين رصيد من المعارف المنظمة، واشتقاق أخرى من العبارات اللغوية، واختزانها بالشكل المطلوب، فضلًا على القدرة على استحضارها في تأويل العبارات اللغوية.

٤-الملكة الادراكية: قدرة مستعمل اللغة على ادراك محيطه، واشتقاق معارف، واستعمالها في انتاج العبارات اللغوية، وتأويلها.

٥-الملكة الاجتماعية: لابدّ لمستعمل اللغة الطبيعية أن يعرف كيف يقول لمخاطَبه فضلًا على ما يقوله في موقف تواصلي معين بغية تحقيق الهدف التواصلي. ووفقا لهذا المُعْطى اقترح (فان دايك) أن يصاغ نموذج مستعمل اللغة الطبيعية في شكل جهاز يتكون من خمسة قوالب.(١)

ومن علمائنا العرب القدماء من كان قريبا جدا من هذا التقسيم بل كان أكثر توسعا في تصنيفه وهو (حازم القرطاجنّي) (ت٦٣٢هـ). وقد سمّاها القوى الفكرية، والاهتداءات الخاطرية، مقسما إيّاها على ثمانية أقسام:

١-القدرة على التشبيه فيما لا يجري على السجية، والطبع بما يجري على السجية.

٢-القدرة على تصور الكلّيات، والمقاصد الواقعة فيها، ومعاني تلك المقاصد.

٣-القدرة على التخيّل، والحفظ بطريقة منتظمة، ومرتبة الخيالات.

٤-القدرة على ملاحظة الوجوه التي بها يتم التناسب بين المعاني، وإيقاع تلك النسب بينها.

٥-القدرة على اختيار العبارات الحسنة الوضع.

٦-القوة الصانعة، وهي القدرة في تصيير تلك العبارات بضم بعضها إلى بعض، والتدرج من بعضها إلى بعض.

٧-القدرة على العدول، والانتقال من حيّز إلى حيز، والخروج منه إليه، والتواصل به إليه.

القوة المائزة، وهي التي يميّز بها الإنسان ما يلائِم ممّا لا يلائِم الموضع، وما يصحّ ممّا لا يصح.(٢)

---

(١) يُنظر : قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: ٣٠.

(٢) يُنظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ١٧٨-١٧٩.

المبحث الأوّل:(العلاقة بين طرفي الخطاب)

اللغة نتاج اجتماعي، ووضع التواصل يتحدد بالبعد الاجتماعي الاستعمالي بين المتخاطبين؛ كونه حوارا متبادلا بين متكلم ينتج ملفوظا متوجها نحو متكلم آخر، ومتلقٍ يتوخّى الاستماع، والاجابة، وبذلك يكون شعار النظرية الوظيفية مرتبطا بفكرة الاستعمال الاجتماعي للغة، وبأنّ المعنى في النهاية هو الاستعمال نفسه، أي استعمال اللغة لتحقيق أغراض معينة من أفراد معينين في مجتمع معين؛ لأنّها أي اللغة ترتبط وظيفيا بالأنشطة الفعلية للإنسان التي لا يمكن أن تتعين إلاّ بوصفها تواصلا مع الذات، أم مع الآخرين على حدّ سواء، فاللغة في نظر الوظيفيين لا يمكن ان تبقى جامدة، ومحتفظة بصورة واحدة ولكن عليها أن تواكب في النهاية هذا النوع، والتعدد في أغراضنا التواصلية من استعمالنا لها. فضلًا على ذلك فإنّ الخلط الذي يملأ أذهاننا، والتوهم إنّما ينشآن حين تكون اللغة اشبه ما تكون بالآلة الخاملة الساكنة، لا حينما تقوم بوظيفتها.[١]

و أنّ اللغة في نظر الاتجاه الوظيفي، أو النظرية الوظيفية عبارة عن وسيلة اتصال يستعملها المجتمع للوصول إلى أهداف، وغايات محددة، كون التواصل يمثل الوظيفة الرئيسة المهيمنة على بقية الوظائف كالتعبيرية، والتمييزية، وغيرهما، وإذا أردنا أن نصل إلى صياغة منهجية تمثل جوهر اهتمام الاتجاه الوظيفي، فإنّ ذلك يتمثل في السؤال الذي طرحته هذه المدرسة وهو لماذا نستعمل اللغة.[٢] وإذا ما علمنا أنّ جذور استعمال أية لغة تمتدّ حتما إلى البنى الاجتماعية بأشكالها كافة، وصيغها؛ لكون اللغة مؤسسة إنسانية على الرغم من اختلاف بنيتها من مجتمع لغوي إلى آخر، أدركنا عند ذلك القيمة الافتراضية، والاستدلالية الوجيهة التي ينطلق منها هذا الاتجاه، حيث أساليب التخاطب اللغوي تكون شاهدة في انحدارها نحو المقاصد المقامية المختلفة التي يلفظ ظلالها هذا النص وذاك التركيب.[٣] وتتجسد هذه العلاقة بـ :

---

(١) ينظر: في اللسانيات العامّة:٨١.

(٢) ينظر: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة(بحث):٧١.

(٣) ينظر: اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة:١٠٠.

١-مسلّمة الحوارية:

إنّ الشبكة التي تؤسس عملية التخاطب شبكة معقّدة، وهي تؤكد أنّ ظروف المقال غير اللغوية كالمتكلم، والسامع تقوم بدور مهم في تحديد خصائص الخطاب، ذلك إنّ جزءا كبيرا من معاني المفردات، والجمل المستعملة يعتمد الخبرة المشتركة بين المتكلم والمتلقي، فالمتكلم يمثل من النظرية البلاغية منزلة مرموقة، فهو طرف أساسيّ في عملية الكلام، وعنصر فعّال في تحديد خصائص الخطاب إذ على عاتقه تقع كلفة إخراجه على سمت يستجيب لمقتضيات الوظيفة، والإبانة، والمقام.(١) وهو الذي يعمل الأعمال الدلالية التي تنقلب عند النحوي إلى مفاهيم ويعمل الاعمال الدلالية التي تنقلب عند البلاغي إلى مفاهيم بلاغية معنوية، أو مجازية، أو بديعية.(٢)

و أنّه مدعو لتحقيق المناسبة المرجوة حتى لا يخرج عن هذه البلاغة إلى مراعاة الغرض الذي يسعى الحديث لتحقيقه، فلا يخلط بين أقدار الألفاظ، وأقدار المعاني، ولا يضع الجدّ حيث يجب الهزل.(٣)

ويُعدّ المخاطَبُ، أو المتلقي قطبا آخر من أقطاب العملية التخاطبية، فمراعاته، ومراعاة مقامه، وجلب انتباهه مما يؤثر في تركيب الجمل وحشر مكوناتها على وفق ترتيب معين، و أنّ عدم اعتبار المخاطب قد يؤدّي إلى خلق حالة معاكسة تماما لما كان المتكلم يروم إليه.(٤)

فمعرفة أقدار المنزلة واجبة؛ لأنّ مدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقاتهم، والحمل عليهم على أقدار منزلتهم(٥)من مهام المتكلم الذي يجب أن يبلغ من

---

(١) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب:٢٤٨.

(٢) ينظر: الطبيعة والتمثال:٢٢٨؛ وينظر: نظرية النحو العربي:٨٥-٨٦.

(٣) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب:٢١٢، وينظر: نظرية اللغة في النقد العربي:٤٩٢-٤٩٣.

(٤) ينظر: البيان والتبيين: ١/١٦٢-١٦٣.

(٥) يُنظر: م.ن: ١/٩٢ ، وينظر: نصوص النظرية البلاغية:٦٤.

السامع مقصده كنشاط السامعين، ووجودهم على هيأة جسدية، وعقلية تسمح لهم بتمثيل ما يقال لهم.[١] وقد نُقِل في هذا الصدد قول ابن مسعود ((حدّث الناس ما حدّجوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترة فامسك)).[٢]

ولعلّ جلب الانتباه هو ما جعل ابن جنّي (ت٣٩٢هـ) يقول: ((فلو كان استماع الأذن مُغنيًا عن مقابلة العين مُجزئا عنه لما تكلّف القائل، ولا كلّف صاحبه الاقبال عليه، والاصغاء إليه ... وعلى ذلك قالوا: رُبّ إشارة أبلغ من عبارة، وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله: أنا لا احسن ان أكلم إنسانا في ظلمة))[٣].

ولأجل أنّ الاعتبارات اللغوية تتبع احوال المخلوقين، وعلاقاتهم، وعاداتهم الاجتماعية، وما يقتضيه ظاهر البنية، وموضوع الجبلّة[٤] أوصى بشر ابن المعتمر(ت٢١٠هـ) المتكلّم ((أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها، وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما، ولكلّ حالة من ذلك مقاما حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات))[٥] فمراعاة حال المتكلم شكلا، ومضمونا تقف جنبا إلى جنب مع مراعاة حال المخاطَب؛ ولهذا قال الجاحظ(ت٢٥٥هـ): ((إنّ المفهِم لك، والمفهَم عنك شريكان في الفضل، إلاّ أنّ المفهِم أفضل من المفهَم، وكذلك المعلّم، والمتعلّم، هكذا ظاهر هذه القضية، وجمهور هذه الحكومة))[٦] إنّ كلاًّ من المقام، والمتكلم، والمخاطَب عناصر غير لغوية، وهي تمثل ضغوطا إنجازيه قصوى، إن رُوعيت حسُن الكلام، ونجعت العملية التخاطبية،

---

(١) ينظر: مع البلاغة العربية في تاريخها:٧٣ ، وينظر: التفكير البلاغي عند العرب:٢٠٩.

(٢) البيان والتبيين: ١/١٠٤.

(٣) الخصائص: ١/٢٤٧ ، وينظر: نظرية النحو العربي:٩٧.

(٤) ينظر: أسرار البلاغة:٣٦٥.

(٥) البيان والتبيين: ١/١٣٦-١٣٧ ، ويُنظر: الصناعتين: ١٤١.

(٦) البيان والتبيين: ١/١١-١٢.

وارتقت أعلى القمم البلاغية، ولا يمكن للمعنى أن يتضح إلاّ باستحضار المقام الحيّ، والمتكلم الفطن، والمتلقي اليقظ.[١]

وإنّ حقيقة الكلام لا تقوم بمجرّد النطق بألفاظ مرتبة على مقتضى مدلولات محددة ؛لأنّ هذا النطق قد يقع عرضا في حال النوم، والترتيب قد يأتي صدفة كما في حال اللعب؛ والدلالة قد تُنتزع عنوة كما في حال فلتة اللسان، وإنّما حقيقته كامنة في كونه ينبني على قصدين اثنين أحدهما يتعلق بـ(التوجه إلى الغير)، والثاني يتصل بـ(إفهام الغير)، وما يهمنا في هذا المقام القصد الأول ومقتضاه أنّ المنطوق به لا يكون كلاما حقا حتى تحصل من الناطق إرادة توجيهه إلى غيره؛ وما لم تحصل منه هذه الإرادة فلا يمكن ان يُعدّ متكلّما حقا، حتى لو صادف ما نطق به حضور من يتلقاه؛ لأنّ المتلقي لا يكون مستمعا حقا حتى يكون قد أُلقي إليه بما تلقى مقصودا بمضمونه هو، أو مقصودا به غيره بوصفه واسطة فيه.[٢]

فلا كلام مفيدا إلاّ بين اثنين، أو أكثر، لكل منهما مقامان هما مقام المتكلم، ومقام المستمع، ولكلّ مقام وظيفتان هما: وظيفة المعتقد، ووظيفة المنتقد، بحيث إذا كان المتكلم معتقِدا كان المستمع منتقِدا، وإذا كان المستمع معتقِدا كان المتكلم منتقدا[٣]

٢-طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب:

تتصف العلاقة بين أطراف الخطاب بأنّها سابقة لعملية انتاج الخطاب ذاته؛ لذلك فهي من عناصر السياق المؤثرة، مما يحفز عمل بعض القوالب ولاسيما القالب الاجتماعي، فينعكس ذلك على تشكيل الخطاب باختيار الاستراتيجية المناسبة التي تعبّر عن قصد المرسل، وتعكس اهتمامه بهذا العنصر، ذلك أنّ نوع العلاقة من العناصر المؤثرة[٤] ويضم هذا العنصر – العلاقة بين طرفي الخطاب – عناصر عدة، مثل درجة التعارف، وتوزيع الادوار، أو الادوار المتوقعة، والمهنة، والمكانة من

(١) ينظر: آليات الإقناع في الخطاب القرآني (ماجستير): ٦٨.

(٢) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:٢١٤.

(٣) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام:٩٩.

(٤) ينظر: استراتيجيات الخطاب:٨٨.

اهم المحددات الاجتماعية للمشتركين في عملية انتاج الخطاب، تُعيّن هذه المحددات حقوقهم، وواجباتهم، وامتيازاتهم، ويرى عالم الاجتماع الألماني (ديتمار لوش lohsh Ditmar) أنّ محددات اجتماعية مثل الاحترام، أو الألفة، أو الكراهية – والتي تندرج بضمنها العلاقات العاطفية، فتكون مثلا علاقة ودّ، أو علاقة صدّ، أو قرب ، أو بعد، والتي يكون الخطاب علامة، ومؤثرا، ومشخصا لها – تعدّ عوامل حاسمة في تحديد الاستراتيجية الخطابية[١] فاختيار هذه الصورة دون غيرها، يتعلق بالسياق عموما ، أي يتعلق بالمتخاطبين، وبعلاقتهما داخل السياق، ويتعلق بما هو خارج السياق، أي يتعلق بما يعرفه هذا المتخاطب عن الآخر، وما يعرفه المتخاطبان عن المقام، وعما يريدان قوله، أو سماعه، وهما يعرفان معرفة تامة المدى الذي يمكن أن يبلغاه في الخطاب، فأحد المتخاطبين يمكن أن يكون خطيبا، أو معلّما، والآخر يمكن أن يكون جمهورا، أو مستمعا، فالعلاقات تظل هي نفسها، والصور يجب أن تكون مضبوطة حتى تناسب المقام بالشكل الأقرب [٢] ومن طريف ما ذكر (سالزمان Salzmann) أنّ الذوق اللغوي عند الجاويين يجعل الجملة الواحدة تُسمع في ستة مستويات كلامية مختلفة وفقا للعلاقة الاجتماعية بين المتكلمين، ووفقا لعوامل أخرى ترتبط بمن يأخذ جانبا من الحوار[٣] ومن أمثلة عدم مراعاة جوانب هذه العلاقة، ما يرويه أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفه النحويّ، قال لمّا أنشد جرير عبدَ الملك:

أتصحو بل فؤادك غير صاح[٤]

قال: عبد الملك

بل فؤادك يا ابن اللخناء[٥].

---

(١) ينظر: النص والخطاب والاتصال:٨١.

(٢) التحليل السيميوطيقي للنص الشعري:٣١-٣٢.

(٣) يُنظر: النص والخطاب والاتصال: ٨١. اللغة الجاوية نسبة لجزيرة جاوة الإندونيسية، تستعمل ابجدية مشتقة من العربية، يُنظر: لغة جاوة (مقال): https://ar.wikipedia.org

(٤) جرير :الديوان: ٧٦.

(٥) يُنظر: الموشح:٢٨٠.

ويكمن البعد الاجتماعي بأن يتوجه المحاور إلى غيره مطْلعا إيّاه على ما يعتقد، وما يعرف، ومطالبا إيّاه بمشاركته اعتقاداته، ومعارفه وبعد هذا (الاطْلاع)، وهذه المطالبة هناك ما يزيد هذا البعد الاجتماعي رسوخا هو محاولة تجاوز الخلافات في الرأي بين المتحاورين تجاوزا لا يأتي بالحل الوحيد، والأوحد بقدر ما يأتي بحلول متوازنة، ومعتدلة تستجيب لأوضاع تتغير عناصرها، وتستجد مطالبها على مرّ الزمن(١). وتستقر العلاقة المسبقة بين طرفي الحوار على محورين: الأوّل: محور العلاقة الأفقية التي تتبلور في أكثر من خصيصة؛ من ذلك خصائص الدين، والجنس، والمهنة، والحالة الاجتماعية، وتندرج العلاقات العاطفية بضمن هذا المحور، والثاني: محور العلاقة العمودية، وهي تلك التي تتبلور في مراتب تصاعدية للناس داخل بنى المجتمع مما يجعلهم ينتمون إلى سلّم تراتبيّ إذ يقع كلّ طرف من طرفي الخطاب في إحدى درجاته سواء أكان سلّما اجتماعيا، أم سلّما وظيفيا.(٢)، ومن القوانين اللغوية الاجتماعية، التي يمكن أن تندرج في هذا المحور، والتي صارت نمطية في مناهج الأنثروبولوجيا، ما يسمى بقوانين التناوب (Alteafinaton) التي تضم مشخّصات العلاقة بين المتكلم، والمخاطب، كعلاقات الدور، والعمر، والقرابة(٣).

والأجدر بالإشارة أنّ العلاقة بين طرفي الخطاب إنْ لم تكن موجودة سلفا فإنّ المتكلم يسعى إلى إيجادها في خطابه، فتنشأ بذلك علاقة تواصلية بين طرفي الخطاب قائمة على خاصية التعاونية مما يسهم في نجاح العملية التبليغية، وإقامة علاقة كهذه قد تكون هي الهدف الرئيس من الخطاب؛ ولذلك أعطي الخطاب كثيرا من الاهتمام، وبهذا تتحقق معرفة مشتركة بين قطبي الإرسال تساعد المرسل على إقامة افتراضات قبليّة، ومحاولة تحقيق علاقة كهذه تكون وفقا لما يتطلبه السياق الذي يؤطر عملية انتاج الخطاب، وهذا يسهم في إبراز دور اللغة التفاعلي على

(١) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام:٣٧.

(٢) ينظر: مدخل إلى العلامات في اللغة والمسرح:٨٥-٨٦.

(٣) ينظر: النص والخطاب والاجراء:٨٣.

أساس أنّ القيم الدلالية للخطاب هي مدخل ممكن، وهام لتحديد شبكة العلاقات الاجتماعية[١]؛ ((لأنّ التعامل مع اللغة هو تعامل مع مضامينها))[٢].

٣-قواعد المحادثة:

لمّا كان التخاطب يقتضي اشتراك جانبين عاقلين في القاء الأقوال، وإتيان الأفعال لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد – تحدد وجوه فائدتها الاخبارية، أو قل (فائدتها التواصلية) – نسمّيها (قواعد التبليغ، أو قواعد المحادثة) علما أنّ مصطلح التبليغ موضوع للدلالة على التواصل الخاص بالإنسان، كما لزم أن تنضبط هذه الأفعال بقواعد – تحدد وجوه استقامتها الأخلاقية، أو قل (التعاملية) – نسمّيها بـ(قواعد التهذيب)، مع العلم أنّ مصطلح التهذيب موضوع للدلالة على التعامل الأخلاقي[٣].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أنّ الابحاث التي أجراها كلٌّ من (اوستن)، والفيلسوف الامريكي (جون رودجر سيرل John Rogers searle)، إذا كانت قد انصبّت في معظمها على الجانب المتعلّق بأفعال الكلام المباشرة، وغير المباشرة، فإنّ (غرايس) مع اهتمامه بأفعال الكلام غير المباشرة كما وردت عند (سيرل)؛ وجّه جلّ اهتمامه صوب أصول الحوار.[٤]

ينطلق الفيلسوف البريطاني (بول غرايس paul grice) من تصور خاص للتواصل الشفهي، إذ يرى أنّ المتخاطبين لا يلِجون عالم التخاطب إلاّ وهم محاطون، ومسلّمون بجملة مبادئ تحكم سلوكهم التخاطبي، وهي ما يمكن أنْ نصطلح عليه (مبادئ التخاطب) التي –وعلى الرغم من كونها مفروضة على المتخاطبين، كما هي قواعد صحة التكوين الصرفية، والتركيبية، والدلالية– ينبغي مراعاتها من طرف كل

---

(١) يُنظر: اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري:١٨، وتحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية:٣٧.

(٢) المستصفى من علم الأصول:١٥٧/٢.

(٣) ينظر: اللسان والميزان:٢٣٦.

(٤) ينظر: الحوار ومنهجية التفكير النقدي:١٢٦.

منْ أراد الدخول في عملية التبادل الكلامي[١]، وقد أُطلقت على هذه المبادئ تسميات اختلفت باختلاف الحالات والاعتبارات، ووجهات النظر، فهي (مبادئ تخاطبيه – principles conversational) عند (بول غرايس)، (وقوانين الخطاب – Lois de discourse) عند اللساني الفرنسي (أزفالد ديكرو osvald Decro)، و(مسلّمات التخاطب – postulates de conversation) عند الإنكليزي (غودرن رودك Gordon Rodik)، والأمريكية (روبين لاكوف Robin Lakoff)، و(مسلّمات التواصل الطبيعي – postulates de convrunicatian natural)، (وقوانين تداولية بلاغية – Lois pragmatiques rhetoriques) عند اللسانية الفرنسية (كيربرات أورِكيوني karbrat orechioni).[٢]

ويرى اللسانيان البريطانيان (دريدر ويلسون – Deirdre Wilson)، و(روبن سبيربر – Robyn sperber) أنّ النجاح الذي حققه تحليل (غرايس) يعود أساسا إلى (مبدأ التعاون)، فقبل ظهور أعمال (غرايس) كان تأويل الملفوظ يقوم على مجموعة مبادئ:

١–معنى الجملة المتلفظ بها.

٢–السياق.

٣–المظهر الحرفي للمنطوق.

٤–المظهر المرجعي للمنطوق.

٥–إسلوبية النطق.

فالتأويل بحسب (تودوروف) عملية إزاحة، واحلال، وليست عملية اشتقاق، واستقراء.[٣] وهي بطبيعة الحال عوامل متغيرة؛ لذلك اضاف (غرايس) عاملا آخر ثابتا هو (مبدأ التعاون) الذي يضم مجموعة من التعاليم الحوارية، يحترمها كل مسهم في عملية التواصل، ويؤكّد (غرايس) أنّ الحوار لا تقوم له قائمة إلاّ إذا احترم

---

(١) ينظر: التواصل بين القصد والاستقصاد، مقاربة تداولية لفعاليتي التدليل والتأويل (أطروحة):٤٠.

(٢) ينظر: التواصل بين القصد والاستقصاد: ٤٢.

(٣) يُنظر: الملفوظ والدلالة والمدمج الخيالي قراءة سيمائية (مقال) www.alhewar.org

المتخاطبان مبدأ أوليا، وأساسيًا[١] قائلا: ((ليكن اسهامك في الحوار مطابقا لما يفرضه عليك هدف، واتجاه التبادل الكلامي الذي التزمت به))[٢] ويؤكّد ألاّ تخاطب ما لم يخضع أحد المتخاطبين، ويفترض أنّ غيره خاضع لمبدأ التعاون، إذ لا يمكن لمبادئنا التواصلية أن تنحبس في مجرّد متواليات شكلية مفككة، فهذا المبدأ هو البرهان الأكثر إقناعا على إنّ المتحاورين يأملون توجيه تبادلاتهم نحو هدف مشترك، وعلى أنّهم يتعاونون لتحقيق هذا الهدف. فكلّ منخرط، أو مشارك في العملية التخاطبية يؤمن، أو يعتقد في مساهمته بهدف، أو مجموعة أهداف مشتركة، أو يؤمن على الأقلّ بتوجيه مقبول لدى الكل المشارك، إنّ هذا الهدف، أو هذا التوجيه يمكن أن يُحدَّد منذ البداية، أو يمكن أن يظهر على مجرى التخاطب، وقد يكون دقيق التحديد، أو يبقى عامّا ليترك الحرية للمشاركين[٣].

ووفقا لهذا المعْطى فإنّ الممارسة اللغوية عند (غرايس)، تقوم – على أساس أنّها نشاط انساني – على مبدأ التعاون بين الأطراف لتحقيق العملية التخاطبية التامّة.

أ- مبدأ التعاون:

لقد عُرِف المبدأ التداولي الأول للتحاور باسم (مبدأ التعاون – cooperative principle)، وورد نص هذا المبدأ في اللسانيات الحديثة عند الفيلسوف ألأمريكي (بول غرايس) إذ ذكره لأول مرّة في دروسه المرقونة (محاضرات في التحاور)، ومفاد هذا المبدأ أنّ على اطراف الحوار أن تتعاون فيما بينها لتحصيل المطلوب. بمعنى أنّه يُوجِب أن يتعاون المتكلم، والمخاطَب على تحقيق الهدف من الحوار الذي دخلا فيه، وقد يكون هذا الهدف محددا قبل دخولهما في الكلام، أو يحصل تحديده في أثناء الكلام.[٤]

---

(١) يُنظر: مدخل إلى دراسة التداولية مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل: ٦٥.

(٢) ينظر: م ، ن :٦٦.

(٣) ينظر: مدخل إلى دراسة التداولية مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل:٦٧ .

(٤) ينظر: مفهوم التخاطب بين مقتضى التبليغ ومقتضى التهذيب (بحث):٤٣-٤٤.

وانطلاقا من هذا المبدأ حدّد الفرضية الأساسية التي مفادها أنّ التفاعلات الحوارية تبلغ مقاصدها بمقتضى التعاون القائم بين أطراف الحوار، وهو ما يتطلب أنْ يكشف المتحاورون عن مقاصدهم، أو على الأقل التوجه العام لهذه المقاصد.(١)

وصيغة هذا المبدأ:

على وفق تعبير الفيلسوفة الفرنسية (فرانسواز أرمينكو Franswas Armengau): ((قم بمساهمتك في التواصل، بالطريق التي يتخذها الهدف التواصلي، المخوض في الفترة اللازمة))(٢)، وتضيف (أرمينكو) قولها ((ويعطي القرار الذي اتخذه (غرايس) – في اعتباره للنشاط الخطابي كنشاط عقلي – مصداقية لتقعيد مبدئه الشهير، فيما يخص التعاون، والحكم اللاحقة))(٣).

وقد تُرجِم هذا المبدأ ترجماتٍ متعددة منها: ((اجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه – في مرحلة حصولها – الغرض، أو المآل المُسلَّم به من التخاطب المعقود)).(٤)

و((اجعل اسهامك التخاطبي كما يتطلبه – عند المرحلة التي يحدث فيها – الغرض، أو الاتجاه المقبول لتبادل الكلام الذي تشارك فيه))(٥).

وتُرجم بصيغة ((اجعل اسهامك بقدر ما هو مطلوب في المرحلة التي يحدث فيها من خلال الغاية المقبولة للمناقشة التي تُجريها))(٦).

ويشتمل هذا المبدأ على قواعد سلوكية، أو قرارات، أو كما سماها بعض الباحثين بالحِكم(٧) في أربعة مجالات رئيسة هي:

---

(١) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني:٩٨.

(٢) المقاربة التداولية: ٥٣، والاقتضاء في التداول اللساني (بحث):١٤٦، والنظرية القصدية في المعنى عند (بول غرايس) (بحث):٨٧.

(٣) المقاربة التداولية:٥٤.

(٤) الاقتضاء في التداول اللساني:١٤٦.

(٥) النظرية القصدية في المعنى:٨٧.

(٦) مدخل إلى دراسة التداولية مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل:٢٢.

(٧) ينظر: المقاربة التداولية:٥٤.

١-حكمة الصلة، أو المناسبة، (Maxim of relation)، وصيغتها:

ليكن كلامك مناسبا، أو ذا صلة بموضوع الحديث [١]

٢-حكمة النوعية، (Maxim of quality)، ومفادها:

أ- لا تقل ما تعتقد أنّه غير صادق.

ب-لا تقل ما ليس عندك دليل كاف على صدقه.[٢]

٣-حكمة الكمية، (Maxim of Quantity)، ومفادها:

أ- لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته.

ب-لا تجعل إفادتك تتجاوز الحد المطلوب.[٣]

٤-حكمة الاسلوب، (Maxim of manner)، وتعني:

الوضوح، والتحديد والابتعاد عن الغموض، واللبس، والقيام بالإيجاز، وترتيب الكلام [٤].

والجدير بالذكر أنّ (غرايس) - في تقسيمه لهذه القواعد - كان قد اقتبس فيها التوزيع، والتسمية من جدول الأحكام عند الفيلسوف الالماني (عما نؤيل كانت Kant immanuel)، الذي تحدّث عن (الكم، والكيف، والجهة، والصيغة)، وبناء على هذا يَفترض المتخاطبون عادة أنّ القولة التي يسمعونها ذات صلة، وصادقة، وثرّة بالمعلومات، والمستمعون يتوصلون إلى استدلالاتهم على أساس هذا الافتراض.[٥]

ولابدّ من الاشارة هنا إلى أنّ (غرايس) أكّد أنّ هذه القواعد تبقى مفتوحة؛ لإضافة قواعد أخر ذات طبيعة جمالية، واجتماعية، ونفسية، وأخلاقية، ما فتح الباب أمام مجموعة من الباحثين لبلورة قواعد أخر في المنحى نفسه.

ب- مبدأ التأدّب:

---

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٤.

(٢) ينظر: نظرية التلويح الحواري:٢٨-٢٩، وينظر: الاقتضاء في التداول اللساني:١٤٦.

(٣) ينظر: نظرية التلويح الحواري:٢٩.

(٤) ينظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل:٥٥.

(٥) ينظر: نظرية التلويح الحواري:٢٩.

لقد أشار (غرايس) إلى إمكانية إضافة قواعد اخر ذات طبيعة جمالية، واجتماعية، وأخلاقية إلى ما رصده من القواعد المتفرعة عن مبدأ التعاون ربّما دلّت على إحساس، ووعي عميقين بعدم كفاية هذه القواعد، وبضرورة تطعيمها بقواعد جمالية، وأخلاقية، واجتماعية لا تخلو منها جلّ العمليات التخاطبية.[١] ومن هذه المبادئ مبدأ التأدب الذي يعدُّ المبدأ الثاني الذي ينبني عليه التخاطب، الذي أوردته (روبين لاكوف) في مقالتها الشهيرة (منطق التأدّب) وهو عبارة عن مجموعة من القواعد التي يراعيها المتخاطبون ويعتبرونها في كلامهم تلك الخاصة بعلاقة كل طرف بالطرف الآخر، وهي علاقة يُعتقد أنّها ينبغي أن تكون مبنية على الاحترام، والتقدير لـ(أنا) بصفته متكلما، ولـ(أنت) بصفته مخاطَبا ولـ(آخر) بصفته غائبا.

وقد صدّرت (روبين لاكوف) صياغة لهذا المبدأ هي:

((لتكنْ مؤدبا))

يقضي هذا المبدأ بان يلتزم المتكلم، والمخاطب في تعاونهم لتحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام بضوابط التهذيب بقدر لا يقل عما يلتزمانه من ضوابط التبليغ.[٢]

وقد فرّعت (روبين لاكوف) ثلاث قواعد عن مبدأ التأدّب سمّتها (قواعد تهذيب الخطاب)، إذ يتلفظ المرسل بخطابه وفقا لواحد منها، أو أكثر، وهي:

١-قاعدة التعفّف:

وصيغتها:

((لتتجنّب فرض نفسك على المخاطَب))

ومقتضاها: أنّه ينبغي استعمال العبارات في تحفظ، وعدم إحراج، أو اكراه للمخاطَب، مثل أنْ يقول المتكلم:

- يمكنك أنْ ... (بدلا من) - يجب عليك أنْ ...

- من الافضل الاّ تفعل ... (بدلا من) - لا تفعل ...[٣]

---

(١) ينظر: استراتيجيات وكفايات التواصل (بحث):١٤.

(٢) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني:١١٨.

(٣) ينظر: استراتيجيات وكفايات التواصل: ١٥.

٢-قاعدة التخيير أو الشك:

وصيغتها:

((لتتظاهر بالشك))

أمّا قاعدة التخيير فتعمل، أحيانا باتّساق مع قاعدة التعفّف، وقد تحلّ محلّها، في حال لم تناسب السياق فتعمل بمعزل عنها، وتوجب هذه القاعدة التلفظ بأساليب دالّة على تخيير المتلقي في اتخاذ ردّة الفعل المناسبة، أو التلفظ بأساليب الشك عند المتكلّم، بدلا من استعمال أساليب الجزم، والإكراه، فيدع للمتلقي مجال اختيار القرار[١].

٣-قاعدة التودّد:

وصيغتها:

((لِتُوادِدْ المخاطَب))

وتقضي هذه القاعدة عدّ المستمع مِثلًا، وندّا في الخطاب، وذلك باستعمال الأدوات، والعبارات، والأساليب الدالّة على عمق الصلة بين المتكلّم، والمخاطَب كذكر اسمه في الحديث إليه، أو نسبته إليك بادّعاء أخويته، وصداقته، وما إلى ذلك، أو ذكر صفته إنْ كان متميّزا اجتماعيا، والابتعاد عن نقيض ذلك.[٢]

وتذهب (لاكوف) إلى أنّ هناك علاقة متبادلة بين مبدأي التعاون، والتأدّب وهي علاقة اختلاف، واتفاق، أمّا الاتفاق فيتجلّى بـ((قاعدة التعفّف))؛ ذلك إنّ إنتاج الخطاب بصورة رسمية يجب أن يكون واضحا ، وهذا يؤدي بدوره إلى وضع مبدأ التعاون بقواعده تحتها؛ كون المتكلّم يعتمد أقصر الطرق في تبليغ المعلومات إلى المتلقي، إذ يتجنّب إهدار وقته، مما يبعد الباث عن تهمة الفضول عليه، أو احراجه، أمّا الاختلاف، فيتضح في أنّ إنتاج الخطاب وفق قاعدتي التخيير، والتّودّد يُفضي إلى خرق لقواعد مبدأ التعاون[٣].

ج- مبدأ الوجه:

---

(١) يُنظر: نظرية التأدب في اللسانيات التداولية:١٢١.

(٢) ينظر: استراتيجيات وكفايات التواصل: ١٧.

(٣) ينظر: الاستلزام التخاطبي بين العربية والتداوليات الحديثة(بحث): ٢٢٩.

من المبادئ التي وضعت لينضبط بها التخاطب ما جاء به (بنلوب براون – Penelope Brown)، و(ستيفن ليفنسون – stphen Levinson) عام ١٩٨٧م ما أسمياه بمبدأ الوجه أو التواجه، وصيغته:

((لِتَصُنْ وجه غيرك))[١]

أي لابدّ للمرسل أن يصون وجه المخاطَب؛ ففي صيانة وجه غيره صيانة لوجهه، وهو علامة على الاحترام المتبادل، والتعاون بينهما.

وينبني هذا المبدأ على مفهومين:

- **مفهوم الوجه.**
- **مفهوم التهديد.**

أمّا الوجه فهو الذات التي يدّعيها المرء لنفسه، والتي يريد أن تتحدد بها قيمته الاجتماعية، وهو ضربان (وجه دافع)، وهو رغبة الانسان في ألاّ يعترض على أفعاله الآخرون، و(وجه جالب)، وهو رغبة كل واحد في أن تكون إرادته محترمة على الأقل من البعض الآخر[٢].

فتكون المخاطبة هي المجال الكلامي الذي يسعى فيه كل من المتكلّم، والمخاطَب إلى حفظ (ماء) وجهه بحفظ ماء وجه مخاطبه، وأمّا التهديد فيتضح في الاقوال التي تقف عائقا – بحسب طبيعتها – أمام إرادات المستمع، أو المتكلّم في دفع الاعتراض، وجلب الاعتراف.[٣]

د- مبدأ التأدّب الأقصى:

هو المبدأ الذي أقرّه البروفيسور الألماني (جيفري ليتش-Geoffrey Leech) والذي عدّه مكملا لـ(مبدأ التعاون)، ويورده في صورتين إحداهما إيجابية، والأخرى سلبية[٤] وهما:

((اكثر من الكلام المؤدَّب))

---

(١) ينظر: استراتيجيات وكفايات التواصل: ١٥.

(٢) ينظر: تداولية الخطاب السردي: ١٢٤.

(٣) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١٢٠.

(٤) ينظر: استراتيجيات وكفايات التواصل: ١٩.

((قلّل من الكلام غير المؤدَّب))

وجد (ليتش) أنّ هاتين الصورتين، الإيجابية، والسلبية تجنبنا الوقوع في النزاع، أو ما يمنع التعاون[١]

فهو يرى أنّ (مبدأ التأدّب الأقصى) يحاول تجاوز العثرات المسجّلة على (مبدأ التعاون)، بتوظيفه لبعض الآليّات، والأدوات في الخطاب، فالتأدّب لايقف عند حدود تنظيم العلاقات فحسب، بل يسعى إلى تأسيس الصداقات فيكون بذلك أساسا للتعاون.[٢]

هـ- مبدأ التصديق:

بعد تدقيق، المبادئ التخاطبية، ومراجعتها كشف الدكتور (طه عبد الرحمن) عن بعض الثغرات فيها، دعاه إلى السعي لصياغة مبدأ يسدّ بعض القصور الذي بدا واضحا على المبادئ السابقة، فأضاف مبدأ خامسا أسماه (مبدأ التصديق) دعا فيه إلى وجوب ربط القول بالفعل، والنظر بالعمل.[٣]

وظيفة هذا المبدأ الاخلاقي، هو تأديب المجتمع، وتعليمه آداب المخاطبة، وذلك عن طريق إخراجه من مرتبة المجاملة، والمداراة إلى مرتبة التخلّق الخالص، الذي يهدف إلى الكمال في السلوك، وفضلًا على المبادئ التداولية الأخلاقية الأخرى فإنّ الهدف من هذه المبادئ التواصلية الأخلاقية الحث على التعاون، والتأدّب، والتهذيب، والعمل. وقد اتخذ هذا المبدأ الراسخ في التراث الاسلامي صورا مختلفة منها: (مطابقة القول للفعل)، و(تصديق العمل للكلام).[٤]

والصيغة العامّة لهذا المبدأ هي:

((لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك))

وينبني هذا المبدأ على عنصرين:

الأوّل: (نقل القول)

---

(١) ينظر: الحوار ومنهجية التفكير النقدي: ١٢٣.

(٢) ينظر: الحوار ومنهجية التفكير النقدي: ١١٠.

(٣) ينظر: م،ن :١٣٢.

(٤) يُنظر: الدين في الفكر الفلسفي الأخلاقي عند طه عبد الرحمن (بحث):٧١-٧٢.

الثاني: (تطبيق القول)

فالأول يتعلّق بالجانب التبليغي، أمّا الثاني فيتعلّق بالجانب التهذيبي.[١]

وقد تفرّعت عن هذا المبدأ وبناء على ذات العنصرين قواعد مضبوطة منها ما يتعلق بالجانب التبليغي، وذكرها (الماوردي) مفصلة، وتحت عنوان (شروط الكلام)، إذ يقول: ((اعلم أنّ الكلام ترجمان يعبّر عن مستودعات الضمائر، ويُخبر بمكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يُقْدَرُ على ردّ شوارده؛ فَحُقّ على العاقل أن يحترز من زلله، بالإمساك عنه، أو بالإقلال منه ...، واعلم أنّ للكلام شروطا، لا يسلم المتكلّم من الزلل إلاّ بها، ويعرى من النقص إلاّ بعد أنْ يستوفيها))[٢].

والشروط هي:

١-ينبغي أن يكون الكلام لداع يدعو له، إمّا في اجتلاب نفع، أو دفع ضرّ.

٢-ينبغي أن يأتي المتكلّم به في موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته.

٣-ينبغي أن يقتصر في الكلام على قدر الحاجة.

٤-ينبغي أن يتخير اللفظ الذي يتكلّم به[٣].

أمّا القواعد المتعلقة بالجانب التهذيبي فهي:

١-قاعدة القصد:

ومفادها:

((لتتفقّد في كلّ قول تُلقي به إلى الغير))

وسيترتب على هذه القاعدة أمران اساسيان أحدهما: وصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي للمخاطبة، والآخر إمكان الخروج عن الدلالة الظاهرة للقول.[٤]

٢-قاعدة الصدق:

وصياغتها:

((لتكن صادقا فيما تنقله لغيرك))

---

(١) ينظر: استراتيجيات وكفايات التواصل: ١٩.

(٢) أدب الدنيا والدين:٢٣٧.

(٣) ينظر: م،ن: والصفحة نفسها.

(٤) ينظر: اللسان والميزان:٢٥٠.

٣-قاعدة الاخلاص:

ومفادها:

((لتكن في تودّدك للغير متجرّدا عن أغراضك))

وبدا أنّ هذا المبدأ (التصديق) جاء به الدكتور (طه عبد الرحمن) تماشيا مع دعوى أطلقها في إطار ما أسماه بـ((مجال التداول الاسلامي العربي)) يقول: ((لا سبيل إلى تقويم الممارسة التراثية مالم يحصل الاستناد إلى مجال تداولي متميز عن غيره من المجالات بأوصاف خاصة، ومنضبط بقواعد محددة يؤدّي الاخلال بهما إلى آفات تضرّ بهذه الممارسة))[١].

وتُبنى هذه الدعوى على أركان ثلاثة:

١-تميّز المجال التداولي عن غيره من المجالات.

٢-أصناف القواعد التي ينضبط بها هذا المجال في الممارسة التراثية.

٣-أنواع الآفات المترتبة عن الاخلال بقواعد هذا المجال.

ولأنّ مبدأ التعاون - بحسب رأي الدكتور طه عبد الرحمن - لا يضبط إلاّ الجانب التبليغي من الخطاب دعاه إلى وضع مبدأ مكمّل يُعنى بالجانب التهذيبي.[٢]

(١) تجديد المنهج في تقويم التراث:٢٤٣.

(٢) مداخلات لسانية مناهج ونماذج:٧٣.

المبحث الثاني: (الاستراتيجية التضامنية)

أولا: تعريفها:

يرى الأمريكي (هدسون Hidson) أنّ الكلام غالباً ما يعكس طبيعة العلاقات الاجتماعية بين المتحدث، والمتلقي، ولاسيما علاقات القوة، والتضامن، التي تتجلّى في هذه الاستراتيجية، في حين يختص التضامن بحسب (هدسون) بالمسافة الاجتماعية بين الناس، وبتجاربهم الاجتماعية، وخصائصهم الاجتماعية المشتركة مثل (الدين، والسن، والجنس، ومسقط الرأس، والعِرق، والمهنة، وكافة الاهتمامات...)، ومدى قدرتهم، واستعدادهم للمشاركة فيما بينهم في مسائلهم الخاصة.(١)

وتعود نظرية (التضامن) Implicatur إلى كلّ من عالم النفس الأمريكي (روجر براون – R Brown)، والأمريكية (مارجرين فورد M ford) في تناولهما مصطلحات التخاطب في نطاق العمل، وفي بعض المواقف الاجتماعية الأخرى للأفراد، وقد وصلا في خلال ذلك إلى اختلاف، وتباين كبيرين في مستويات اللغة المستعملة على حسب الموقف الاجتماعي، ومقامات المتخاطبين، ونوعية الصيغ المتداولة في هذا النوع من التواصل، طبقا للمركز الاجتماعي لكلّ من المتحدث، والمخاطَب.(٢)

ولأنّ طبيعة المفاهيم نسبية؛ فقد تباين الناس في تعريفها، وتحديد شروطها، ونتائجها بدقّة صارمة؛ ولأنّ مفهوم (التضامن) من الأصناف النظرية؛ فقد نال نصيبه من التباين، وعلى الرغم من هذا يُمكن وضع تعريف تقريبي لـ(الاستراتيجية التضامنية) بأنّها الاستراتيجية التي يحاول بها المتكلم أن يوضّح درجة العلاقة بينه وبين المتلقي، ونوع هذه العلاقة، ومدى احترامه لها، وقدرته، ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها، ومحاولة التقرّب من المرسل إليه، وتقريبه.(٣)

---

(١) يُنظر: علم اللغة الاجتماعي، هدسن:١٩٢.

(٢) يُنظر: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص:٨٥.

(٣) يُنظر : استراتيجيات الخطاب:٢٥٧.

ثانيًا: مسوّغاتها:

لأنّ التضامن يختص بالمسافة الاجتماعية بين الناس، وبتجاربهم كما أسلفنا؛ تتبلور مجموعة من المسوّغات الاجتماعية تسهم منفردة، او مجتمعة في اختيار الاستراتيجية التضامنية.(١)

ومن هذه المسوّغات:

١-محور العلاقة الأفقية، والعمودية.

٢-مدى امتداد المعرفة الشخصية.

٣-مدى تكرار الاتّصال.

٤-درجة التآلف، أو كيفية معرفة طرفي الخطاب لكلّ منهم.

٥-مدى تطابق الهدف، او التفكير.

٦-أثر العلاقة بين طرفي الخطاب.(٢)

وتستند العملية الحوارية إلى نموذجين: أحدهما تبليغي، تُعدّ اسبقية العلاقة التخاطبية بين المتكلّم، والمخاطَب أصلَ الأصول في هذا النموذج فلا أحد يتكلّم إلاّ ويُشرك معه المخاطَب في إنشاء كلامه، كما لو كان يسمع كلامه بإذن غيره، وكأنّ الغير ينطق بلسانه.(٣)

والآخر تفاعلي، يشترط على المتحاور التجرّد من نفسه إلى الغير قائما بكلّ وظائفه حتى يبلغ درجة التفاعل، ولكي يصل المتكلّم إلى هذه المرحلة (التفاعل) لابدّ أن يكون قادرا على أن يجد نفسه في ما يغايرها، وحتى يحصل التفاعل الحقّ وجب إقامة (الذّات، والغير) طرفين متساويين في تجربة المتحاور الخطابية.(٤)

يسعى الخطاب إلى تحقيق هدفين: الأول تبليغي، والثاني تهذيبي، وصحيح أنّ الاستراتيجية التضامنية تُعنى بالجانب التهذيبي، ولكن هذا لا يعني أنّها تغفل

---

(١) يُنظر: علم اللّغة الاجتماعي، هدسون:١٩٢.

(٢) يُنظر: اللّسان والميزان:٢٥٩.

(٣) يُنظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام:٥٠.

(٤) يُنظر: م،ن:٥١.

الجانب التبليغي القصدي، والتعبير عنه[١]، وتسعى الاستراتيجية التضامنية إلى تحقيق بعض الفوائد منها:

١-تأسيس العلاقة بين المتخاطبين وأن كانت غير موجودة قبل الخطاب.

٢-محاولة التعامل مع صاحب السلطة في الخطاب بطريقة تحقّق الأهداف وتؤسّس لعلاقات طيبة معه.

٣-تحسين صورة المتكلّم في نظر المخاطَبين، ولا سيّما إذا كان يتمتّع بسلطة عليا ويتعامل مع المتلقّين بجفاء، واستعلاء.

٤-لأن التأدّب، والتخلّق أساسيان في هذه الاستراتيجية أمكن استعمالها في مجالات التعليم ومحاولة التقرّب من الطلبة والدارسين، وترغيبهم، وتيسير الفهم عليهم[٢].

ثالثًا: الاستراتيجية التضامنية عند أبي حيّان التوحيديّ:

- **وسائل الاستراتيجية التضامنية:**

يتحقّق الخطاب عموما باستعمال مجموعة من الوسائل اللغوية فضلًا على امكانات اللغة الطبيعية التي لابدّ أن يتوافر عليها المتكلّم كي يتمكن من اختيار الاستراتيجية المناسبة، ومن ثمّ توجيه خطابه وجهة ما في سبيل تحقيق هدف الخطاب.[٣] وهذا ما دعا (هدسون) للقول: ((وينبغي علينا أن نتوقّع أنّ كلّ اللغات لها وسائلها (للدلالة) على الاختلافات الاجتماعية التي تدلّ على أي من التضامن، او القوّة، أو كليهما، وتفسير ذلك بقولنا إنّ التضامن، والقوة من أهم العوامل المؤثّرة في عملية الاتّصال الاجتماعي المباشر بين الافراد، ويُمكننا أيضا أن نقول إنّهما تُعبّران عن حاجة الفرد لتحديد رؤيته لطبيعة هذه العلاقات اللّغوية ... وهذا يُثبت لنا أنّ الصيغ التي تعبر عن درجة كبيرة من التضامن، هي التي تعبر أيضا عن قدرة أكبر من القوة من جانب المتحدّث، والعكس صحيح))[٤]

---

(١) يُنظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام:٢٦١.

(٢) يُنظر: نظرية التأدب في اللسانيات التداولية (بحث):١١٤.

(٣) يُنظر: الحجاج في اللغة(بحث):٦١.

(٤) علم اللّغة الاجتماعي، هدسون:١٩٦.

أولا: الأدوات اللّغوية:

أ- **العلم:** ينقسم العلم إلى: **اسم، وكنية، ولقب.**[١]

١-الاسم:

يستعمل المخاطِب أحيانا الاسم الأول للمتلقي قاصدا بذلك إزالة الفوارق بينهما، وللتدليل على قربه منه سواء أكان قربا ماديًا، أم معنويًا، ويُمكن لنا تلمّس ذلك في قول أبي حيّان: **((خذ يا ابراهيم ثمرة الفلسفة من هذه الكلمات الشافية التي هي خير لك من أهلك، ووِلدِك، ومالك، ورتبتك ...))**[٢] تجسّد التضامنُ هنا باستعمال أبي حيّان الاسم الأول لصاحبه بقوله (يا إبراهيم) وهو دليل على قربه منه، فقد أزال الفوارق بينهما، وبدت العلاقة الاجتماعية بينهما متكافئة، والأداء التخاطبي متواصلا، ومعتدلا، وغير مبالغ فيه.

وعلى هذا يكون التضامن عن طريق التفرقة الحاصلة في اللّغة ما بين الاستعمال المتماثل في مقابل الاستعمال غير المتماثل في الخطاب اللغوي؛ فيكون الاستعمال غير المتماثل مؤشرا على اعتبار حضور السلطة، أو الرتبة ما بين المتخاطبين، في حين يصبح الاستعمال متماثلا في غياب هذه السلطة، وتلك الرتبة، وتكون الاستراتيجية التضامنية في العلاقات اللغوية مؤشرا للتواصل المتكافئ ما بين أطراف عملية التخاطب[٣] فاستعمال ابي حيان الاسم الأول لمخاطبه دليل التضامن وغياب السلطة فأصبح الخطاب متكافئا بين طرفي الخطاب.

٢-الكنية:

هي كلّ مركّب إضافي صُدّر بـ(أب، أو ابن، أو أم) نحو (أبو الحسن، وأم كلثوم، ابن عطية)؛ إنّما يعدلون عن الاسم، واللقب إلى الكنية قصدا إلى تعظيم المكنّى، وإجلاله؛ لأنّ بعض النفوس تأنف ان تذكر باسمها، أو لقبها، وليس طريق التعظيم باللقب كطريق التعظيم بالكنية، لأنّ التعظيم باللّقب إنّما هو بمعنى اللّفظ، كما نقول: زين العابدين، وتاج الملّة، وسيف الدولة أمّا التعظيم بالكنية فإنّه بواسطتها

---

(١) يُنظر: التوطئة:١٨٨.

(٢) المقابسات:١٨٠.

(٣) يُنظر: الرمز والسلطة:٦٦.

يَعدم التصريح بالاسم[١] والكنية مأخوذة من الكناية وهي التعريض بالشيء من دون التصريح باسمه[٢].

وفي الدرس الحديث يُنظر إلى الكنية على أنّها محاولة من المرسل للتقرّب، والتضامن مع المرسل إليه، وقد يكون مردّ ذلك إلى اعتبار التضامن مع قدر قليل من الرسمية، إلاّ أنّ مقدار التضامن يزيد كثيرا على مقدار الرسمية، وعليه يكون استعمال الكنية مؤشرا حقيقيًا لاستراتيجية التضامن.[٣]

وممّا جاء عند أبي حيّان التوحيديّ من استعماله (الكنية) قوله:

((سألني أبو سليمان يوما عن الطبيعة وقال: كيف هي عند أهل النحو... فسالت ابا سعيد عن هذا فقال هذا من قبيل الاسماء المحضة، لا من قبيل الاسماء المشوبة))[٤].

وقوله: **((وأمّا ابن أبي كانون فإنّي قلت له يوما: مالي أراك واجما من غير عارض، وطويل السكوت من غير عيّ))**[٥].

بملاحظة النصّين السابقين نجد أنّ أبا حيّان لا يصرّح بذكر اسم المخاطب وإنّما يكنّي عنه، ممّا يُضفي دلالة التضامن، والتقرب من المخاطَبين، وإبراز العلاقة الحميميّة بينه وبينهما، مع محاولة تأسيس علاقة كهذه إن لم تكن موجودة.

٣-اللّقب:

اسمٌ يسمّى به الانسان غير اسمه الأول؛ للتعريف، او للتشريف، أو للتحقير، والأخير منهيٌ عنه[٦].

إنّ عملية التضامن في الخطاب تظهر عندما تتكافأ العلاقة الاجتماعية بين المتكلّم، والمخاطب فيكون الأداء التخاطبي بينهما بصورة تواصلية معتدلة غير مبالغ

---

(١) يُنظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ١/١٢٧-١٢٨.

(٢) يُنظر: علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع:٣٠١.

(٣) يُنظر: استراتيجيات الخطاب:٢٧٣.

(٤) المقابسات:١٧٥.

(٥) أخلاق الوزيرين:٢٠٩.

(٦) يُنظر: البهجة المرضية: ٤٧ .

فيها، لكنّنا نجد فضلًا على هذا أنّ بين هذين الصنفين تناسبًا عكسيًا، إذ يتضامن المتكلّم مع المخاطَب، أو يكون لديه الاستعداد المرغوب للتضامن معه، وذلك عندما تتدنّى درجة سلطته فيتكافا مع المخاطب.(١)

وقد بدا هذا واضحا في خطاب أبي حيّان للوزير أبي الفداء بقوله: **((أيّها الكريم أرحم، والله ما يكفيني ما يصل إليّ في كلّ شهر))**(٢).

وقوله: **((أيّها السيد أقصر تأمّلي، إرعَ ذمام الملح بيني، وبينك، وتذكّر العهد في صحبتي))**(٣).

فقد وجّه أبو حيّان خطابه في هذين النّصّين للوزير بتنغيم مناسب للسياق، وللمعنى، ولقصده المراد، وهو محاولة استعطاف الوزير، وتقريبه، والتقرّب منه، إذ مع الفارق السلطوي بين أبي حيّان ومخاطَبه إلاّ إنّنا نلحظ أنّه يحاول التضامن معه من أجل الوصول إلى هدفه، ومع استعمال أبي حيّان لمبدأ من مبادئ الخطاب (مبدأ التواجه) وهو مبدأ يضمن التواصل والتفاعل من دون إراقة ماء الوجه، فإنّه أضفى بعض الألقاب (الكريم، السيد) على المخاطَب لحفظ ماء وجه المخاطَب؛ لأنّ حفظ ماء وجهه هو حفظ ماء وجه المتكلّم، ولتقريبه من نفسه، وترك المبادرة موكولة إليه، من دون ممارسة الضغط عليه ولعلّ هذا ينسجم وقاعدة التخيير.

واستطاع أبو حيّان التوحيديّ بما يمتلكه من كفاية لغوية أن يختار اللّقب المناسب للسياق من ذلك قوله: **((أيّها الصاحب، ما أعلمني بمظانّ الرجاء، والخيبة! ولكنّي ربما اغتررت بالشك اغترارا، وانجررت على الشوك انجرارا))**(٤).

وقوله حينما سُئل **((كيف سمعت الليلة ذلك الكلام في الكون، والايجاب؟ فقال: يا حبيبي! إمّا أن يكون هذا الرجل مرحوما في أيديكم، أو تكونوا مرحومين**

---

(١) يُنظر: ملامح من النظرية الوظيفية (التواصلية) عند ابن جنّي في كتابه الخصائص (بحث):٩.

(٢) الامتاع، والمؤانسة:٥٣٠.

(٣) م،ن: ٥٣١.

(٤) أخلاق الوزيرين: ٢١٩.

في يده))[1] فتعبيره بـ(الصاحب) في النص الأول إنّما يدلّ على عمق العلاقة بينه وبين مخاطبه، التي أضفت التضامن على الخطاب وبدرجة كبيرة. وفي النص الثاني لم يستعمل تنغيما مستويا، وإنّما استعمل تنغيما مناسبا للسياق اراد به اظهار التعجب باختيار هذا اللّقب (حبيبي)، فالآلية ليس في اختيار اسلوب الخطاب، أي النداء فقط بل في اختيار اللّقب المناسب فضلًا على اظهاره التعجب، وهذا مؤشر واضح على قرب المتلقي من نفسه فهو يدرك – أبا حيّان – أهمية استعمال الألقاب في ابداع الاحساس بالتضامن مع المخاطَب في سياقات مختلفة.

وقد اجتمعت الكنية، مع اللّقب في خطاب أبي حيّان وذلك في قوله: **((وقلت لأبي الفرج الصوفي البغدادي: أنت شيخٌ صوفيّ، ولك ذكرٌ جميل لِمَ تتعاطى لهذا الرجل – أي ابن عبّاد – الكلام في الزهد و...))**[2].

وقد مكّنته كفايته اللغوية من السير على ما قرّره النحويون من تقديم الكنية على اللّقب مع جواز العكس، وعدم جوازه مع الاسم[3] وتقديم الكنية هنا يجسّد الاستراتيجية التضامنية بشكل أكثر من العكس.

ب- الإشاريات الشخصية:

تُعدّ الإشاريات من التعابير اللّغوية الإحالية التي تمتلك القدرة على ربط النص بالواقع الخارجي من خلال وحدات الشخوص، والزمان، والمكان.[4]

وكلُّ تعبير يُعدّ إشاريا إذا لم يكن مرجعه محددا، إلاّ إزاء الهوية، أو إزاء وضع المتخاطبين في اللحظة التي يتكلمون فيها.[5]

وفي كلّ اللغات كلمات، وتعبيرات تعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي ترد فيه و لا يُستطاع انتاجها، أو تفسيرها بمعزل عنه، وتعدّ الإشاريات من أكثر

---

(١) أخلاق الوزيرين: ١٧٧.

(٢) م،ن:٢٨٣.

(٣) يُنظر: شرح ابن عقيل: ١١٤/١.

(٤) يُنظر: الإحالة في شعر أودينيس:١٠١.

(٥) يُنظر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللّسان:٣٣٣.

الوحدات اللغوية التي تتطلب معلومات عن السياق ليتيسر فهمها، فإذا قرأت جملة مقتطعة من سياقها مثل:

(سوف يقومون بهذا العمل غدا؛ لأنّهم ليسوا هنا الآن)

وجدتها شديدة الغموض؛ لأنّها تحتوي عددا كبيرا من العناصر الإشارية التي يُعتمد في تفسيرها على السياق الذي قيلت فيه، ومعرفة المرجع الذي تُحيل إليه وهذه العناصر هي: (واو الجماعة، والضمير هم، واسم الإشارة هذا، وظرفا الزمان غدا، والآن، وظرف المكان هنا) ولا يتضح معنى الجملة إلاّ إذا عرفنا ما تشير إليه هذه العناصر[١] ولكي نفهم مدلول هذه الوحدات حين ورودها في مقطع خطابي معين استوجب ذلك معرفة هوية المتكلّم، والمتلقي، والإطارين الزماني، والمكاني للحدث اللغوي[٢].

وعليه يُمكن لنا تعريف الإشاريات وبحسب اللغوي الدنماركي (أوتو جسبرسن otto despersen) بأنّها ((صنف من الكلمات يتغيّر معناها بتغير المقام))[٣].

وقد نبّه (ليفنسون) إلى أنّ التعبيرات الإشارية تذكير دائم للباحثين النظريين في علم اللغة بأنّ أساس اللغات الطبيعية هو التواصل المباشر بين الناس وجها لوجه، وتبدو أهميتها القصوى حين يغيب ماتشير إليه، فيسود الغموض، ويستغلق الفهم؛ من هنا كانت النظريات الدلالية الشكلية عاجزة عن معالجة هذه الوحدات (الإشاريات)، وقد أدّى هذا بدوره إلى ظهور ما يسمى بـ(علم الدلالة المقامي – situational semantics) إذ بُذلت محاولات جادة لإدخال العناصر السياقية في التفسير الدلالي، فأصبحت الإشاريات مجالا مشتركا بين علم الدلالة، والتداولية، وإنْ كان بعض الباحثين لايزال يجدها أقرب للتداولية منها إلى الدلالة.[٤]

---

(١) يُنظر: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص:٣٥ ، ويُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:١٨.

(٢) يُنظر: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص:٣٦.

(٣) بنية اللّغة الشعرية:١٥.

(٤) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:١٦.

وتتجسّد الإشاريات في اللغة العربية في (الشخصية (الضمائر والنداء)، وظروف الزمان، والمكان).

ويُعدُّ الضمير المثال النمطي على هذا الصنف اللغوي الذي استند إليه (بنفنيست) في تمييزه لإنماط الإحالة في آلية الكلام بالاعتماد على ما يتضمن من بنية ثنائية متقابلة قائمة على الحضور، والغياب الذي على أساسه قُسِّم على قسمين: الإحالة المقيدة الإشارية، والإحالة المقيدة اللا إشارية.(١)

ومفهوم الإشاريات في اللغة العربية لا يختلف عن غيرها من اللغات، تكون مبهمة لا حدود لها، ولانهايات، وتختلف باختلاف الكائن في المكان، والزمان فهي غير مختصة، ولامحدودة، وقد أشار إليها اللساني والاسلوبي الإنكليزي (ستيفن أولمان Stephen olmane) بمصطلح أدوات (word form) في مقابل نوع آخر أطلق عليه مصطلح (كلمات كاملة – full words) فالأخيرة عنده هي الكلمات التي تمتلك كيانا ذاتيا مستقلا قادرا على التحديد بينما الأولى – وبحسب رأيه – مجرد عناصر، أو وسائل نحوية ليس لها معنىً مستقل خاص بها بل وظيفتها التعبير عن العلاقات الداخلية بين أجزاء الجملة.(٢) وما ورد من إشاريات عند أبي حيّان هي (الإشاريات الشخصية) لذلك سيقتصر الحديث عنها.

١-الضمائر:

أوضح العناصر الإشارية الدالة على (الشخص – person) هي ضمائر الحاضر والمقصود بها الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده (أنا)، أو المتكلّم مع غيره مثل (نحن)، والضمائر الدالة على المخاطِب مفردا كان، أو مثنى، أو جمعا مذكرا، أو مؤنثا، وضمائر الحاضر هي عناصر إشارية؛ لأنّ مرجعها يعتمد اعتمادا تامّا على السياق الذي تُستعمل فيه، ولا شك أنّ الضمير (أنا، وانت) ونحوهما له دلالة في ذاته على المتكلم، أو المخاطَب الذي يُحيل إليه الضمير (أنا، وانت)، أما

(١) يُنظر: في بناء النص ودلالته:٧١.

(٢) يُنظر: دور الكلمة في اللغة:٥١.

ضمير الغائب فيدخل في الإشاريات حين يكون حرّا لا يعرف مرجعه من السياق اللغوي، فإذا عُرف خرج من الإشاريات.(١)

وقد ركّز المنهج التداولي الحديث على الضمائر؛ لكونها تدخل في نسيج البنية العميقة للخطاب، إذ يرى (إميل بنفنيست – E B enveniste) أنّ اللغة تمنح إمكانية التعبير عن الذاتية عَبر قدرة المتكلم على فرض نفسه ذاتيا وهذه الذاتية تتحدد بوضعية الشخص اللسانية، وتتضح عند مخاطبة شخص خارج عن ذات المرسل فيصبح صدًى له يقول له (انت) ويقول المتلقي عنه (انت)، ويضيف (بنفينيست) قوله: ((إنّ اللغة تقترح بوجه من الوجوه الضمائر؛ بوصفها (أشكالا فارغة) مناسبة لكل متكلم يمارس الخطاب يعلّقها بشخصه معرّفا نفسه بوصفه (أنا)، ومعرفا شريكا له بوصفه (أنت) في الوقت ذاته، فيُستعمل الوضع الخطابي على جميع المعطيات التي تحدد الذات، وتمثل الضمائر نقاط الارتكاز الأولى لوضع الذاتية في اللغة))(٢).

وقد عرفت (أوركيوني) الضمائر بقولها: ((وحدات لسانية وظيفتها دلالية ومرجعية تأخذ بعين الاعتبار بعض العناصر المكونة للموقف التواصلي لمعرفة الدور الذي يمنحه لها المتخاطبون، والوضعية الزمكانية للمتكلم، وبالتالي المخاطب))(٣).

وأطلق عليها الفيلسوف والاستاذ الفرنسي (جون كوهن – john kuhen) مصطلح المتحولات ((وهي طبقة من الكلمات يتغير معناها تبعا للسياق، وعلى الرغم من أنّ هذه المتحولات لم توجد في اللغة لكي تؤدي وظيفة مبهمة، وإنّما لتعبر عن معنى معين، وشيء واحد، فإنّ استعمال المبدع لها في سياق مطلق لا يحده زمان ولا مكان يجعلها عصية على التحديد فهي وإن كانت تبدو محددة عند بث الرسالة

(١) يُنظر: آفاق في البحث اللغوي المعاصر:١٨.

(٢) تلوين الخطاب: ١١٠.

(٣) المضمر:٥٧.

فإنّها تفقد تحديدها بعد أن يفلت (العمل الادبي) من بين يدي مبدعه، وتصبح عناصرها المتحولة غامضة المرجع، بل ومتعددة في الوقت ذاته)).[١]

وقد ذكر ابن عقيل (ت٦٧٢هـ) أنّ الضمير هو ((الموضوع لتعيين مسماه مُشْعرا بتكلمه، أو خطابه، أو غيبته))[٢].

وبذلك يكون ابن عقيل قد نظر للضمائر من حيث دلالتها على الحضور، والغيبة. وقد ذكر ذلك في ألفيته بقوله:

((فما لذي غيبة أو حضور كأنت، وهو – سمّ بالضميرِ

يُشير إلى أنّ الضمير ما دل على غيبة كـ(هو)، أو حضور، وهو قسمان: أحدهما ضمير المخاطب، نحو أنت، والثاني ضمير المتكلم نحو أنا.[٣]

وذكر ابن يعيش (ت٦٤٣هـ) سبب تسمية الضمائر بالمبهمات قوله: ((لأنّك تشير بها إلى كل ما بحضرتك ... فلم يدر إلى ايها تشير ... فلزمها البيان))[٤].

ولم يخرج ما جاء في الدراسات الحديثة عمّا ذهب إليه القدماء بأنّ الضمير ((هو الاسم الذي يدلّ على متكلّم، أو مخاطب، أو غائب، مثل: أنا، أنت، هو))[٥] في حين جعله الدكتور (تمام حسّان) مشتملا على ثلاثة فروع هي (ضمائر الاشخاص، والإشارات، والموصولات) عادّاً الضمير قسما مستقلا بذاته في رؤية جديدة لأقسام الكلم العربي، لافتا إلى أنّ ابن مالك لو انصف ((لأضاف إلى عبارة (أنت وهو) لفظين آخرين أحدهما من الإشارات ليشمل معنى الحضور، والآخر من الموصولات ليشمل الغيبة، وبذلك يشمل مصطلح الضمير الأنواع الثلاثة جميعا)).[٦]

وبعد تتبعها عند أبي حيّان وجدنا أنّه قد وظّفها في خطاباته، وسنستعرضها على النحو الآتي:

---

(١) بناء لغة الشعر:١٨٥.

(٢) شرح التسهيل لابن مالك: ١/١٢٠.

(٣) يُنظر: شرح ابن عقيل:١/٨٦-٨٧.

(٤) شرح المفصل ابن يعيش:٣/١٢١.

(٥) النحو الأساسي:٢٧، ويُنظر: سلّم اللسان: ١٦٧، والنحو العصري: ٢٦.

(٦) اجتهادات لغوية:٢٢٥.

أ-المنفصلة:

-أنا:

يُحيل في الغالب على شخصية المتكلم نفسه نحو قول أبي حيّان ((**فلو رأيتني وأنا أمشي إلى المُصلّى شاحبَ الوجه، غُرابي الشعار، راغم الأنف**))[1] فذكْر الضمير هنا (أنا) دليل التضامن مع المخاطَب؛ لأنّ صفة المشي واضحة النسبة إلى المتكلم ومع هذا استعمل أبو حيّان الضمير الظاهر ليضمن التقرّب من مخاطَبه.

وقد يشير إلى نفسه، والمتخاطبين، وأناس آخرين، ولاسيما في القضية المطروحة إذا كانت مشتركة، فتتغير وظيفة هذا الضمير من الدلالة المباشرة على الذاتية إلى الدلالة على الغير، والتفاعل معهم، ولنا أن نلحظ هذا في قول أبي حيّان:

((**أنا – وحياتكم – إليكم ذو صبابة، لكنّي أشتمل من أجلكم على مهابة، فارعوا ذمام خدمتي لكم، وحافظوا على ما تحمّلت فيكم، فقد شربت العلقم في هواكم، وداريت العِدا تحمّلا لكم، ولزِمت الصمت حتى نسيت الكلام، واعتزلت حتى قيل هو من الوحش، وغضضت حتى قيل من العميان. لو كنت مدّعيا فيما أقول لكان لي تحرّم بكم... فكيف ولي شهود في محبّتكم عدول ذوبُ جسم وتصعُّد نَفَس و...**))[2].

وبملاحظة الضمير (أنا) في النص آنف الذكر نجد أنّ له وجهين: الأول في سطح النص وهو دلالته على ذات المتكلم، والثاني في دواخله الضمنية، غائية يبحث عنها القارئ بالحدس، والتأويل، فاللفظة مهما كانت محدودة الشكل محدودة الحروف، فهي هوية علامات تحمل من العتبات ما يسمح ببناء التأويل فالبعد الدلالي للضمير (أنا) لا يُلغي الآخر، أو ينزّل من قيمته بل العكس، ولعلّ جملة القسم المعترضة (وحياتكم) ما يُثبت ذلك فهو يُقسم بحياة مخاطَبيه وهذا دليل تودّد، مع عدم ممارسة الضغط على المخاطَب بل الطلب منه بمنتهى الأدب، الذي هو من أهم قواعد المحادثة، فضلًا على حضور مبدأ آخر هو (مبدأ الصدق)، فأبو حيّان يحاول اثبات صدقه بقوله (لو كنت مدّعيا فيما أقول) ومن ثَمّ يُكمل ما يُثبت صدق

(١) الإشارات الالهية:١٣٧.

(٢) م،ن:٦٩.

حديثه. ولعلّنا اعتمدنا – في حكمنا على الضمير (أنا) وخروجه عن دلالته على الذات، وإلغاء الآخر، وجعل المتلقي في موضع المستسلم – أساسا على السياق الوجودي للعلاقة بين المتخاطِبَين، ومحاولة أبي حيّان إكساب خطابه المرونة بغرض تدعيم العلاقة بينه وبين مخاطَبه، وفسح المجال أمام هذا المخاطَب للتعاطف معه ويظهر ذلك في قوله: (لكان لي تحرُّم بكم) أي ألتجيءُ إلى حرمتكم ومودتكم، وقد بدا هذا في التماسه من المخاطَب، وتخييره بعدم ممارسة الضغط عليه، وهكذا بدت الاستراتيجية التضامنية واضحة عند أبي حيّان فقد تجسّدت بتطبيق مبدأ التعاون وما تفرع عنه من مبادئ أخرى كان يُراعي فيها أبو حيّان علاقته الحسنة مع المخاطَبين، مع إثبات الحميمية بينهما.

ومن الشواهد الاخرى قول أبي حيّان: **((وسألت أنا أبا سعيد عن هذا فقال: سبحان الله! وسكت استعظاما لهذا الحديث، ونفيا له))**[١].

فعلى الرغم من وجود الضمير المتصل (تاء المتكلم) وظّف ابو حيّان الضمير (أنا) فكأنّه أراد أن يُثبت قربه، وعلاقته المتميزة من أبي سعيد السيرافيّ فالتأدّب واضح في خطابه فإلى جانب إرادة إثبات قرب العلاقة بينهما، فإنّ التقدير، والإكبار الذي يحمله لشيخه، وصورة المثل الأعلى بدت واضحة أيضا بتنغيم غير مستوٍ في الخطاب.

– نحن:

ذهب (بنفنيست) إلى إمكانية التطابق بين (أنا)، و(نحن) في حال الخطاب غير إنّنا نجد (أوركيوني) تعتقد عكس ذلك إذ تقول: (نحن) لا يتطابق أبدا مع (أنا) إلاّ في حالات شاذة كحال المحفوظات، والعناء الجماعي [٢].

وقد جاء في خطاب أبي حيّان ما ذهب إليه (بنفنيست) من إمكانية تطابق (أنا) مع (نحن) في الخطاب، وبالتالي يُحيل الضمير (نحن) على الذات المتكلمة وذلك قوله: **((ونحن قد بينا الاصل في هذا الباب، فليس بنا حاجة للتكثير))**[٣].

---

(١) أخلاق الوزيرين:١٦٤.

(٢) يُنظر : لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب:١١١.

(٣) اخلاق الوزيرين:٦٩.

ويستعمل المرسل الضمير (نحن) بوجه يجمع فيه بينه وبين المرسل إليه دلالة على التضامن بينهم، بين (أنا، وأنتم) في البنية الداخلية للخطاب من ذلك قول أبي حيّان ((**ونحن قد اقتدينا بالله رب العالمين، وجرينا على عادة الانبياء، والمرسلين، وأخذنا بهدي عباد الله الصالحين**))[١].

ومرجع (نحن) هنا هم الذين يقتدون بالله سبحانه وتعالى، ويسيرون على ما سار عليه الانبياء، والمرسلون، ويتبعون عباد الله الصالحين؛ ولذلك فهي (نحن) المتوسطة، أو القاصرة وهذا واضح من سياق النص فمن يتصف بهذه الصفات ليس كل الناس، بل جزء منهم.

أمّا (نحن) العامّة التي سمّاها كل من اللساني الإنكليزي (روجر فاولر – Roger Fowler)، و(لاكوف) بـ(نحن) الشمولية، أو التعاونية؛ لكونها تؤديوظيفةً تعاونيةً أكبر من سابقتها[٢]، فمما جاء منها عند أبي حيّان قوله: ((**إلهنا! نحن عبيدك، متصرفون على إرادتك، متقلّبون بين مشيئتك، وحكمك، مترددون بين قدرتك، وحكمتك، آملون روافد عطفك، ورحمتك**))[٣].

فمرجع (نحن) هنا هو العالم كلّه؛ لأنّ ايَّ إنسانٍ هو خاضع لإرادة الله عزّ وجلّ، آمل لعطفه، ورحمته.

والملاحظ هنا أنّ (نحن) في الحالتين حملت بعدا تداوليا اعتمد في الأساس على مبدأ المشاركة بين طرفي الخطاب، وهذا سهّل مَهمة أبي حيّان، واستدعاه للتعبير عن التضامن مع مخاطبيه، وتوطيد العلاقة بينهما في الخطاب مع ملاحظة طريقة التأدّب، والصدق التي طغت على الخطاب.

-أنت:

يستعمل المتكلم في اللغة العربية عادة في المخاطبة الضميرين (أنت، وأنتم) في ما وُضعا له، ولكن حينما يستعمل هذين الضميرين في مجال الخطاب التداولي نجده يستعمل الضمير (أنتم) دلالة على العلاقة الرسمية بين المتكلم، والمتلقي، أمّا

---

(١) م.ن:٦٩-٧٠.

(٢) يُنظر استراتيجيات الخطاب :٢٩٣.

(٣) الإشارات الإلهية:٢٢٩.

عند استعماله الضمير (أنت) فهو يعبّر عن التضامن مع المتلقي بدرجة أقوى ولاسيما إذا كان المتلقي أعلى درجة من المرسل ضمن السلّم الترتيبي الاجتماعي. يقول أبو حيّان:

((وقال لي يوما آخر – أعني ابن عبّاد – يا أبا حيّان! من كنّاك أبا حيّان؟

قلتُ أجلّ الناس في زمانه، وأكبرهم في وقته

قال: من هو ويلك؟

قلتُ: أنت

قال ومتى؟

قلتُ حين قلت لي: يا أبا حيّان)).[1]

فأبو حيّان حينما ذكر الضمير (أنت) إنّما عبّر عن درجة التقارب بينه وبين الوزير، ولم يراعِ الفارق الاجتماعي، محاولا توطيد العلاقة بينهما بقوله: (أجلّ الناس، وأكبرهم في وقته) فكلمات المديح هذه، والضمير (أنت) وظّفها التوحيدي توظيفا تداوليا، فخاطب الوزير بـ(مبدأ التأدّب) حينما اسبغ عليه صفات فضّله بها على ناس زمانه، أمّا الضمير (أنت) فقد تجاوز به أبو حيّان ولم يقف به عند الإحالة على المرجع فحسب، بل أصبح مؤشرا على غرض تداولي، إذ أشرك نفسه مع المتلقي بعلاقة حميميّة لم تكن موجودة بل حاول أبو حيّان خلقها في الخطاب؛ لتكون دليلا على قربه من الوزير.

وقد ورد الضمير (أنت) حاملا معنى التعاون، والتضامن عن طريق النصح، والتخويف من العواقب، وذلك في قوله: **((أما تُحب أن تكون حبيب الملك الجبار؟ حدثني بم تثق، وبم تصول، وبم تحتج؟ فأي شيء تقول؟ الوعد يشوّقك، وأنت ساه، والوعيد يخوّفك وأنت لاه، والعتاب يُوافيك وأنت ذاهل، والعلامة تلوح لك وأنت جاهل، والعِبرة توقظك وأنت ناعس، والداعي يرفق بك وأنت متشاكس، والناصح يصدُقُك وأنت جامح، والصديق ينصحك وأنت جانح))**[2].

---

(١) أخلاق الوزيرين:٣٠٧.

(٢) الإشارات الإلهية:١٧٤.

لقد تحدد حضور (المخاطَب) في استعمال الضمير المنفصل (أنت) الذي تكرر ثماني مرّات فالمرسِل – أبو حيّان – يُحذّر، وينبّه المرسل إليه بتوضيح صورته التي هو عليها من سهو، ولهو، وذهول، وجهل...، ويحاول تعميق العلاقة مع المخاطَب من خلال التنبيه، والتذكير بالعواقب، وعلى الرغم من عدم وجود تفاعل من قبل المخاطَب، وهذا واضح في سياق العتاب العنيف (والناصح يصدُقُك وانت جامح، والصديق ينصحك وأنت جانح...) والمرسِل بتكراره للضمير (أنت) إنّما جاء ليُلغي الفوارق بينه وبين مخاطَبه، فاختيار (أنت) إنما هو دليل على التضامن، وانعدام السلطة؛ فـ(أنت) هنا هي ما تُعرف بـ(أنت) التعاونية، أو المتبادلة؛ فهي تشير إلى أنّ المرسِل، والمتلقي تربطهما علاقة الحميميّة من الناحية الاجتماعية، وبذلك يكون استعمال (أبي حيّان) للضمير (أنت) هو لغرض تضامني وليس لغرض تبجيلي.

ب–المتصلة:

قد يعدل المتكلم أحيانا في السياق اللغوي عن ضمير معين إلى ضمير آخر، من ذلك عدوله عن الضمير المنفصل إلى الضمير المتصل، ومن هذه الضمائر ما هو سابق للفعل وله دلالة الضمائر المنفصلة مثل حرف (النون)، فهو يتصل بالأفعال المضارعة، بوصفه سابقا لها، وتتجاوز وظيفته مجرّد وظيفة الدلالة النحوية على زمن الفعل إلى الاستعمال التداولي للدلالة على التضامن نيابة عن الضمير (نحن)[١] من ذلك قول أبي حيّان التوحيديّ:

((وقد قيل: الغريب من جفاه الحبيب، وأقول: بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب حاباه الشريب ... بل الغريب من ليس له من الحق نصيب فإنْ كان هذا صحيحا فتعال نبكي على حال أحدثت هذه النفْوة، وأورثت هذه الجفْوة))[٢].

(١) يُنظر: استراتيجيات الخطاب: ٢٩٨ .

(٢) الإشارات الإلهية:١١٤.

وقوله: ((**يا هذا إنّما نتنفّس بهذه الكلمات كما يتنفّس المملوق**[١]، **ونهذي كما يهذي بها المألوق**[٢]))[٣].

لقد مثّل ضمير المتكلم – في النص الأول – حضورا قويا، ومكثّفًا – في قوله: ((فتعال نبكي)) – حينما مزج بين الخطاب الصريح (تعال)، والتكلم (نبكي)، إذ انتقل من التعبير بالخطاب إلى التعبير بضمير جمع المتكلم (النون) التي دلّت على المصير المشترك بينه وبين من سأله ذكرَ الغريب، ومحنته، ووصف الغربة، وعجائبها، وبهذا يكون **أبو حيّان** قد وظّف ضمير (جمع المتكلم)؛ لأنّه في سياق الحديث عن أمر مشترك وهو (معاناة الغريب)، وساوى نفسه مع المخاطَب ولم يكتفِ ببناء علاقة بخطابه، بل حرص على المواصلة فيها بعيدا بعد انتهاء المساحة الخطابية.

وكذا الحال في النص الثاني، فقد ساوى أبو حيّان نفسه مع مخاطَبه، ولم يكتفِ بمحاولة تطوير هذه العلاقة بل حرص فيها كل الحرص على المواصلة فيها بعيدا بقوله: (وإلاّ فما نحن ممن وصفناهم ببعيد) فهو أولًا وأخيرًا يخاطب رفيقه، وحتى سياق المقام الدال على النصيحة، والتوجيه يسمح له بالتضامن مع مخاطَبه.

٢–النّداء:

يحتوي النداء، وأحكامه على مواقف اتصالية تداولية؛ فقواعده تمثّل ضربا من الخطاب الكلامي الذي لا يؤدي دوره في التواصل إلاّ بوصفه عنصرا من عناصر الموقف الاجتماعي، يضم مُرسِلا، ومُستقبِلا، فهو يقتضي وجود طرفين بينهما علاقة من نوع ما، فضلًا على الرسالة نفسها، وتستلزم هذه العلاقة – مقاميا – توظيف النداء بالذات، وقد أشار النحاة إلى هذا الربط بين أسلوب النداء، والمقام، وتنوع الأحكام بحسب ظروف هذا المقام.[٤]

---

(١) المضروب بالعصى. يُنظر: الصحاح: م/٤، باب القاف:١٥٥٦.

(٢) المجنون. يُنظر: م.ن:١٤٤٦–١٤٤٧.

(٣) الاشارات الإلهة:١١٥.

(٤) يُنظر: المشيرات المقامية في اللغة العربية:٢٤٧.

والنداء أسلوب تخاطبي يستعمله المتكلم ليُعلن تنصيبه الآخر مخاطَبا، وهو يتحقق بعمل التلفظ، ويتحدد بوقت التكلم، وبذلك فهو يسهم في بناء إطار التخاطب[١].

إذن فهو إشارة تقترن ضرورةً بالمخاطَب في عملية التخاطب الأولية[٢] وهو عملٌ لغويّ لا وجود له خارج لفظ يُنجزه المتكلم بوساطة اللغة، ويوقعه المنادي ويُنشئه لدى التلفظ[٣] وفي النداء يُعلن المتكلم للمنادى اختصاصه من بين أمّته، بتوجيه الكلام إليه؛ ولذا يُعرّفه سيبويه (ت١٨٠هـ) تعريفا وظيفيا إذ يقول: ((فهو أولُ كلّ كلام لكَ به تَعطف المكلَّمَ عليك))[٤] وهو من العناصر الإشارية الدالة على شخص ما؛ لأنّنا نوظّفه لاستدعاء شخص، أو تنبيهه ((فالنداء هو ضميمة إسمية تشير إلى مخاطَب لتنبيهه، أو استدعائه))[٥] ولهذا سمّيت (يا) النداء بيا الشخص؛ لكونها تشير إلى شخص معين يُفهم من سياق الحديث[٦].

وبعد تتبع خطاب أبي حيّان التوحيديّ وجدنا أنّ أداة النداء (يا) هي الغالبة على أدوات النداء الأخرى، ولا عجب إذا ما علمنا أنّها (أمّ) الباب، وتدخل في كلّ نداء من مندوب، ومتعجب، منه، ومستغاث به وغير ذلك[٧] ولا يُنادى اسم الله عزّ وجلّ، والاسم المستغاث، وأيها، وأيتها إلاّ بها، وأنّ القرآن الكريم ومع كثرة النداء فيه لم يأت فيه غيرها[٨] يقول أبو حيّان:

((كتبت إليكم يا أحباب قلبي، وورّاد شُربي، وطلاّب قُربي، عن قرب يلتهب أسفا عليكم، وشوق يعصر الدموع إليكم، وبال متحرّك عند تمنّي عطفكم، وليل

---

(١) يُنظر: المشيرات المقامية في القرآن الكريم:٢٥٠.

(٣) يُنظر: نسيج النص:٤٥٦.

(٣) يُنظر: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة:١٦٣.

(٤) الكتاب: ٢٠٨/٢.

(٥) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:١٩.

(٦) يُنظر: م.ن:١٨.

(٧) ينظر: المقرّب:١٣١/١.

(٨) يُنظر: الاشباه والنظائر: ١٣٠/٢.

يتباهى في مراعاة طيفكم، ونهار متعب في توقع لطفكم))[١] ما نلحظه في هذا النص وجع البعد الذي استهله أبو حيّان بنداء أحبابه وهم مرجع أداة النداء في النص، وقد راعى المرسِل البعد الاجتماعي بينه وبين المرسل إليه، حينما وصفهم بـ(أحباب قلبي وورّاد شربي) وهذا مؤشر على مدى قربه منهم، فضلًا على اختياره مجموعة من الالفاظ الرقيقة التي جاءت بدورها لتعبّر عن تادّب أقصى من المخاطِب اتجاه مخاطَبه.

وقد يستغني المخاطِب عن حرف النداء في نداء القريب مسافة، أو حكما[٢] ليكون دليلا على القرب بينه وبين المخاطَب. قال أبو حيّان:

((أحبّائي على القرب بالتصافي، وعلى البعد بالتوافي جمع الله لكم قواصي المُنى، وأنالكم بكرمه أفضل الغِنى ... ورفع عنكم مناجاة الشكوى، وأهبّ عليكم نسيما ناعما من شرف المأوى))[٣] فقوله: (أحبائي) خالٍ من أداة النداء والتقدير (يا أحبائي)، وقد أشار سيبويه إلى ذلك بقوله: ((وإن شئت حذفتهن كلهن استغناءً كقولك حارِ بن كعب وذلك أنّه جعلهم بمنزلة من هو مقبل عليه بحضرته يخاطبه))[٤] فيدلّ حذف حرف النداء على ظنّ المتكلم أنّ المنادى مقبل عليه يُخاطبه، فسيبويه يصور بذلك درجةً أقوى في قرب المتكلم من المنادى؛ لذلك قرن سيبويه بين الإقبال، والمخاطبة، فمع حذف حرف التنبيه استغنى المتكلم عن التنبيه وحاول إظهار أمر آخر وهو التضامن مع مخاطَبه، وتوثيق العلاقة بينهما بدعائه لهم، ولعلّ إضافة المنادى (أحبائي) إلى (ياء المتكلم) مؤشّرٌ على ذلك، ودليل على المجاملة، واللّطف، واللّين، والتأدّب في الخطاب.

ثانيا: ألآليّات:

أ- المُكاشفة :

---

(٨) الإشارات الإلهية:٦٧.

(٢) يُنظر: رصف المباني:٢٢٥.

(٣) الإشارات الإلهية:٧٢.

(٤) الكتاب: ٢/٢٣٠.

يُعدُّ كشف الذات عنصرا من عناصر التضامن، أو مؤشّرا على القرب، إذ يتفاوت الناس من إطْلاع الغير على الاشياء العامّة إلى كشف أدقّ الخصوصيات؛ ولذلك فالكشف عمّا في النفس من خفايا عن طريق الصراحة مع متلقٍ خاص هو دليل على التضامن، والثقة المتبادلة، وحسن الظن بهذا المتلقي.(١) وغالبًا ما تكون صفة المكاشفة بين الأحباب، والاصدقاء وهذا يتماشى مع قول أبي حيّان:

((لا تسرع إلى ذمّي حتى تقف على عذري، وتعرف حقيقة أمري، فوالله لقد أصبحتُ ومالي صديقٌ أتنفّس معه، ولا عدو أنافسه، ولا غِنى استمتع به، ولا حال أُغبط بها، ولا مرتبة أُحسد عليها))(٢)

وقوله: **((أيها الصديق المشفق، والصاحب الموالي، والمُشتكي المُساعد اسمع ما غشيني من عياني وخبري فلعلّ حسن الاستماع منك ينفي عنّي وحشةً قد كدّتني، وآذتني، ورددتني عن مقاصدي، وأردتني فلو انكشف عنك غِطاء أمري، وبدا لتصفّحك وجه عذري ... قد أصبح مرضوض البال، مخفوض الحال))**(٣).

لقد أفصح ابو حيّان في النص الأول لمتلقيه بكلّ ما لديه، وما يجول في خاطره، إذ غلّف خطابه بفضاء الإفصاح عن الذات، وانفتاح الرؤية فكان هذا مؤشرا على العلاقة التضامنية بينه وبين مخاطَبه، ويؤكّد أبو حيّان في النص الثاني خصيصة كشف الذات، والصراحة مع مخاطَبه، ويحاول أن يَزيدَ القرب منه، ويطور العلاقة، بينهما بكشفه عن ذاته وصراحته معه، وعلى هذا يبدو أنّ العلاقة الحميميّة هي استعداد المتكلم لاطْلاع مخاطب معيّن على خصوصياته الشخصية، وبعض ما يخفيه عن الآخرين من عالمه الداخلي، وأنّ هذا الاستعداد مبنيٌّ على الثقة الشخصية، فضلًا على المشاعر الحقيقية بينهما.

ب-نكران الذات، وتأنيبها:

يُظهر المرسل أحيانا تضامنه مع المتلقي بتأنيب ذاته، ونكرانها، ((وقد تكون هذه الآلية أقلّ ما يستعمله المرسل تجاه ذاته فهو يتضمن صنف التذمّر من الذات

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب:٣٠٢.

(٢) البصائر والذخائر: ١٢٨/٨.

(٣) الإشارات الإلهية:٢٦١-٢٦٢.

تلك الشكاوى التي ينتقص فيها من نفسه بالشكوى من قدرته، أو سلوكه، أو أفعاله، أو مظهره الجسدي، ولا يتضمن هذه المحور الشكوى من السياق الذي هو فيه))[١].

وقد تجسّدت هذه الآلية عند أبي حيّان بقوله: **((وصل كتابك – وصلك الله بالخير وجعلك من أهله – تسألني فيه عن حالي، وتستنطقني به عن ظاهري، وباطني، وعن سرّي، وعلانيتي ... إلى متى نعبد الصنم بعد الصنم، كأنّنا حُمر النعم، إلى متى نسيء ظنّنا به، ولم نرَ خيرا إلاّ منه... إلى متى نشكو إلى خلقه وليس لنا معاد إلاّ إليه... إلى متى نعتصم بغيره وهو أقرب إلينا من حبل الوريد... إلى متى نبتلع السموم ونحن نظنّ أنّ الشفاء فيها))**[٢].

وقوله: **((فإنّي أقول منبها لنفسي، ولمن كان من ابناء جنسي ... هذا وأنا في ذيل الكهولة، وبادئة الشيخوخة، وفي حال مَنْ إنْ لم تهده التجارب فيما سلف من أيّامه، في حالَي سفره، ومقامه، وفقره، وغِنائه، وشدته ورضائه، ... فقد انقطع الطمع من فلاحه، ووقع اليأس من تداركه، واستصلاحه))**[٣].

استطاع أبو حيّان في النص الأول وبهذه الآلية – نكران الذات، وتأنيبها – أن يصل إلى أبعد درجات التضامن مع المخاطَب، فعلى الرغم من أنّ الخطاب هو عبارة عن إجابة لسؤال شخص إلاّ أنّه في جوابه تجرّد من الذاتية، وتحدث عن نفسه، وأنّبها، ولعلّ (النون) مع الفعل المضارع تكررت لأكثر من مرّة ، فضلًا على الضمير المنفصل (نحن) الشمولية كل ذلك مؤشر على التضامنية، ونكران الذات.

أمّا في النص الثاني فعلى الرغم من توجيه خطابه إلى نفسه، وأبناء جنسه عامّة إلاّ أنّه تحدّث بالضمير (أنا) الذي يمتاز من الناحية السيميائية بعلاقة ارتباطية عضوية مع الذات المتكلمة الفاعلة، والمنتجة للفعل[٤] مشكلاً بنية كبرى تتألف من محورين أساسيين في العملية التخاطبية (أنا) الذات التخاطبية المتكلمة، (والآخر)

---

(١) استراتيجيات الخطاب:٣١٩.

(٢) الإشارات الإلهية:٦٠-٦٢.

(٣) الامتاع، والمؤانسة:١٠-١١.

(٤) يُنظر: سيميائية الضمير (أنا) في الدلالات وبناء التأويل

www.bensayahlakdar3.org

الذي يأتي في درجة تراتبية أقلّ من الذات مصدر الخطاب، وبذلك يكون أبو حيّان قد وصل إلى أعلى درجات نكران الذات، وتأنيب النفس، ومن ثمّ التضامن مع المتلقي الذي جعله – بنكرانه لذاته – في موقع المتلقي المستسلم، والمؤمن بما يصله.

ج–التعجّب:

((هو معنى يحصل عند المتعجب عند مشاهدة ما يجهل سبَبه، ويقل في العادة وجود مثله وذلك المعنى كالدَّهش، والحيرة))[١] وله صيغتان: (ما أفعله، وأفعل به)[٢] وعلى الرغم من معنى التعجب هذا، وموارد استعماله، إلاّ أنّه قد يُستعمل خلاف المعهود في الخطاب التداولي، فالمتكلم يستعمله في الغالب مع المخاطَب، و(ما) المبهمة في تركيب (ما أفعله) جُعِلت بغير صلةٍ، ولا صفة؛ لإرادة الإبهام، أمّا في الخطاب التداولي فللمتكلم رغبة في إظهار التضامن مع المتلقي، وقد يستعمل المرسِل خطابات بديلة للتعجب القياسي، للوصول إلى غايته كالمديح مثلا، واستعمال آلية التعجب قد يرتبط بما يعرفه المرسل من توقعات المرسل إليه، أو يفترضه، وذلك بحسب طبيعة العلاقة التي تربطهما[٣].

اذن فالتعجب من الأساليب؛ الإفصاحية؛ للتعبير عن انفعال داخلي للمتكلّم.[٤]

وقد ورد التعجب عند أبي حيّان بصيغة قياسية هي: (ما أفعله)، وأخرى غير قياسية فالصيغة القياسية قوله: ((**فُديتَ! صاحبُ هذا النعت ما أظرفه، وأظرفَ حديثه! وما أسعده، وأسعد من ساعده!**))[٥].

---

(١) شرح المفصل: ١٤٢/٧.

(٢) يُنظر: المقتضب: ١٧٨/٤، وحاشية الصبان: ٣٠/٣.

(٣) يُنظر: استراتيجيات الخطاب:٣٠٦.

(٤) يُنظر: النحو الأساسي:٥٩٧.

(٥) الإشارات الإلهة:١٧٠.

وقوله: ((**ما أحوجك إلى أخٍ كريم الأخوة، كامل المروة، إذا غبت خَلَفَكَ، وإذا حضرت كنفك، إن لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوّك كفّه عنك، وإذا دانيته ابتَهَجْتَ، وإذا باثثته استرحت**))[١].

فقد وظّف صيغ التعجّب لغرض المدح، وإظهار محاسن مخاطبه فالمرسل هنا لا يرمي إلى الإبهام بقدر ما يمتلك رغبة في التضامن مع المرسل إليه، فضلًا على ذلك فإنّ دلالة التعجب هنا تدل على طبيعة العلاقة التي تربط بين المرسل، والمرسل إليه، ولعلّ مردّ اختيار هذه الآلية هو معرفة المرسل بتوقع المرسل إليه اعجابًا منه.

ويعدّ المدح من الأساليب غير القياسية في إظهار التعجب من ذلك قول أبي حيّان:

((**وقلت لأبي السلم نجبة بن علي القحطانيّ الشاعر: قد لقيتَ ابنَ العميد، وها أنت تشاهد ابن عبّاد، فصفهما لي؛ فإنّك رجل بدويّ، وتنظر إلى كل شيء بفطرتك، وتنطق عن كل شيء بسابق فطنتك**))[٢].

فاستعمال آلية المدح هنا يمكن الحاقها بالإعجاب؛ فالمدح إعجاب بالممدوح فقد حاول أبو حيّان استنطاق صاحبه فوجّه له عبارات تدلّ على المدح، والإعجاب محاولا التقرب منه بهذا الأسلوب التأدّبي التودّدي مع عدم الضغط عليه، وترك المجال أمامه في حرّيّة الإجابة وهذا واضح بعبارات المدح، والإطراء.

د- الطُّرفة:

الطُّرفة كلمة استعملها العرب منذ القدم للدلالة على كلّ شيء مستحدث، مستحسن طيّب، غريب، وأطرفته: أتحفته.[١]

(١) أخلاق الوزيرين:١٢٨.

(٢) م ، ن:٢٨.

وإذا كان معنى الطُرفة في اللغة يتمحور حول الجديد المستحسن، فإنّ المعنى الاصطلاحي يشرح اسباب الاستحسان، ويربطها بما يشيع أجواء الأنس، والبهجة، ويجلب الضحك، والبسمة، ويروح القلب، ويزيل عنه الهمّ، والحزن، ويخفف من أثقال الحياة، ويقلل من أعباء الواجبات[٢]؛ ولأنّ أبا حيّان كان حادَّ الطبع، دقيق النظر، عميق الحسّ، فلم تظهر الطّرفة عنده إلاّ قليلا فقد حلّ يوما ضيفا على أحد أصحابه في بغدادَ فوجد عنده جمعا من الناس فأخذوا يتسامرون ولم يترك أبو حيّان أحدا إلاّ ووجّه له كلاما، إمّا ناقدا، وإمّا ساخرا فقال له صاحب الدار **((يا أبا القاسم ما بقي في المجلس أحد لم تذكره غيري قال أبو حيّان: ياسيدنا وما عسى أن أقول فيك، إلاّ كما قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلم المرء على دين خليله، فلينظر أحدُكم من يخالل** وكما قال الشاعر[٣].

إلى المرء لا تنظر بل انظر خليله فكلّ أمرئ يصبو إلى من يجانس

منْ يكون هؤلاء السادة ندماؤه، وأصفياؤه، وأخلاؤه، إيش يقال فيه وحياتي ما ألّف الداماني مثلكم في السما مَلَكٌ اسمه القفندر، يؤلّف بين الأشكال، أبصر بعضهم ببغا، وغرابا، وبوما في موضع واحد، فعجب من اتفاقهم، وتأمّلهم، فإذا الغراب أعور، والببغاء أعرج، والبوم مكسور الجناح، فقال: إنّما جمعكم العاهة))[٤] وقوله:

((ثمّ يحدق النظر إلى اثنين وهما صديقان، فيقول لا إله إلاّ الله ينضاف الشوم على الشوم، كما ينضاف البصل على الثوم، أطلع القرد في الكنيف، وقال ما تصح هذه المرآة إلاّ لهذا الوجه اللطيف))[٥].

---

(١) يُنظر: معجم مقاييس اللغة:٤٤٨-٤٤٩، وأساس البلاغة: ٦٩٦٨/٢، ولسان العرب: ٢١٣/٩-٢٢١، والمعجم الوسيط:٥٥٥.

(٢) يُنظر: الطرفة في الادب الفلسطيني (ماجستير):٤٧.

(٣) صريع الدلاء، معجم البلدان: ٥٣٨/٢.

(٤) الرسالة البغدادية:٨١.

(٥) الرسالة البغدادية:٨١.

بهذا الأسلوب الطريف الساخر مع التلاعب بالألفاظ هو محاولة من أبي حيّان لتلطيف الجلسة لتصطبغ بالفكاهة، والمرح وبالمحصلة التقرّب من صاحب الدار، وندمائه، وإشاعة الأنس، والبهجة، وصرف الألم، والمشقّة عن الإنسان، وقد استطاع أبو حيّان الوصول إلى أعلى درجات القرب، والتضامن مع جلسائه عَبر تكثيف التعبير الناتج عن اختيار النصوص المختلفة، وتضمينها في حديثه من حديث نبوي شريف، وبيت من الشعر، فضلًا على مثل عربي؛ فبرزت الطُرفة لتكون مؤشرا للعلاقة القريبة بينهم.

هـ-المصانعة:

من الآليات التي يجسّد بها المرسِل التضامنية، ونعني بهذه الآلية العمل على منوال المتلقي ومُقاربته، والتقرب إليه. إنّ سبر غور الناس لا يتحقق إلاّ بمخالطتهم مخالطة تمنحهم الثقة بأنّك متفق معهم في صفاتهم، ومتّحد نحو أهدافهم، ومشارك لهم في جميع ميولاتهم[١]، من ذلك ما قاله **أبو حيّان** في حديثه مع الوزير ابن سعدان حينما قال له الوزير: **((اجمع لي حروفاً نظائر لهذا في اللغة، واشرح ما ندر منها، وعرض الشك لكثير من الناس فيها))**[٢].

قال أبو حيّان **((فقلت السمعَ والطاعةَ مع الشرف بالخدمة))**[٣].

ومنه أيضًا عندما دعاه الوزير بقوله: **((تعال نجعل ليلتنا هذه مجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر، فإنّ الجدَّ قد كدّنا، ونال من قوانا، وملأنا قبضًا وكربًا هات ما عندك))**[٤] فأجاب أبو حيّان: **((قال حسنون المجنون بالكوفة يومًا، وقد اجتمع إليه المُجّان يصف كلّ واحد منهم لذّات الدنيا، فقال أمّا أنا فأصف ما جرّبته، فقالوا هات، فقال: الأمن والعافية، وصفح الصلع الزرق، وحك الجرب،**

(١) يُنظر: الأدب المثمّن٦/٩.

(٢) الإمتاع، والمؤانسة:٢٠٠.

(٣) م،ن: والصفحة نفسها.

(٤) م،ن:٢٣٦.

وأكل الرُّمّان في الصيف، والطلاء في كلّ شهرين، إتيان النساء الرعن ... والمشي بلا سراويل))[١]

ولعلّ أبا حيّان كان مضطرا في النص الأول لتلبية هذا الطلب؛ لأنّه صدر من الوزير أولاً؛ ولأنّه يريد التقرب منه، والتضامن معه ثانيًا فكان جوابه مصداقًا لمبدأ التأدّب الأقصى الذي يُفضي إلى تقوية العلاقة مع المخاطب.

أمّا في النص الثاني فاستجابة أبي حيّان، وتماشيه مع طلب الوزير يثبت للوزير بأنّه حاضر في كل مقام من أجل دفع الملل، والسأم عنه؛ فيزداد تعلّق الوزير به، ومن ثَمّ اضفاء الحميميّة على العلاقة بينهما.

و- ذكر الخصائص الإيجابية للمرسل إليه:

وقد يلجأ المرسل أحيانا إلى ذكر الخصائص الإيجابية للمتلقي تجسيدًا للاستراتيجية التضامنية عن طريق اثبات العلاقة السابقة بينهما التي تسبق انتاج الخطاب أحياناً من ذلك قول أبي حيّان:

((اسمع أيّها الجليس المؤانس، والصاحب المساعد حتى أصف لك تصاريف حالي، ومتقلّب أمري، وجميع ما يدلّ على سكري، وشكواي))[٢] وقوله: **((أيّها الصديق المشفق، والصاحب الموالي، والمشتكي المساعد، اسمع ما غشيني من عِياني، وخبري فلعلّ حسن الاستماع من ينفي عنّي وحشةً قد كدّتني، وآذتني، وردّتني عن مقاصدي، وأرْدتني))**[٣].

فقد وجّه أبو حيّان خطابه لمتلقيه بعبارات دلّت على معرفة له وهي (الصديق، والصاحب)، ومن ثم ذكر بعضا من خصائص هذا الصديق بأنّه مشفق، وموالٍ ومؤانس، هذه العبارات التي تكشف عن مستوى الارتباط، وعن متانة العلاقة بين المخاطِب، والمتلقي فأبو حيّان – وهذا ديدن الصوفيين – لا يطمع في مكسب، ولا يسعى إلى حظوة، بل همه البحث عن القلب الصادق الذي يطلب منه أن يشاركه

(١) الامتاع والمؤانسة: ٢٣٦.

(٢) الإشارات الإلهية:٥٤.

(٣) م،ن:٢٦١.

همومه، ويستمع إليه ليخفف عنه الوحشة اذ يمكن لهذه المشاركة أن تقود إلى التضامن، وتمتين العلاقة مع المخاطَب.

ز- التنغيم:

هو ارتفاع الصوت، وانخفاضه، مراعاةً للظرف المؤدّى فيه الخطاب، أو هو تنويع الأداء للعبارة بحسب المقام، أو عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية، أو الإيقاعات في حدث كلامي معيّن.(١) ويُعدّ التنغيم من الظواهر الصوتية التي تساعد في تحديد المعنى؛ لأنّ تغيّر النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة في كثير من اللغات.(٢)

ويُسهم التنغيم في تحقيق التواصل اللساني؛ إذ له وظيفتان مختلفتان هما: الوظيفة الأدائية ، والدلالية وعلى الرغم من اختلافهما إلاّ إنّه لا يمكن الفصل بينهما فهما متلازمتان ومتكاملتان في تأدية المعاني والمقاصد، ومن الواضح أنّ بعض المعاني تُنقَل بوساطته أثناء التواصل الكلامي، ومن هذه المعاني المعنى الاجتماعي، والانفعالي، فضلًا على المعنى المرجعي، وهذه المعاني، وغيرها تُسهم في ضمان وضوح الرسالة التي يتلقاها المرسل إليه عن المتكلم.(٣)،وللتنغيم عدد من المميزات جعلته عنصرا مهما من عناصر الأداء وعدم إتقانه يؤدي إلى عدم الوضوح ولعلّ المعنى يقف على رأس هذه المميزات فضلا على أنّ التأثير الصوتي يعدّ من أهم المداخل إلى النفس البشرية.(٤).

ومن صور التنغيم عند أبي حيّان التوحيديّ قوله: ((**أين العقول الصاحية؟ أين الآذان الصاغية ... أين الأيادي المبسوطة بالخيرات ... أين الندم القارح للأكباد على الفَرطات بعد الفَرطات؟ أين الحُرق المتوالية على ما سلف من**

(١) يُنظر: أسس علم اللغة:٩٣.

(٢) يُنظر: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية:٢٦٥.

(٣) يُنظر: الإعراب سمة الفصحى: ٥.

(٤) يُنظر: اللغة والمجتمع: ١١.

التقصير مع الحسرات على الحسرات! اللّهمّ فسلّمنا من هذه الكَربات المتصلة بالكربات، يا ذا الجلال، والإكرام))[1].

وقوله: **((دعْ ذا! أخلق الدّين، وعمّت الفحشاء، وأُفسِد العلماءُ، وفشا الجهل، وظهر الغيُّ، وتكاشف الناس، وفُقِد الصدق، وغَلَب الجهل، وكثُرت الجرأة، وصار الله لغوا على الألسنة، وخوت القلوب من الفكر بين الحسنة، والسيئة))**[2].

نجد في النص الأول حضورا مميزا للنغمة الصاعدة التي أراد بها المتكلم إظهار الثقة، والقرب من السامع مع إلغاء الفوارق التراتبية بينه وبين المتلقي ومن ثم حمله هذا الشعور التضامني بالتوجه إلى المخاطَب بنوع من التحضيض، والتشويق الممزوج بالرغبة، والشدة، والصرامة، فكأنّ من الملائم تماما لهذه المعاني أن تتأطر بالتنغيم الصوتي الصاعد؛ لأنّه يعين مجريات السياق على تحقيق هذه المعاني المطلوبة، ويوفر لها الجو المناسب الذي يجعل المخاطَب مستجيبا، ومتفاعلا مع هذه النغمة الصاعدة.

أمّا النص الثاني ففيه صورة من صور التنغيم كشفت عن نوايا المرسِل، وعن حالته النفسية من خلال انفعالاته التي تنفلت منه بطريقة لا واعية في صورة نطاقات تنغيمية شكّلت لحنَ الكلام، فهي تكشف عن حزن، وأسف عميقين على ما وصل إليه الناس بالابتعاد عن محاسن الأخلاق وذلك من خلال التعجب، والتأنيب وهوما عكسته النطاقات التنغيمية التي وظّفها المرسِل، والتي كشفت بدورها عن العلاقة الحميمية بين المرسِل، والمخاطَب تلك العلاقة التي أعطت للمرسِل الدافع لتوجيه النصح، والإرشاد، وعليه فإنّ التنغيم المناسب هو أساس كل تلفظ بالخطاب، وبه يستطيع المرسِل أنْ يُحقق الاستراتيجية التضامنية بصرف النظر عن أداته اللغوية، وآليته المستعملة.

---

(١) الإشارات الإلهية:١٢٥.

(٢) م.ن:١٥٠.

المبحث الثالث: الاستراتيجية التوجيهية:

أولًا: تعريفها، وعلاقتها بـ(السلطة):

يلجأ المرسِل أحيانًا – وبحسب العلاقة التي تربطه بالمرسل إليه – إلى استراتيجية يمارس فيها نوعًا من الضغط على المرسَل إليه، ولا ينعدم فيها التأدّب نهائياً بل يبقى جزئيًا في الخطاب أطلق عليها الدارسون (الاستراتيجية التوجيهية)، وهي استعمال المتخاطبين لبعض الافعال الكلامية المندرجة تحت مسمّى التوجيهات(Les–directif) تختلف باختلاف سياقات اندراجها، ومقتضيات قوانين التخاطب بين المتحاورين[١] وتعرّف بأنّها ((الاستراتيجية التي يرغب المرسل بها تقديم توجيهات، ونصائح، وأوامر، ونواه يفترض أنّها لمصلحة المرسل إليه فضلًا على أنّ التوجيه هنا يُعدّ فعلًا لغويًا، فإنّه وظيفة من وظائف اللغة التي تعنى بالعلاقات الشخصية إذ إنّ اللغة تُحمل على أنّها تعبير عن سلوك المرسِل، وتأثيره في توجّهات المرسَل إليه، وسلوكه))[٢] والتوجيه هو إكساب المتلقي الأدوات الأساسية التي تمكّنه من إجراء التوجيه الذاتي؛ فالغاية من التوجيه هي تحقيق الشخصية المنسجمة المتكيّفة، ومحاولة خلق التوازن بين المتلقي، وبيئته، وتحقيق ذاته[٣].

والغرض الإنجازي للتوجيهات هو ((محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات (World to words) وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة ويدخل في هذا الصنف: الأمر، والنصح، والاستعطاف، والتشجيع))[٤].

ويتوزّع الغرض الإنجازي إلى أغراض إنجازية فرعية تعكس اختلافًا في القوى الإنجازية، بين غرض فرعي وآخر وفقا للمقصد، والسياق.[٥]

---

(١) يُنظر: تداولية الخطاب السردي:١٥١.

(٢) يُنظر: الاستراتيجيات التخاطبية في السنّة النبوية (بحث):٥٤٩.

(٣) يُنظر: التوجيه والإرشاد المدرسي والمهني من منظور إصلاحات التربية الجديدة:١٥.

(٤) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٤٩–٥٠.

(٥) يُنظر: النص والخطاب والاتصال:٢٩٠.

ولا يخفى ارتباط مقصد المتكلم بالسياق إذ يوضح ما يفعله المتكلم على نحو أفضل، أي إنْ كان يريد بمنطوقه التهديد، أو التحذير، أو نحوهما، فضلا على الابتعاد عن المرونة في هكذا خطابات لأسبقية التوجيه[١] وإنّ التأكيد على مفهوم (السلطة) لإداء مثل هذه الاستراتيجية؛ نابع من أنّ المتكلم ينبغي أن يكون في موقع السلطة حتى يُصبح منطوقه طلبًا حقيقيًا.[٢]

والسلطة – بحسب ميشيل فوكو – هي علاقة قِوى[٣] وتستلزم السلطة أمرًا، وآمرًا، ومأمورًا عليه واجب الطاعة للآمر بتنفيذ ألأمر الموجه إليه[٤] ووفقًا لهذه المعطيات يتضح ما للسلطة من أثر رئيس في عملية انتاج الخطاب، وتأويله فضلًا على منحها قوة إنجازية كبيرة، بل إنّ من الباحثين من يرى أنّ الخطاب نفسه السلطة[٥]

ثانيًا: مسوّغاتها:

للاستراتيجية التوجيهية مسوغات يُمكن إجمالها بالآتي:

١-عدم التشابه في عدد من السمات.

٢-عدم وجود اتصال متكرر بين المرسِل والمتلقي.

٣-عدم الانسجام الفكري بين طرفي الخطاب نتيجة التفاوت في مستوى التفكير .

٤-المحافظة على السلّم التراتبي الاجتماعي بعدما أُغفل نتيجة استعمال الاستراتيجية التضامنية.

٥-رغبة المرسِل في الاستعلاء، أو الارتفاع بمنزلته.

٦-الاحتراز من سوء الفهم، أو التأويل الخاطىء، ومن ثمّ إصرار المرسِل على تنفيذ قصده عند إنجاز الفعل وعدم التواني عن تعقّب خطابه، والتمسك بمدلوله.

---

(١) يُنظر: النص والخطاب والاتصال:٢٩٠.

(٢) يُنظر: م،ن:٢٩٠.

(٣) يُنظر: المعرفة والسلطة مدخل لقراءة فوكو:٦٣.

(٤) يُنظر: م،ن:٧.

(٥) يُنظر: تأصيل الخطاب في الثقافة العربية (بحث):٣١.

٧-حصول تحدّ واضح للمرسل، أو لتعليماته عندها يشعر المرسل بأنّ المرسل إليه قد يتجاوز حدوده في النقاش، أو الحوار.

٨-مناسبة السياق التفاعلي لاستعمال الاستراتيجية التوجيهية[١].

ثالثًا: الاستراتيجية التوجيهية عند أبي حيّان التوحيديّ:

- وسائل الاستراتيجية التوجيهية:

١-الأمر:

الأصل في الأمر الدلالة على الوجوب إلاّ إنّه يخرج عن هذه الدلالة أحيانًا، ويُمكن أن تُرصد دلالته الجديدة عن طريق القرائن، وله صيغ كثيرة عَبرها يتم التوصل إلى معنى الأمر حقيقة، أو مجازًا.[٢] ومن هذه الصيغ التي وردت عند أبي حيّان التوحيديّ:

-صيغة (افعل):

وهي صيغة فعل الأمر الظاهر المسند إلى المخاطَب، وتُعدّ الصيغة الأكثر شيوعًا في العربية. ((والمراد بصيغة (افعل) هو كل لفظ يشتق على غرار (افعل) للدلالة على طلب الحدث الذي تشتق منه هذه الصيغة، فيشمل غير الثلاثي مثل كلمة (استقم) فإنّها على وزن (استفعل)، ومثل كلمة (انتظر) فإنّها مصوغة على غرار (افعل) ولكنّها على وزن (افتعل) ومثل كلمة (أقم) فإنّها ليست على وزن (افعل) ولكنّها على غرارها في الاشتقاق))[٣] ومن هنا نجدها كثُرت في خطاب أبي حيّان، من ذلك قوله: ((**واعلم - لقّيت المنى، وجُنّبت الردى - أنّا قد أصبحنا في دار رابحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزيزها ذليل، وصحيحها عليل ... فكن - حرسك الله- لنفسك نصيحًا واستقبل توبةً نصوحًا، وازهد في دار سُمّها ناقع،**

(١) يُنظر: استراتيجيات الخطاب:٣٢٨-٣٢٩.

(٢) يُنظر: الخلاصة النحوية:١٣٩، والنحو الأساسي:١٧٩، وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين:١٩٣.

(٣) الأمر والنهي عند علماء العربية والأصوليين:٢٥.

وطائرها واقع، وارغب في دار طالبها منجح، وصاحبها مفلح))[١] وقوله: **((الزم – عافاك الله– حدّك، وطالب نفسك لله بما له عندك، واحرص على أن تكون عبدًا حقًّا فإنّه إنْ وجدك عبدًا حقًّا لم يرضَ لك حتى يجعلك ملكًا حقًا هذا سرّه فيك، ومراده لك، فافطن، ودع الكسل، واطمأنن))**[٢].

وقوله: **((زد من طول أملك في قصر عملك، ولا يغرّنّك صحة نفسك، وسلامة امسك؛ فمدّة العمر قليلة، وصحة النفس مستحيلة))**[٣].

وجّه أبو حيّان خطابه في النصوص السابقة إلى المرسل إليه بصنفيه المُتخيّل، والحاضر أمّا المتخيّل ففي النصين الأول، والثاني وهنا يكون المرسل على معرفة مسبّقة بالمرسل إليه وعادة ما يتّصف هذا الخطاب بصفة العموم، والديمومة، والمناسبة لكل وقت، أمّا النص الثالث فهو موجه إلى متلقٍ حاضر وهو الوزير –ابن سعدان– وبالتأكيد فإنّ التوجيه هنا ينماز بالخصوصية، ولعلّ السبب هو ضيق السياق، فضلًا على المعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب[٤].

لقد ضمّت النصوص السابقة جملة من الأفعال الكلامية المباشرة المتمثلة بـ(فعل الأمر بصيغة (افعل)، وهذه النصوص من صنف التوجيهات وفقا لما جاء به (سيرل) من تصنيف بديل لما قدّمه (أوستن)، ويقوم هذا التصنيف على ثلاثة أسس منهجية هي: الغرض الإنجازية، واتجاه المطابقة، وشرط الإخلاص[٥].

سعى أبو حيّان بخطابه هذا إلى النصح، والتذكير؛ للاستيقاظ من الغفلة وعلى الرغم مما تتطلبه الاستراتيجية التوجيهية من ضغط، وتدخل على المرسل إليه، والابتعاد عن المرونة في الخطاب؛ كون الغاية من ورائها هو تبليغ القصد، وتوجيه المرسل إليه، ومن ثمّ حدوث خرق لبعض قوانين المحادثة بجانبها التهذيبي من (تودد، وتعفف، وتخيير)، إلاّ إنّنا نجد أنّ أبا حيّان فيما سلف من النصوص فضلًا

---

(١) البصائر والذخائر: ٧/٣.

(٢) الإشارات الإلهية:١٢٤.

(٣) الإمتاع والمؤانسة:٢٤٤.

(٤) يُنظر: استراتيجيات الخطاب في الحديث النبوي الشريف (ماجستير):٨٠.

(٥) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٤٩.

على التزامه ضوابط تبليغ الخطاب فقد التزم إلى حدّ كبير ضوابط التهذيب أيضًا؛ لتحقيق الغاية التي من أجلها أَنتج خطابه، فقوله: (اعلم لقّيت المنى، وجنّبت الردى)، و(الزم عافاك الله) يكون قد حقّق قاعدة (التعفف) بتجنّبه فرض نفسه على المخاطَب إذ استعمل عباراته بتحفظ، فعلى الرغم من قصده التوجيهيّ أنّه بدأ خطابه بالدعاء للمتلقي وتمنّي الخير له؛ ترفّقًا به؛ ولاستمالته لقبول النصح، وهو خطاب بعيد عن الإحراج، والإكراه مع الحفاظ على ماء وجه المتلقي، وهذا يدخل في إطار الأفعال المهدِّدة للوجه السلبي للمستمع، والتي هي بضمن إطار مبدأ الوجه الذي هو عبارة عن الذات التي يدّعيها المرء لنفسه، والتي يريد أنْ تتجسّد بها قيمته الاجتماعية، فالمتكلم يسعى إلى حفظ ماء وجهه بحفظ ماء وجه مخاطبه وقد صان أبو حيّان ماء وجه مخاطبه، بتجنبه إعطاء اوامر فضّةً، أو التقدم بمطاليب غير معقولة، وهذا بدوره قلّل من تنافر المرسل، والمتلقي، وكثّر من تعاطفهما.

- صيغة (لتفعل):

وهي صيغة يُطلب بها حصول الفعل مكونة من (لام الأمر+ الفعل المضارع) وتستعمل في أمر الغائب عادةً[١] وقد وردت هذه الصيغة عند ابي حيّان منها قوله: **((يا هذا! إنْ سهر طرفك فاجعله يُراعي محاسن وجهه، وإنْ رقد جفنك فليلهو بطيف خياله، وإنْ ألحّ فؤادُك فلْيستمتع بالطمأنينة إليه، وإنْ توالى خبطك فلْيتفضل بشهاب قبس منه، وإنْ اعوجّ لسانك فلْيرحم حالك معه، ... وإنْ خرج صدرُك فلْيُهدِ أريحيته إليك، وإنْ ارفأن[٢] جأشك فلْيُذِق خصوصية أُنسه))**[٣] وقوله **((فلْيستح الجيهاني بعد هذا البيان، والكشف، والإيضاح، ولْيرفع نفسه عمّا يشين العقل ... ولْيُفارقه طيشه، وليعلم أنّ من أنصف أعطى بيده، وسلّم الفضلَ لأهله؛ فإنّ التواضعَ للحق رفعة، والترفّع بالباطل ضَعة))**[٤].

---

(١) يُنظر: شرح الكافية:٢/٢٥٢، وهمع الهوامع: ٢/٥٥.

(٢) رفأ الرجل: سكّنه، ورفأ بينهم: أصلح، وأرفأ: جنح وامتشط ودنا، ودانى، وحابى، وداری، وارفأن: سكن، وضعف، واسترخى. يُنظر: لسان العرب: ج/١٧، ١٦٨٥ مادة (رفأ).

(٣) الإشارات الإلهية:١٠٣.

(٤) الإمتاع، والمؤانسة:٨٣-٨٤.

وظّف أبو حيّان صيغة (لام الأمر + الفعل المضارع) في هذين النصين ساعيًا لتحقيق غرضه، وقد تضافرت هذه الأفعال فيما بينها لتخدم الغرض المحوري وهو التوجيه، والإرشاد، والجدير بالإشارة أنّ المتلقي هو المسؤول عن تحقيق المحتويات القضوية في أفعال التوجيه؛ كونها تُمَثَّل به، والتمثيل هنا هو تحقيق المطابقة التي يكون اتجاهها في هذه الأفعال من العالم إلى الكلمات.(١) وعن الغرض الإنجازي من خطاب التوحيدي هذا فهو توجيه المتلقي، ونصحه، وهذا واضح في نبرة الصدق التي نتلمسها في هذا الخطاب، فضلًا على حضور أسلوب الشرط في النص الأول وهو فعل قوته الإنجازية هي الإخبار، وفيه ربط العمل بجوابه بقصد ترغيب المخاطَب لتنفيذ توجيهات المرسل، وبهذا تكون جميع الأسس المنهجية –التي يقوم عليها تصنيف (سيرل)– قد توافرت في خطاب التوحيدي وهي الغرض الإنجازي، واتجاه المطابقة، والصدق، والإخلاص.(٢)

–أسماء الأفعال:

اسم الفعل هو ((**اسم يدلّ على فعل معيّن، ويتضمّن معناه، وزمنه، وعمله من غير أنْ يقبل علامته، أو يتأثّر بالعوامل**))(٣) وما وظّفه أبو حيّان من اسماء الأفعال هو (عليك)، وهو من اسماء الأفعال المنقولة(٤) استعمله أبو حيّان أداةً للتوجيه وذلك قوله: ((**عليك بالفكر الصحيح، والرأي الصريح، والصاحب النصيح، فإنّك بهذا، وأشباهه تنعم سرًّا، وجهرًا، وتملك بطنًا، وظهرًا**))(٥).

وقوله: ((**يا هذا عليك بطلب الجنّة حتى تعانق فيها الحور العين، وتُسقى بكأس من مَعين، وتستخدم الوِلْدان المخلّدين، وعليك بالهرب من النار المُوقدة التي لا طاقة بك عليها**))(٦) وظّف أبو حيّان اسم الفعل (عليك) في خطابه بقصد التوجيه

---

(١) يُنظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد:٢٣٧.

(٢) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٤٩–٥٠.

(٣) شرح المكودي: ٦٤٢/٢، وينظر: النحو الوافي:١٤٢.

(٤) يُنظر: حاشية الصبّان: ٢٩٥/٣.

(٥) الإشارات الإلهية:١٥١.

(٦) م.ن:٢٠٥.

فضلًا على ما فيه من معنى الإغراء[١] وهو خطاب مباشر فيه من الصدق، والإخلاص ما لا يترك للمتلقي مجالًا للتأويل، ولعلّ أولوية تبليغ الخطاب تفرض نفسها في مثل خطابات كهذه.

-المصدر:

من أساليب الأمر في العربية: الأمر بصيغة المصدر، والمصدر هو ((اسم للحدث الذي يُحدِثه الفاعل))[٢] وقد وظّف أبو حيّان هذه الصيغة لغرض التوجيه في قوله: **((هو مالك الظلّ إنْ شاء قلّص، وإنْ شاء أسبغ، وهو العالم بالحال، وإنْ شاء قطع، وإنْ شاء بلّغ، صبرًا على النائبات صبرًا ما صنع الله فهو خيرُ))**[٣].

نلحظ أنّ المصدر يحمل قوةً إنجازيةً تفوق ما يحمله فعل الأمر الصريح، وغرضه الإنجازي هو تقوية عزيمة المتلقي، والشدّ من أزره، ولعلّ الرغبة الصادقة في التوجيه واضحة في هذا النص، فضلًا على إنّ المصدر منح النص القوة الإنجازية المناسبة فـ(صبرًا) هو توكيد للفعل (اصبر) وعلى هذا فإنّ دلالته تكون أشدّ من الفعل نفسه.

-الأمر بالخبر:

أسلوب آخر من أساليب الأمر في العربية هو الأمر بصيغة الخبر. ذكره سيبويه في **((باب الحروف التي تنزل بمنزلة الأمر، والنهي؛ لأنّ فيها معنى الأمر، والنهي ... ومثل ذلك اتّقى اللهَ امرؤٌ وفعل خيرًا يُثَب عليه؛ لأنّ فيه معنى ليَتّق اللهَ امرؤٌ وليفعلْ خيرًا، وكذلك ما أشبه هذا))**[٤] إنّ استعمال الكلام في غير ما وُضع له أصلًا، أو إقامة صيغة مكان صيغة أخرى يُعدّ نوعًا من المجاز[٥].

استعمل أبو حيّان هذه الصيغة لغرض انجاز التوجيه من ذلك قوله: **((ولستَ تكون هذا المذكور بهذا الوصف إلاّ بعد أنْ تُطلّق الدنيا ثلاثًا، وتُعرض عنها طلقًا،**

---

(١) يُنظر: شرح المفصل: ج٤/٢٥.

(٢) الأساليب الإنشائية في النحو العربي:٧٤.

(٣) الإشارات الإلهية:١٦٠.

(٤) الكتاب: ٣/١٠٠.

(٥) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن: ٢/٣٩.

ثمّ تُقبل على طليق نفسك من شهواتها الذميمة، وعاداتها الفاسدة، وقرنائها المُظلّلة، ووسواسها الباطلة، ثمّ تأخذ بعنانها نحو الذكر، واللّهَج به))[١].

وقوله: **((من قرع باب الله ولَج، ومن طلب ما عند الله ادّلج**[٢]**، ومن توجه إلى الله استسلم، ومن طلب المكانة العليّة عند الله استعصم))**[٣].

فقوله: (أنْ تُطلّق)، و(تُعرض)، و(ثمّ تأخذ)، و(من قرع ... ومن طلب، ومن توجه) هي بمعنى طلق الدنيا ثلاثًا، واعرض عنها، ثمّ اقبل على طليق نفسك... وخذ بعنانها، واقرع باب الله، واطلب من عند الله، وتوجه إلى الله، فقد أخرج أبو حيّان الأمر بصورة الخبر ولعلّه أبلغ من صريح الأمر؛ كونه يفيد تأكيد الأمر، والمبالغة في الحثّ، والإسراع في الامتثال.[٤]

فالتوجيه بالخبر يحمل قوة إنجازية أكبر من الأمر الصريح؛ وربّما يرجع ذلك إلى ما في الخبر من تفصيل يوضّح صدق، وإخلاص المرسل، وحرصه على وقوع القصد، الذي تمحور في هذين النصين حول ترك الدنيا، وملذّاتها، والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى.

٢-النّهي:

طلب الكف عن فعل ما[٥]، وهو صورة من الأمر.[٦] وصيغته مكونة من (لا الناهية + الفعل المضارع) ((وهذه الأداة يطلب بها ترك الفعل، ويُسند إليها الفعل عن طريق المجاز؛ لأنّ الناهي هو المتكلم بواسطتها))[٧] ومن الشواهد على التوجيه بـ(النهي) عند أبي حيّان التوحيديّ قوله: **((صحّة جسدك بإزاء عفة نفسك، وشجاعة**

---

(١) الإشارات الإلهية:٢٣٣.

(٢) ادّلج القوم ادلاجا: ساروا من آخر الليل والاسم الدُّلجة والدَّلجة. يُنظر: لسان العرب: ١٤٠٧/١٦ مادة (دلج).

(٣) الإشارات الإلهية:٣٢١.

(٤) يُنظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:١٢٩.

(٥) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن:٦٤٢، وقواطع الادلة في الوصل:١٢٨/١.

(٦) يُنظر: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة:٦٠٢.

(٧) التعريفات:١٠٧.

نفسك بإزاء قوة جسدك، وتمام جسدك بإزاء حكمة نفسك، وعدالة نفسك حسن جسدك، فلا تقطع بين هذه القرائن؛ فبها شرفك، وإليها توجهك. أنت من نفسٍ، وبدن تَبيد بالبدن، وتخلد بالنفس، فاقصر سعيك على ما يبقى، ولا تلتفت إلى ما تَبيد معه))[١].

وقوله: **((يا هذا لا تذكره ناسيًا، ولا تنسه ذاكرًا، فإنّك إنْ ذكرته ناسيًا حَجَبَكَ بِكَ، وإنْ نسيته ذاكرًا عجّبك منك، بل اذكره ذاكرًا... فحينئذ يستولي عليك مذكورًا قبل ذكرك له بذكره لك))**[٢].

فالأفعال التوجيهية في النصين (لا تقطع، لا تلتفت، لا تذكره، لا تنسه) وُجهت إلى مخاطَب غير معاين لحظة انتاج الخطاب بل هو افتراضيّ ممّا أضفى على الخطاب طابع العمومية، ومنحه صفة الديمومة، والملاءمة لأي زمان، ومكان، وهذا مكّن المرسل من انتاج خطابه، والابقاء عليه في مكان بارز ليتجدد بمجرّد ما يتلفظ به المرسل، والذي يسّر مَهمّته في ذلك هو توظيف المعرفة المسبّقة بالمرسَل إليه.

وبدا واضحًا أنّ الغرض الإنجازي من هذه الأفعال هو التوجيه، بالنصح، والإرشاد، فأصبح طلبًا لا تكليفًا ولا إلزام فيه؛ كونه لم يصدر عن استعلاء فأفاد الترك[٣].

وقد يستعمل المرسِل أحيانًا صيغة النهي مع (نون التوكيد) كما في قول أبي حيّان **((لاتخدعنّك الدنيا بخدائعها، ولا تفتننّك بودائعها ربّ حُجّة تأتي على مُهجة، وربّ فرصة تؤدّي إلى غُصّة كم من دمٍ سفكه فم، وكم إنسان أهلكه لسان))**[٤].

فقد استعمل صيغة النهي مع نون التوكيد الثقيلة، في قوله: (لاتخدعنّك، ولا تفتننّك)، وهو مؤشّر تداولي على أنّ النهي مع التوكيد بـ(نون التوكيد) يكون التوجيه

---

(١) المقابسات:٢٥٤.

(٢) الامتاع، والمؤانسة:٢٤٤-٢٤٥.

(٣) يُنظر: مفتاح العلوم:٣٢٠.

(٤) الامتاع والمؤانسة:٢٤٥.

معه أعلى درجة، وبناءً على السياق التداولي فإنّ النهي درجات – عن طريق معرفة خصائص المتلقي – من القوة، والضعف، فضلًا على أهمية الأمر المنهي عنه.

٣-الاستفهام:

((هو استعلام ما في ضمير المخاطَب، وقيل هو طلب حصول الشيء في الذهن))[١] وهو أكثر أساليب الطلب انتقالا إلى دلالات تحويلية مُغايرة لدلالته الأصلية وهي طلب الفهم.[٢] و((يُعدّ استعمال الأسئلة الاستفهامية من الآليات اللغوية التوجيهية؛ بوصفها توجه المرسل إليه إلى خيار واحد وهو ضرورة الإجابة عليها، ومن ثمّ فإنّ المرسِل يستعملها للسيطرة على مجريات الأحداث، بل وللسيطرة على ذهن المرسَل إليه وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسِل لا بحسب ما يريده الآخرون ولاسيما الأسئلة المغلقة التي تعدّ من أهم الأدوات اللغوية لاستراتيجية التوجيه))[٣].

وما ورد من استفهام توجيهي عند أبي حيّان قوله: ((**إلى متى تنافس أهل الدنيا في الدعوى، لِمَ لا تنظر إلى حالك في العقبى، لِم لا تسلك الطريقة المثلى... ماذا يجيء من هذا التهافت وهذا[٤] الذلّة، وهذا الجهل؟**))[٥].

وقوله: ((**أين التوقع للموت؟ أين الإعداد لما بعده؟ أين الفكر فيما له طائل إذا جاء الحق وزهق الباطل؟ أين لائمة النفس على التفريط؟ ... أين الحياء من الله الذي أنعم عليك بدأً، وعوداً؟ وأين الخوف من الله الذي إنْ سطا أباد، وأفنى**))[٦] نلحظ أنّ أبا حيّان وجّه خطابه إلى مخاطَب غائب؛ فامتاز بالعمومية، والديمومة، فضلًا على ذلك لم يكن المحتوى القضوي للاستفهام هو إرادة الفهم، بل الغرض الإنجازي فيه هو توجيه، ونصح للمرسَل إليه، وبدا واضحًا في سلسلة الاستفهامات التي قدّمها

---

(١) التعريفات:١٧.

(٢) يُنظر: مغني اللبيب: ١٣/١.

(٣) استراتيجيات الخطاب:٣٥٢.

(٤) هكذا في الأصل، ولعلّ صوابه (هذه) يُنظر: الإشارات الإلهية (الهامش):١٨٧.

(٥) الإشارات الإلهية:١٨٧.

(٦) م.ن: ٢٦٨-٢٧٥.

فأنتجت غرضًا إنجازيا توجيهيًا، القصد منه توجيه المخاطب وحثَه على ترك الدنيا، والعمل لما بعد الموت، ومخافة الله، أمّا عن اتجاه المطابقة فهو من العالم إلى الكلمات، مع توفر شرطي الإخلاص، والصدق اللذين عبّر عنهما أبو حيّان بانفعالاته ورغبته الصادقة، وبهذا يكون أبو حيّان قد بلّغ خطابه، وهو توجيه المتلقي بما اثاره من اسئلة تحمل قوة إنجازية غرضها توصيل المعلومات من المرسِل إلى المرسَل إليه.

٤-التحذير:

((تنبيه المخاطَب على أمر يجب الاحتراز منه))[١] ويكون المحذَّر منه منصوبًا بفعل محذوف[٢] ويُعدَ أسلوب التحذير من آليات الاستراتيجية التوجيهية، ويكون انجازه من باب النصح للمرسل إليه؛ كونه حقّاً له.[٣]

وبناءً على معطيات انتاج الخطاب فإنّ للتحذير أربع صور:

١-أنْ يكون المحذّر منه غير مكرر، ولا معطوفا عليه.

٢-أنْ يكون المحذَّر منه مكررًا.

٣-أنْ يُذكر المحذَّر منه معطوفًا عليه، وغير مكرر.

٤-أنْ يُذكر المحذَّر منه تاليًا للفظة (إيّا)[٤] ولـ(إيّا) أربع أحوال:

أ-أنْ يُذكر المحذَّر منه بعدها من غير فاعل.

ب-أنْ يُذكر المحذَّر منه بعدها معطوفًا عليها بـ(الواو).

ج-أنْ يُذكر المحذَّر منه بعدها مجرورًا بـ(من).

د-أنْ يُذكر المحذَّر منه مصدرًا مؤولًا بعدها.

والمحذَّر منه منصوب دائما بفعل محذوف جوازًا في الحالة الأولى، ووجوبًا في بقية الأحوال. وما ورد من صور التحذير عند أبي حيّان هي الصورة الرابعة بحالتيها الثانية، والرابعة أمّا الحالة الثانية ففي قوله: ((**إيّاك والمدافعةَ، والوكالَ،**

---

(١) شرح ابن عقيل: ٢٧٤/٢، وينظر: التبصرة والتذكرة: ٢٦٢/٢، وشرح المفصل: ٢٥/٢.

(٢) يُنظر: جامع الدروس العربية: ١٧/٣، وسلم اللسان:٢٦٩.

(٣) يُنظر: شرح ابن عقيل: ٢٧٥/٢.

(٤) يُنظر: النحو العصري:٢٦٠.

وحبَّ الهوينا، والاسترسال، وإيثارَ الخفض، والدعَّة، والميلَ إلى الراحة، والسعة؛ فإنّ خواتم هذه الخصال مذمومة، وعقباها كريهة وخيمة))[١].

وقوله: **((وإيّاك و(لو) فإنّها مَزْلقة، وإيّاك و(لعلّ) فإنّها مَغْلقة، وإيّاك والتمنّي فإنّه مَقلقة، وإيّاك والهوى فإنّه مَعلقة، وإيّاك والتهمة فإنّها مَغرقة))**[٢].

فقد جاءت بنية التحذير في هذين النصين على النحو الآتي كان المحّذِّر أبو حيّان، والمحذّر مُفترض، والمحذَّر منه مجموعة من الخصال المذمومة التي تعود على صاحبها بالندم، والأسف، وتمثّل المحتوى القضوي في هذين النصّين بالمرسل إليه، أي إنّ تحقيق المطابقة من مسؤولية المرسل إليه، فحينما يوجّه أبو حيّان خطابه الذي يحوي انفعالاته، ورغبته الصادقة في توجيه، ونصح المتلقي، بالمقابل تكون لديه الرغبة في أنْ يؤدّي المتلقي فعلًا ما عن طريق الاستجابة لهذا الخطاب.

أمّا الحالة الرابعة فقد تمثّلت في قوله: **((وإيّاك أنْ تريد إلاّ وانت مريد، وأمّا إذا كنت مرادًا فتجنب كلّ إرادة لك فإنّها إرادة فيك، واجتهد أن تكون سابقًا متمهّلًا، وإياك أنْ تكون سبوقًا متعجلًا فإنّ ذلك عنوان الفَوْت، وآية الحسرة، وعلامة الأسف))**[٣].

فبنية الخطاب التحذيري في هذا النص هي: المحذِّر أبو حيّان، والمحذَّر هو مخاطَب مفترض أيضًا، والمحذَّر منه هو ضرورة الابتعاد عن الشك، والطمع، وتجنب العجلة، وقد استعمل أبو حيّان لفظة (إيّا)، والضمير المخاطَب المفرد (الكاف) مع المصدر المؤول من (أنْ + الفعل)؛ لبلوغ قصده التوجيهي.

٥-الإغراء:

نصب الاسم بفعل محذوف يُفيد الترغيب، والتشويق، ويُقدّر المحذوف بما يُناسب المقام، ويأتي المُغرى به مفردًا نحو (الصدقَ)، ومعطوفًا نحو(العهدَ والذمّةَ)،

---

(١) البصائر والذخائر:٢/٧.

(٢) الإشارات الإلهية:١٥١.

(٣) البصائر والذخائر: ٢/٧.

ومكررًا نحو (الإقدامَ الإقدامَ)، ويجب حذف العامل مع العطف، والتكرار، ويجوز اظهاره فيما سوى ذلك.[١]

وما ورد عند أبي حيّان هو تكرار المُغْرى به نحو قوله: ((**فالبدارَ – أكرمك الله – البدارَ إلى منازل الطاهرين الأبرار المخصوصين بالحق في السرار، والجهار، والصابرين للحق عند اختلاف الأهوال في الاضطرار، والاختيار، والمحابّ، والمسار**))[٢].

وقوله: ((**فالبدارَ البدارَ إلى محل الأبرار الأخيار، الذين يحلو بصحبتهم الحنظل الحولي ويخفَّ برؤيتهم الخفوف عن هذا العالم السُّفلي إلى محل ذلك العَلْوي**))[٣].

لقد تضمن خطاب أبي حيّان في النصّين السابقين قوةً انجازية تمثّلت بإغراء المتلقي، وتنبيهه، وترغيبه وذلك في قوله: (البدارَ البدارَ) غرضها الإنجازي توجيه المتلقي إلى ملازمة الأبرار الصالحين الأخيار، وهو عمل توجيهيّ غايته التقريب، وذلك عن طريق أمر المتلقي بلزوم ما يعود عليه بالنفع[٤]؛ ولأنّ الخطاب موجه إلى متلق غير معاين فهذا يُضفي على الخطاب صفة الديمومة، والمناسبة لكل زمان، ومكان، أمّا ما يتعلق باتجاه المطابقة فهو من العالم إلى الكلمات؛ كونه خطابًا توجيهيًا، مع توفر شرط الإخلاص المتمثّل بالرغبة الصادقة عند أبي حيّان في دعوة مخاطَبه، وإغرائه بلزوم أصحاب الخير، والصلاح.

٦-التوجيه بذكر العواقب:

ذكر العواقب، وما يؤول إليه الفعل من نتائج يعدّ من الآليات المباشرة، والصريحة التي يستعملها المرسِل في توجيه المرسَل إليه، وهذه الآلية هي أقلّ درجةً من الأمر، والنهي، وقد وظّف أبو حيّان هذه الاستراتيجية في خطابه من ذلك قوله:

((**من لم يعتبر بالأيام، لم ينزجر بالملام. من استغنى بالله عن الناس، أمن من عوارض الإفلاس ... من ذكر المنية نسي الأمنيّة ... من حسُنت مساعيه**

(١) يُنظر: سلّم اللسان:٢١٩، وجامع الدروس العربية:١٧/٣.

(٢) الإشارات الإلهية:٢٢٢.

(٣) م،ن :٥٣.

(٤) يُنظر: شرح المفصل: ٢٥/٢.

طابت مراعيه. من أعزّ فَلْسه أذلّ نفسه. من طال عدوانه زال سلطانه، من لم يستظهر باليقظة، لم ينتفع بالحفظة، من استهدى بالأعمى عَمي عن الهدى من اغترّ بمحاله قصّر في احتياله ... من استشار الجاهل ظل))[1].

وقوله: **((أيّها الوزير مُرْ بالصدقات فإنّها مجلبة السلامات، والكرامات مَدفعة للمكاره، والآفات ... وقلّ من فزع إلى الله بالتوكل عليه، وإلى الصديق بالإسعاد منه، إلاّ أراد الله النجاح في مسألته، والقضاء لحاجته))**[2].

فقد استطاع أبو حيّان بهذه الآلية، تحقيق الاستراتيجية التوجيهية بربط انجاز الفعل بالوعد، أو الوعيد فمن الأول ما ذكره عن الاستغناء بالله عن الناس يُفضي إلى الأمن من مراعيه، ومن تصدّق سَلم، ومن توكل على الله، أراه الله النجاح. ومن الثاني طول العداوة زوال للسلطان، واستشارة الجاهل ظَلال، فالأمر بالعواقب، فراقب العواقب تسلم. وقد ارتبط انجاز الأفعال الاستغناء بالله عن الناس، والتصديق، والتوكل بوعد هو الأمن من غضب الله، والسلامة في التصديق، وثواب النجاح بالتوكل على الله. أمّا الأفعال التي ارتبط انجاز الفعل فيها بالوعيد فهي ارتباط طول العداوة بزوال السلطان، واستشارة الجاهل عاقبتها الظلال، والندم فأبو حيّان يركز على ضرورة توقّع النتائج، وعواقب الأفعال.

٧-التوجيه المركّب:

يعمد المرسِل أحيانًا إلى الجمع بين آليّتين من آليات التوجيه؛ بغية تحقيق الغرض الإنجازي الذي تتفاوت قوّته شدّة، وضعفًا، وفقاً لسياقات الاتصال.[3]

من ذلك قول أبي حيّان: **((يا هذا! أتدّعي أنّك محبٌّ لمولاك، وأنت متلطّخ ببلواك؟ أتزعم أنّ بينك وبين الحق وُصلة، وأنت عاكف على بساط الخلاف، والمعصية؟ بادر يا هذا، وكذّب نفسك من نفسك، من قبل أن يُكذّبك من لا قِبلَ لك**

(١) الإمتاع، والمؤانسة:٢٤٤-٢٤٥.

(٢) م.ن:٥٢٩.

(٣) يُنظر: تعديل القوة الإنجازية (دراسة في التحليل التداولي) (بحث):٣١٩.

بتكذيبه ... يا هذا لاتَعْرَ من لبوس الإيمان فقد زُيّنت به ... ولاتشرُد على متالفك وقد رُبّيتَ في برّه، ولا تغتر من طلب نجاتك وقد مُكّنت))[1].

وظّف أبو حيّان خمسًا من آليات التوجيه في خطابه هذا بلغت فيه القوة الإنجازية أعلى درجاتها وهي (النداء، والاستفهام، والأمر، وذكر العواقب، والنهي) إذ بدأ خطابه بتنبيه المتلقي عن طريق النداء، أعقبه باستفهام كان الغرض منه التوبيخ والتقريع، ولعلّ التعبير بالاستفهام مكان التوبيخ هو لإثارة انتباه المرسل إليه وطلب الجواب منه؛ ليفكر بجدية في حاله، ويصل بنفسه إلى ما يصلح مستقبله[2]، وبعدها فعل الأمر (بادر، وكذّب) ومن ثمّ يُذكّره بعاقبة عدم تكذيب نفسه، وهو الوقوف أمام الله عزّ وجلّ، ويَختم خطابه بـ(النهي) (لا تَعْرَ، ولا تشرُد، ولا تغتر). إنّ تضافر معاني هذه الاليات قد أعان على تحديد شدّة القوة الإنجازية للفعل إذ لا يمكن التحديد بين درجات قوة الفعل الإنجازي من دون فهم المعنى الدلالي، والوظيفي للمنطوق، فالمعنى هو من محددات القوة الإنجازية، فضلًا على السياق، وعناصره[3] وتوظيف أبي حيّان لهذه الوسائل اللغوية المتعددة هو مؤشر للدلالة على القوة الإنجازية التي تضمنها كلامه للتعبير عن قصده، ولو أنّ بعض محللي الخطاب يرون أنّ قوة المنطوق الإنجازية هي ما يعمد إليه المستمع، لاما يقصد إليه المرسِل؛ لأنّ مقصد المتكلم لا يمكن التثبّت منه؛ كونه لا يقبل الفحص، أمّا تفاعل المرسَل إليه مع الخطاب فإنّه يتجلّى في استجابته.[4]

(١) الإشارات الإلهية:٢٠٠.

(٢) يُنظر: من بلاغة النظم العربي:١١٧/٢.

(٣) يُنظر: براجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة:٢٦٧-٢٦٨.

(٤) يُنظر: تعديل القوة الإنجازية:٣٣٤.

المبحث الأول: (الشكل اللّغوي للخطاب)

يعبّر المتكلم عن قصده من خلال شكل اللغة التي يستعملها فيستعمل أسلوبا مباشرا يتطابق مع معنى الخطاب، وقد يستعمل أسلوب التلميح، وبعض الأساليب غير المباشرة؛ لإيصال المعنى المقصود، ويكون هذا باستعمال الخطاب المناسب للسياق فتنتج عنه دلالة يفهمها المتلقي، وهي حتما تستلزم قصدا يدلّ عليه الخطاب[١] وبعد تجلّي الخطاب في شكل لغويّ معين، لاشكّ أنّ هناك علاقة بين شكله، ومعناه مما يُلزم الربط في هذا المعيار بين قصد المرسل الذي يريد التعبير عنه في خطابه وبين شكل اللغة الدال عليه؛ و هذا باستعمال الخطاب المناسب، والانطلاق من افتراض عام هو أنّ لكلّ معنى شكلا لغويا يدلّ عليه وفق مواضعة اللغة؛ كونه أصبح مستقرا في كفاية الناس اللغوية[٢].

أولًا: التصريح، والتلميح عند العرب:

لم تكن ظاهرة التصريح، والتلميح غريبة عن المجتمع العربي إذ اهتمّ العرب بالناحية المنطوقة أساسا على ما يحمله القول من معان قسّموها إلى معان حقيقية، وأخرى مجازية، يُعدّ ما أرتبط منها بالواقع حقيقيا، وما ابتعد عنه ليدخل في عالم الخيال مجازيا[٣].

وقد تناولوا هذه الظاهرة تحت أسماء مختلفة؛ كونهم ينتمون إلى تخصصات متعددة فقد أشار لها النحويون بمصطلحات (الحذف، والاضمار) معولين في ذلك على السياق في الكشف عنها، وقد تجلّت ظاهرة التلميح في البلاغة، وشكّلت ميدانها الأوسع، ولاسيما علم البيان فتميزت برصد بعض آلياتها مثل: (المجاز بأنواعه، والتشبيه، والكناية، ومخالفة الأصل في تراكيب التقديم، والتأخير).

فقد تصدّى الجاحظ (ت٢٥٥هـ) لدرس شؤون البلاغة، والبيان في كتابه (البيان والتبيين) فسجّل كثيرا من ملاحظات معاصريه ولاسيما المعتزلة، وأطال

---

(١) يُنظر: ما التداوليات (بحث):٢٢.

(٢) يُنظر: استراتيجيات الخطاب:١١٤.

(٣) يُنظر: علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع:٢٤٦.

الوقوف عند ما أثاره بِشْر بن المعتمر من صفات الألفاظ، والمعاني مؤكّدا ميله نحو التصريح، والوضوح في الكلام، ووجوب مطابقة الكلام لحال سامعيه[١].

فهو يولي الألفاظ اهتماما بالغاً، إذ يرى أنّ المعاني مطروحة، والميزة لمن يتخيّر الألفاظ[٢].

وعقد ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في كتابه (تأويل مشكل القرآن) بابا في ((مخالفة ظاهر اللفظ معناه)) ذكر فيه أنّ للعرب مجازات في الكلام، أي: طرائق القول، ومآخذه، فيها الاستعارة، والكناية، والتمثيل، والقلب، والحذف، والإخفاء والإظهار...[٣] وقسّم المجاز على قسمين: ألأول لفظي، وهو خروج المعنى الأصلي للّفظ إلى معنى آخر لا يمتّ للأول بصلة، إنّما هو تماثل في اللّفظ، والثاني معنوي وهو انتقال اللفظ إلى معنى آخر له صلة بالمعنى الأول[٤].

وذهب ابن وهب (ت٣٣٥هـ) إلى تقسيم المعنى على قسمين: الأول ((الظاهر وهو ما أدركناه بالحواس، أو ما لاحظناه، والثاني هو ما اعتقدناه حقّا، ويحتكم ذلك إلى ما نملكه من مقدّمات حول الموضوع))[٥]، ((فالظاهر من بيان العبارة ما كان بغير حاجة إلى توضيح وتفسير))[٦]؛ ولأنّ العقول تختلف في إدراك المعاني الضمنية؛ فتطلّب ذلك الإتيان بالحجج والبراهين، وعليه فالضمني بحاجة إلى تفسير، فالكلمة، أو العبارة تنتقل من معناها الحرفي الحقيقي لتؤدّي المعنى المجازي، او المعنى الاصطلاحي.[٧]

وأشار قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) إلى ظاهرة التلميح في حديثه عن الكناية، وذكرها في باب ((ائتلاف اللفظ بالمعنى)) وهو من أهم عناصر الشعر التي حدّدها،

---

(١) يُنظر: البلاغة تطور وتاريخ:٤٦.

(٢) يُنظر: الحيوان: ٣/١٣١.

(٣) يُنظر: تأويل مشكل القرآن:٢٧٥.

(٤) يُنظر: أثر القرآن في النقد العربي:١٢٤.

(٥) البرهان في وجوه البيان:٤٣.

(٦) م.ن:٤٣.

(٧) يُنظر: التداولية واستراتيجية التواصل:٢١٥.

وأطلق عليها مصطلح (الإرداف).[١] وحدّه بقوله: ((هو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني، فلا يأتي باللّفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدلّ على معنى هو ردفه، وتابع له فإذا دلّ التابع أبان المتبوع))[٢] ولنا هنا أن نتبيّن أمرين: الأول إمكانية المرسِل، وقدرته في الإتيان بغير المعهود، والثاني ينصرف إلى ملكة حسن الاختيار لدى المتلقي.

وقد أشار ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) إلى مسألة التصريح، والتلميح في معرض حديثه عن الفصاحة، والبلاغة إذ يعدّ التصريح فصاحة فهو عنده الظهور والبيان، ومقصور على وصف الألفاظ[٣] وأشار إلى التلميح حينما تحدث عن الكناية بقوله: ((إنّ من حسنها أن يُكنّى عن الشيء في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح))[٤].

ويُعدّ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) من أبرز العلماء الذين تناولوا هذه الظاهرة بالدرس، والتحليل فقرر في نظرية النظم أنّ ما خالف الأصل يستلزم غير الظاهر عاقدا فصلا ((في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره اذ يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية، والمجاز))[٥] وقد ركّز الجرجاني على القيمة الفنّيّة للكناية، إذ يؤكّد على أنّها أبلغ من الإفصاح، والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقفا في القلوب، والأسماع[٦] وقد أشار إلى قضية (التصريح، والتلميح) بشكل واضح حينما ذكر أنّ ((الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد ... وعلى هذا القياس، وضرب آخر أنت لاتصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه

---

(١) يُنظر: التصوير البياني:٣٧٦.

(٢) نقد الشعر:١٥٦.

(٣) يُنظر: سرّ الفصاحة:٥٨.

(٤) م.ن:٢٣٠.

(٥) دلائل الإعجاز:٦٦.

(٦) يُنظر: المختصر في تاريخ البلاغة:١٣٠.

في اللغة، ثمّ نجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر الكناية، والاستعارة، والتمثيل ألا ترى أنّك لو قلت: (كثير رماد القدر) إنّك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرّد اللفظ ولكن يدلّ اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثمّ يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك))[١]، ويؤكّد الجرجاني كلامه إذ يصطلح على هذين الضربين بـ(المعنى، ومعنى المعنى) في قوله: ((نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثمّ يُفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر))[٢] وبدا الأمر واضحا أنّه يتعلّق بالمتلقي عند تأويله للخطاب؛ فعليه أن يسلك السبل الاستدلالية للوصول إلى المعنى المقصود من قبل المرسِل.

وقد عالج السكاكي (ت٦٢٦هـ) فكرة التصريح والتلميح بقوله: ((واعلم أنّ أرباب البلاغة، وأصحاب الصياغة مطبقون على أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة، وأنّ الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأنّ الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر والسبب في أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة))[٣] وقد انماز بحثه بالتركيز على ضوابط انزياح بعض الأفعال اللغوية عن معناها الحقيقي إلى معان أخرى مثل (الاستفهام، والنهي، والنداء، والأمر)، فضلًا على حديثه عن الكناية، والمجاز وعقده بابا للاستدلال بوصفه من متممات علم المعاني.[٤] والجدير بالذكر أنّ مفهوم التصريح والتلميح لم يكن غائبا عن السكاكي فقد أشار إليه تحت مصطلح (الوضوح والخفاء) وذلك في قوله: ((إنّ محاولة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، والنقصان بالدلالات الوضعية غير ممكن ... فإنّك إذا أقمت أمام كلّ كلمة ما يرادفها فالسامع إذا كان عالما بكونها موضوعة لتلك المفهومات كان فهمه منها كفهمه من تلك من غير تفاوت في الوضوح. وإلاّ لم يفهم شيئا أصلا وإنّما يمكن ذلك في الدلالات العقلية مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر، ولثان، ولثالث، فإذا أُريد

(١) دلائل الإعجاز:٢٦٢.

(٢) م.ن:٢٦٣.

(٣) مفتاح العلوم:٢٢٥-٢٢٦.

(٤) يُنظر: الاستدلال عند السكاكي (بحث):٣٠٦.

التوصل منها إلى التعلق به ... ومتى تفاوت الثلاثة في وضوح التعلق، وخفائه صنع عن طريق الوضوح، والخفاء))[١] فالسكاكي يُشير إلى أنّ الألفاظ ربّما تقف عند معناها الحرفي المباشر والصريح، وأحيانا تخرج إلى معان أخرى عقلية استدلالية.

وذهب التفتازاني (ت٧٩٢هـ) في بيان الصريح، والضمني من الكلام بقوله: ((فالمنطوق ما دلّ عليه اللفظ في محل النطق أي يكون حكما للمذكور، وحالا من أحواله ... والأول تصريح وهو ما وُضع اللفظ له، وغير التصريح بخلافه وهو ما يلزم عنه ... أقول المنطوق ينقسم إلى صريح، وغير صريح فالصريح ما وُضع اللفظ له فيدلّ عليه بالمطابقة، أو بالتضمن، وغير الصريح بخلافه وهو ما لم يوضع اللفظ له بل يلزم مما وُضع له فيدلّ عليه بالالتزام))[٢].

ثانيًا: التصريح، والتلميح عند الغربيين:

أمّا في البحث المعاصر فهناك أكثر من نظرية لعدد من الباحثين في هذا الجانب منهم (بول غرايس)، و(سبربير وولسون)، و(براون وليفنسون)، و(سيرل)، وقد أكّد دعاة نظرية الصلة (المناسبة)، – التي تعدّ من أهم النظريات في الفكر اللغوي الحديث – على أنّ الجانب الصريح من التواصل أغنى، وأكثر استدلالية، ومن ثَمّ فهو أجدر بالبحث، والاستقصاء الفعليّاتي مما يراه أغلب علماء الفعليّات في التاريخ الغرايسي.[٣]

وضع (غرايس) ابتداءً من عام (١٩٥٧) تقابلا بين القول الصريح، والضمني إذ يشير إلى أنّ القول الصريح هو قول شيء ما والضمني هو جعل (المتلقي) يعتقد شيئا ما.[٤] ولكنّ الجدير بالإشارة هنا إنّنا كيف نجعل المتلقي يفكّر في شيء غير مصرّح به ولكنّه موجود في فضاءٍ ما من المنطوق.[٥] وعليه فقد ركّز (غرايس)

---

(١) مفتاح العلوم: ٩١.

(٢) حاشية التفتازاني على شرح عضد الدين الأيجي لمختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب: ١٧١/٢.

(٣) يُنظر: نظرية التلويح الحواري:١٧١.

(٤) يُنظر: التداولية واستراتيجية التواصل:٢٢٥.

(٥) يُنظر: م.ن، والصفحة نفسها.

عمله على صياغة القواعد المنطقية لمعرفة القصد وذلك بالاستلزام الذي ينتج عن اتّباع هذه القواعد، أو مخالفتها، ومبدأ (التعاون) هو الكفيل بتحديدها.[١]

مؤكّدا في الوقت نفسه على وجود أنواع أخرى من القواعد (جمالية، أو اجتماعية، أو أخلاقية) نحو (كن مؤدّبا)، وهي قواعد يحترمها المتحاورون، وبإمكانها أن تولّد استلزامات غير وضعية.[٢]

وركّز (براون وليفنسون) على مجموعة من الاستراتيجيات ومنها التلميحية، وينتج عنها أكثر من قصد لا لبس فيها، ولا غموض؛ ولذلك لن يكون الباث ملزما بأحد هذه المقاصد.[٣]

وفي حديثه عن مبدأ التأدّب أخذ (جيفري ليتش) بعين الاعتبار أبعاد التواصل الاجتماعية، والنفسية فـ(غرايس) في إقراره مبدأ التعاون لم ينطلق في تقدير (ليتش) من الاستعمال اللغوي الحيّ، بل عكس ما ساد عند المناطقة من اهتمام بالحقيقة، والتقرير، والتركيز على المعنى القضوي في الجمل التقريرية في ضوء مقولة الصدق، والكذب.[٤]

كما ميّز(سيرل) بين ما أسماه الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة، أو الحرفية وغير الحرفية، فالأفعال الإنجازية المباشرة عنده هي التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم فيكون ما ينطقه مطابقا مطابقة تامة، وحرفية لما يريد أن يقوله، أمّا الأفعال غير المباشرة فهي التي تخالف في قوتها الإنجازية مراد المتكلم[٥].

وذهب (تودوروف) إلى الربط بين الصريح والضمني، والقول بتعلق أحدهما بالآخر إذ لا يمكن فهم أي ملفوظ من دون العودة إلى العالم الحقيقي، أو ما يخفيه المتكلم وأول من دعا إلى هذا الأمر هم القصديون (Les intentionnalistes)[٦].

---

(١) يُنظر: المنطق والمحادثة (بحث):٦٢٠.

(٢) يُنظر: م.ن، والصفحة نفسها.

(٣) يُنظر: م.ن:٣٧٧.

(٤) يُنظر: نظرية التأدّب في اللسانيات التداولية (بحث):١٢٤.

(٥) يُنظر: أفعال الكلام في قصة كليم الرحمن موسى (ع)(بحث):١٢٢.

(٦) يُنظر: التداولية واستراتيجية التواصل:٢١٧.

يقول (تودوروف) ((أمّا القصديون فهم يدعون أنّه من المحال أن يُعرف على وجه اليقين مفهوم ما إن لم ترجع إلى ما يكّنيه، وما ينويه المتكلمون من مقاصد معقّدة موجهة نحو مستمعيهم))[١] فالمحتويات الضمنية تحتل مكانة هامة في الأقوال، وتقوم بدور حاسم في عمل الآلية التفاعلية، ولا يتم هذا الاّ بالعودة إلى بعض المعلومات الخاصة بالوضع اللغوي أي المتعلقة بالكفاية اللغوية، فضلًا على الكفاية المعرفية، (الكفاية التداولية، والبلاغية) وعمل قوانين التخاطب، مع الاستعانة ببعض الآليات الخاصة بالمنطق الطبيعي (الكفاية المنطقية).[٢]

ولم تجد (أوركيوني) اختلافا بين الصريح والضمني؛ ففي رأيها أنّ المحتويات الضمنية أيضا مصرّح بها، والأقوال الصريحة تتطابق مع الهدف الأساسيّ للرسالة التي نرغب في إيصالها.[٣] في حين يرى (فان دايك) أنّنا لا نتكلم بطريقة مباشرة أبدا ((إنّ لغة التخاطب الطبيعي ليست صريحة؛ وذلك أنّه توجد قضايا لا يقع التعبير عنها تعبيرا مباشرا))[٤].

ثالثًا: التصريح والتلميح عند العرب المحدثين :

ولم يختلف رأي الباحثين العرب المحدثين عمّا سبق فقد ذهبت (ذهبية حمو الحاج) إلى أنّ الخطاب مستويان: المستوى الظاهري، والمستوى الباطني فإذا كان المتلقي لا يستطيع أن يطّلع من عالم معارف المرسِل الاّ على ما يرد على لسان الأخير فإنّ قسما كبيرا مما موجود في ذهن المرسِل يبقى مجهولا لدى المتلقي، فيبقى غير فعّال على تفكيره بينما هو عند المرسِل جزء من كلّ تتدرج فيه بقية الأجزاء، وينسجم معها عند جريان التفكير لديه.[٥] فيبدأ المتلقي بالتساؤل – وعدم الاكتفاء

---

(١) المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث:٧٩.

(٢) يُنظر: التداولية واستراتيجية التواصل:٢٢٣.

(٣) يُنظر: م.ن:٢٢٦.

(٤) النص والسياق:١٥٦.

(٥) يُنظر: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب:١٩٥.

بمظاهر الكلمات عند التعامل مع الآخرين – عن مقصد هذه الكلمة، أو تلك. معتمدا في ذلك على حدسه، وقصدية المتكلم في التأويل، وفكّ الرموز.[١]

وذكر (العيّاشي أدراوي) أنّ لصورة الخطاب أكثر من قوة إنجازية طبقا لمقتضى السياق، وأنّ التأويل الدلالي للعبارات أمر متعذر إذا نُظر فيه فقط إلى الشكل الظاهري لهذه العبارات؛ فالأمر يتطلّب تأويلاً دلاليًا آخر، ومن ثَمّ يتم الانتقال من المعنى الصريح إلى معنًى آخر غير مصرَّح به (معنى مستلزم حواريًا).[٢] فيكون للخطاب صورتان: الأولى أصلية قارّة في القواعد المضبوطة، والثانية متغيرة تبعًا لتغير ظروف الاستعمال لا يُمكن أن تُقنّن إلاّ بحسب الظرف الاستعمالي للمتكلم، والمستمع، والمقام.[٣]

فالصورة الأولى تتمثل بـ(الاستراتيجية التصريحية)، التي يتوخاها المرسِل ليدلّ على قصده، أو يُنجز بها فعله اللغوي من خلال دلالتها الحرفية، ويلجأ المرسِل إليها عندما يولي عنايته لتبليغ قصده، وتحقيق هدفه الخطابي كأن يكلف المتلقي بعمل ما، أو يوجهه لمصلحته من جهة، وإبعاده عن الضرر من جهة أخرى فيصرّح بقصده، ويرفقه بحجة، أو حجج تدعمه، وتشرّعه، ويكشف مقاصده سالكا مسلك المباشرة، والوضوح فيدفع عن المتلقي الحيرة، ولا يدع له فرصة التأويل، أو التخلص من مضمون الرسالة الكلامية؛ فالخطط التي يستعملها المتكلم لبلوغ مقاصده تظهر على شكل أنساق تسيّر الخطاب نحو بلوغ تلك المقاصد.[٤]

وإنّ القوة الإنجازية الحرفية ملازمة للعبارة اللغوية في مختلف المقامات التي يمكن أن ترد فيها.[٥] أمّا الصورة الثانية فقد تمثّلت بـ(الاستراتيجية التلميحية) التي سنأتي عليها في المبحث الثاني إن شاء الله.

---

(١) يُنظر: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب:١٩٥.

(٢) يُنظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني:١٨.

(٣) يُنظر: م.ن: والصفحة نفسها.

(٤) يُنظر: قصدية الخطاب في البيان والتبيين(ماجستير):١١٦.

(٥) يُنظر: آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي:٢١-٢٣.

رابعًا: خرق قواعد التخاطب:

حدّد (غرايس) أربعة من القواعد ينهض عليها مبدأ التعاون، أو التواصل الخطابي بين كل من المرسِل، والمستقبِل، وتحت كل مبدأ مجموعة من القواعد[١] ومن ثَمّ قال بأنّ خرق هذه القواعد، أو واحدة منها يجعل التعبير يبدو بليغًا، وجميلًا أي يخرج من التواصلية النفعية إلى الجمالية الأدبية.[٢]

وهذا الخرق أو الاستخفاف يعدّ من حالات عدم التقيّد المقصود وبشكل صريح، وعلني؛ من أجل توليد تلميح متعمّد للمستمع وليس من أجل خداعه، أو تضليله.[٣]

ويتم هذا مع بقاء احترام (مبدأ التعاون) العام؛ لأنّ المتكلم إذا لم يتقيّد بقواعد الخطاب احتاج المتلقي في الأقل إلى تقدير مبدأ التعاون؛ حتى يُتوصَّل عِبر استدلالات متتابعة إلى القصد الذي يريد المتكلم إيصاله.[٤] فينتج عن التقيّد بهذه القواعد ما يسمّى عند المحدثين بـ(الدلالة الطبيعية)، ودلالة المنطوق عند القدماء، أمّا خرقها، أو الاستخفاف بها فينتج عنه ما يسمّى بالدلالة غير الطبيعية بحسب ما ذهب إليه المحدثون، ودلالة المفهوم عند القدماء.[٥]

---

(١) يُنظر: الصفحة:٢٠ من البحث.

(٢) يُنظر: نظرية التلويح الحواري:٣٣.

(٣) يُنظر: م.ن: والصفحة نفسها.

(٤) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني:١٥٢.

(٥) يُنظر: الاستلزام الحواري في كتاب إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول للشوكاني (ماجستير):١٨

المبحث الثاني: (الاستراتيجية التلميحية)

أولًا: تعريفها:

لاشكّ أنّ التلميح يمثّل المعنى الخيالي المرتبط بالإدراك الحسّي، أو الوجداني فهو الذي يجعل الذهن يبحث عن المستتر وراء الصورة الظاهرة، فالمتكلم يمكنه مخالفة الواقع، ويمكنه أن ينقل للمستمع معنى خاصّا يدور في ذهنه. ولكن إذا انحرف عن الواقع من دون أن يقصد إلى معنى معين بهذا الانحراف، فذلك خطأ ينبغي أن يُحاسب عليه.(١)

فالاستراتيجية التلميحية هي استراتيجية تعبيرية غير مباشرة تُفعّل التعاون، والثقة مع المخاطَب، ويعتمد المتكلم في انتاج خطابه على توظيف ما لدى السامع من معرفة بالعالم بحيث يُؤوّل الخطاب التأويل المناسب للسياق.(٢) وقد ذكر الدكتور (أحمد المتوكل) في حديثه عن القوة الإنجازية في هذه الاستراتيجية قائلا: ((أمّا القوة الإنجازية المستلزمة فهي مربوطة مقاميا بحيث لا يُمكن تولّدها إلاّ في طبقات مقامية معينة فالقوة الإنجازية يُتوصّل إليها عِبر عمليات ذهنية استدلالية))(٣).

ثانيًا: مسوّغاتها:

يُرجّح المتكلّم استعمال الاستراتيجية التلميحية بناءً على مجموعة من المسوّغات يتطلبها السياق وهي على النحو الآتي:

١-التأدّب في الخطاب: ويُعدّ من أهم مسوغات الاستراتيجية التلميحية فقد عدّ التداوليون اللغة أداة للتطبيع الاجتماعي، ولتمتين الروابط بين الأفراد، وكان التفاعل الحاصل بين المتكلمين ساعة التخاطب بُعداً مهما تناوله التداوليون ضمن جملة من المباحث لعلّ من أبرزها (التأدّب) الذي هو مجموعة من الطرائق المتعارف عليها داخل جماعة لغوية يتمثّل دورها في الحفاظ على قدر من الانسجام في عملية التواصل بين المتكلمين.(٤)

---

(١) يُنظر: في البلاغة العربية علم البيان:٧.

(٢) يُنظر: استراتيجيات الخطاب:٣٦٩.

(٣) آفاق جديدة في النحو الوظيفي:٢١.

(٤) يُنظر: نظرية التأدّب في اللسانيات التداولية:١١٤.

٢-استعانة المخاطب بالضمني كأن يهدف إلى تمرير خطابه إلى المتلقي كحيلة لبلوغ الغايات المنشودة.

٣-اجتناب الشرح لغايات معينة تخص المقام، أو لطبيعة العلاقة التي تربط المخاطب بالمتلقي، والتواصل قد يصبح متعذرا في حال عدم افتراض أنّ المتلقي قد اكتسب عددا من الأخبار، والمعلومات.(١)

٤-توليد الصور البيانية.(٢)

٥-الاستغناء عن نتائج عدد من الخطابات، والاكتفاء بإنتاج خطاب واحد.

٦-رغبة المخاطِب في التخفي وراء المعنى الجانبي حتى لا يكون مسؤولا فيما يعتقده المتلقي متسببا في ضرر لنفسه.(٣)

ثالثًا: الاستراتيجية التلميحية عند أبي حيّان التوحيدي:

-وسائل الاستراتيجية التلميحية:

١-التلميح بالكناية:

عرّف الشيخ عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) (الكناية) بقوله: ((المراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه، وردفه في الوجود فيومئ إليه، ويجعله دليلا عليه))(٤).

وحدّها السكاكي (ت٦٢٦هـ) بقوله: ((ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول (فلان طويل النجاد) لينتقل إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة))(٥).

---

(١) يُنظر: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب:١٩٦.

(٢) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني:١٥٠.

(٣) يُنظر: الاستراتيجية التلميحية في الخطاب القرآني (بحث):٥.

(٤) دلائل الإعجاز:٤٣٠.

(٥) مفتاح العلوم:٥١٢.

ويبدو من هذين التعريفين أنّ المرسِل الذي يستعمل (الكناية) يُفسَّر كلامه على معنيين هما: المعنى الظاهري الحرفي الذي يتجلّى في ظاهرة الصياغة، والمعنى المتضمن، أو الخفي وهو مقصود المرسِل الذي يكون أكثر فعالية، وقوة

ف((ترك التصريح بالشيء يُكسب الكلام كثافة، وغموضا يشدّ المتلقي، ويبعث على التأمّل، والتفكّر، فالنص الأدبي يتميز بكثافة الإيحاء، وتقلّص التصريح)).[١]

وقد وظّف أبو حيّان هذا الأسلوب البياني في خطابه حين أورد صورا كنائية أراد التلميح بها وكانت إمّا كناية عن صفة، أو كناية عن موصوف، أمّا الكناية عن الصفة فقد جاءت في قوله: **((أيّها الشيخ وصل الله قولك بالصواب ... وعرّفك عواقب الإحسان المستحق، وغير المستحق حتى تكْلَفَ ببثّ الجميل، وتشغف بنشر الأيادي))**[٢].

وقوله: **((وابن المراغي يقول كثيرا وهو شيخ من جلّة العلماء، وله سهم وافٍ في زمرة البلغاء))**.[٣] ففي النص الأول كانت الكناية في قوله (نشر الأيادي) وهي كناية عن صفة عبّر بها المرسِل؛ ليومئ إلى كرم مخاطبه، وجوده.

أمّا الكناية في النص الثاني فهي في قوله (وله سهم وافٍ) إذ عبّر بهذه الكناية عنما امتاز به مخاطبُه من قدرة بلاغية عميقة.

وبملاحظة هذين المثالين نجد أنّ أبا حيّان – في خطابه – لم يستعمل اللفظ الدال دلالة مباشرة على المعنى، بل جاء بلفظ دال على معنى خفيّ، وهنا يتبيّن جهدُ أبي حيّان وما يمتلكه من ملكة حسن اختيار الدال المستعاض به عمّا ألف، وما يحمله هذا الدال من كثافة في المعنى فقوله (نشر الأيادي) فيه من حسن الدلالة على المراد – وهو الكرم، والجود – الشيء الكثير، وكذلك في قوله: (وله سهم وافٍ) في تلميحه لقدرة المخاطَب البلاغية، وتمكّنه من أدواته اللغوية فدلّ تعبيره في الحالين على تمام المعنى بحيث يصل إلى القلب غيرَ منقوص. فضلًا على أنّ هذا التلميح بالمعنى المقصود من قبل المتكلم يؤدّي بدوره إلى بسط المعنى في نفس

---

(١) النقد والحداثة:٤٠.

(٢) الإمتاع والمؤانسة:٣٢٥.

(٣) م.ن:٣١٠.

المتلقي فينمو بالتأمّل، والمراجعة، والتفكّر، والتذوق، وهذا ما يحققه حسن اختيار الدال غير المباشر مادةً، وصيغةً، وعلاقةً بعناصر الخطاب النظمية، والمقامية.

أمّا الصورة الثانية من الكناية فهي الكناية عن الموصوف فقد جاءت في مثل قوله: **((ولا يؤخذ من يديه صوفيٌّ يطلب منّا ولا نطلب منه، دبدبة من دبادب العيد))**[١].

وقوله: **((يا تجار الآخرة: أبشروا بالأرباح الفاخرة يا مساكين الدنيا أبشروا عند المولى بالغنى، والمنى، يا قوّام الليل بالأسحار: أبشروا عند الله بمقامات الأبرار، يا صوّام النهار في الهواجر الواقدة: أبشروا عند الله بالرضا، والكرامة، والعاقبة أيّها المستجيبين لله في هذه الأحوال الصعبة، أبشروا من الله بكلّ رغبة ليس معها رهبة))**.[٢] فقد كنّى في النص الأول (دبدبة من دبادب العيد) وهي كناية بغدادية مازالت مستعملة عن الجاهل البليد ففي هذه العبارة المختصرة استطاع أبو حيّان أن يلمّح عن موصوفه وهو في معرض توجيه النقد، والاستهجان فقد أومأ إلى قصده من غير تصريح وهو التقليل من شأنه.

وفي النص الثاني وظّف الكناية ليلمّح بها إلى دلالة أخرى وذلك في قوله: (يا تجار الآخرة ... يا مساكين ... يا ...) فاستعمال أبي حيّان أسلوب الكناية عن الموصوف وهو يريد (المؤمنين) فأطلق عليهم ألفاظا متعددة تحمل طاقةً إبلاغية كبيرة تقوم على الإيجاز، والتلميح فضلًا على تأثيرها في المتلقي فنّيا، ووجدانيا، ولفت انتباهه من خلال التحول بين المعنى المباشر، والمعنى اللاّزم أو الخفي التلميحي لهذا المعنى.

---

(١) الرسالة البغدادية:٦٤.

(٢) الإشارات الإلهية:٨٣-٨٤.

٢-التلميح بالاستعارة:

الاستعارة هي: ((تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه))[١]، وحين يُنقل اللفظ عمّا وُضع له في أصل اللغة على سبيل الإعارة لا النقل النهائي فإنّما يكون ذلك داخلا في الفن الاستعاري.[٢] والاستعارة تشبيه مختصر لكنّها أبلغ منه.[٣]

ويظهر الجانب التداولي في الاستعارة بما يشترك به طرفا الخطاب من معلومات مشتركة، فضلًا على تخصيص قرينة تجعل المتلقي يصدّق المتكلم، وتساعده في الوصول إلى قصده، وتمنع إجراء الكلام على ظاهره أي فهمه بمعناه الحرفي، وهذا دليل على أنّ المتكلم صادق في دعواه[٤] فيكون التحول من المعنى الحرفي إلى المعنى المضمّن هو قصد المتكلّم من الاستعارة ولعلّ ضبط الجانب الاستعاري على مستوى البنيات في ظل المنظور المعرفي أمر يحتاج للمعنى والتركيز، والتدقيق؛ لأنّها لا تبدو أنّها تتعلق بتصورات استعارية في الوهلة الأولى[٥] وعليه فإنّ الاستعارة ليست مجرّد تزويق لفظي للخطاب، بل لها أكثر من قيمة انفعالية؛ كونها تعطينا معلومات جديدة، وبعبارة وجيزة تخبرنا الاستعارة شيئا جديدا عن الواقع[٦] ولطف الاستعارة يكمن في أنّها تجعلنا نتعرف على مشابهة ما بين أشياء مختلفة [٧] ومن الاستعارات التي وردت عند أبي حيّان قوله: ((**فيجب على الحصيف، والمميّز أن يعلم بأنّ العالِم أشرف في سنخه**[٨] **وعنصره ... من ذي المال؛ لإنّك لا ترى عالما سُرق علمه وتُرك فقيرا منه وقد رأيت جماعة سُرقت أموالهم ونُهبت، وأُخذت وبقي أصحابها محتاجين لا حيلة لهم، والعلم يزكو على**

---

(١) البيان والتبيين:١/١٥٢.

(٢) يُنظر: جواهر البلاغة:٣٠٣.

(٣) يُنظر: اللغة والبلاغة:١٦١.

(٤) يُنظر: مفتاح العلوم:٤٨١.

(٥) يُنظر: بنيات المشابهة في اللغة العربية:٦٤.

(٦) يُنظر: نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى:٩٤.

(٧) يُنظر: السيميائية وفلسفة اللغة:٢٥٥.

(٨) أصله.

الإنفاق، ويصحب صاحبَه على الإمْلاق، ويهدي إلى القناعة ويُسبِل الستر على الفاقة، وما هكذا المال)).[١] وقوله:

((أما ترى أنياب الرزايا بارزة متتابعة؟)).[٢] فالاستعارة في النص الأول في قوله: (ويُسبِل الستر على الفاقة) فصور العلم إنسانا يستر صاحبه من الفقر فهذا التركيب التلميحي لأبي حيّان يُظهر القدرة على التصرف، وتصوير المعاني التي بوساطتها يتم الإفصاح عن أحاسيسه وهو ينقل اللفظة من موضعها الأصلي إلى موضع آخر غيره لعلاقة بين المعنيين حتى تصبح تلك اللفظة من الدلائل عليه ومن لوازم معناه.

أمّا في النص الثاني فقد استعار الأنياب للرزايا مصورا إيّاها كائنا مفترسا زيادة في التهويل، والتخويف لأجل التأثير في المتلقي.

فالتوحيدي هنا يجسّد المدركات العقلية التي تتطلب من المتلقي إعمال ذهن وتأويل بمدركات حسية فيتم نقل المعنى الظاهر إلى المعنى الضمني وبذلك يفهم المتلقي أنّ القصد من قول هذه العبارة هو توضيح المعنى الذهني، وتجسيده في صورة حسية مدركة بالمبالغة في التشبيه، وهذا يوضّح الجانب التداولي في الاستعارة، وتأثيره على المتلقي.

٣-التلميح بالتشبيه:

التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى.[٣] ويُعدّ من الأساليب البيانية المرتكزة على المقابلة بقصد الإبانة، والتوضيح؛ لإيصال الغرض بطريقة تعتمد الإشارة، والتلميح عن الصورة القريبة للذهن، والمناسِبة مع قصد المرسِل من جهة عقد النسب المنطقية، وإثبات وجه من وجوه المدرَك بحيث يلتقيان في جامع معنويّ واحد يكون أقوى في المشبّه به[٤]. ويتجسّد الجانب التداولي للتشبيه بعدم التصريح بوجه الشبه بين طرفي التشبيه فيبقى تلميحا.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة:٢٣٥.

(٢) الإشارات الإلهية:٦٠.

(٣) يُنظر: علوم البلاغة:٢١٣.

(٤) يُنظر: الأساليب البلاغية في حماسة البحتري (ماجستير):١٤٣.

ومن التشبيهات التي استعملها أبو حيّان في خطاباته قوله: ((**وتُبرِز معصما كأنّه نجم يلوح، وكفّا كالجمّار، أو سبيكة الفضّة، وتتناول عودا من عود، أو ساج منقوش بالعاج في خريطة ديباج، وتجسّ أوتاره بأنامل كأنّها مساويك إسحل**[١] **مطرَّفة بالعنّاب**))[٢].

وقوله:

يا مجمع الحسن، يا بغداد، يا بلدي مالصبر عنكِ وعمّن فيك بالحسن

من كلّ غانيةٍ كالبدر يفتِنُني صوتٌ لها، والغواني معدن الفتن

فقد لمّح أبو حيّان إلى قصده المستلزم من الخطاب، وهو الجامع بين المشبّه، والمشبّه به بين المعصم، والنّجم، وبين الكفّ، والجمّار وهو البياض والجمال، وبين الأنامل، والمساويك، وهو البياض، والاعتدال، وبين الغانية، والبدر وهو جمال الوجه، ووضوح الجبين، إذ اختار آلية التشبيه عِبر سبل استدلالية متعددة وهي معرفة السمات الدلالية لكلّ مفردة في خزينه الذهني ومن ثّمّ مقابلة كلّ مفردة بالأخرى وأسقاط جميع السمات عليها؛ ((فعلاقة المشابهة، والمماثلة تفترض أن يكون هناك شيئان: أصل، وفرع ولضبط العلاقة بينهما يُحلّل الأصل إلى مكوناته، أو مقوّماته وصفاته الذاتيّة، والعرضية فيختار بعضاً منها لإسقاطه على الفرع على إنّ ما يسقط يجب أن يكون جامعاً متّفقاً عليه بأنّه وصفٌ منضبط)).[٣]

التلميح بالتّهكّم:

هو الاستهزاء بالمخاطَب، مأخوذ من (تهكّمت البئر إذا تهدّمت) أي يتهدّم عليك من الغيظ، والحُمق.[٤]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ الدخان: ٤٩

على سبيل الهزؤ، والتهكّم بمن كان يتعزّز، ويتكرّم على قومه.[٥]

---

(١) شجر تُتّخذ منه المساويك. يُنظر: لسان العرب: ١٩٥٩/٢٢ مادة (سحل).

(٢) الرسالة البغدادية:٢٠٢.

(٣) مفتاح العلوم:٣٦٩.

(٤) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ٢٣١/٢، و لسان العرب: ٤٦٨١/٥١ ماد (هكم).

(٥) يُنظر: الكشاف:١٠٠٣، وتفسير ابن كثير:١٢/ ٣٥٢.

والتهكّم من أبرز العوامل التي تؤدي إلى التداخل الدلالي الذي يُعطي للّفظ معنى الضدّ.[١] يعمد المتكلّم أحيانا إلى توظيف تقنية التهكّم؛ كونها إحدى آليات الاستراتيجية التلميحية وهي تستلزم قصدًا غير ما يدلّ عليه الخطاب بمعناه الحرفي، وهي تعني عند علماء البيان ((إخراج الكلام إلى ضدّ مقتضى الحال استهزاءً بالمخاطَب))[٢] ويرد التهكّم على أوجه منها: إيراده على جهة الوعيد بلفظ الوعد، وإيراد صفات المدح والمراد بها الذّمّ[٣]، أو إخراج صفة المدح لا على مخرج الاستحقاق، بل على مخرج التهكّم على الرغم من أنّ المخاطَب يستحق المدح؛ فالقصد هو الضدّ تماماً.[٤]

وما ورد عند أبي حيّان هو ذكر صفات المدح قاصدًا بها الذّمّ منها قوله: **((ثمّ يقول ولِمَ هو في الصدر أعزّه الله إصعد يا سيدنا إلى أسفل، وردّه إلى منصبه إلى صفّ...))**[٥].

وقوله: **((واعلم أنّك إن كنتَ تريد الاعتذار فقد أسلفتُ الواضح فيه، وأن كنتَ تطلب الاحتجاج فقد أتى البيان عليه، وإن كنتَ تغضب لابن عبّاد، أو لابن العميد فقد شحنتُ هذا الكتاب من فضلهما، وأدبهما، وكرمهما، ومجدهما بما إذا ميّزته، وأفردته، ثمّ اجتليته، وأبصرته واقع نفسَك، وشفى غليلك، وبلغ آخر مرادك، والاّ فعرّفني مَنْ جَمَعَ إلى هذا الوقت عشر ورقات في مناقبهما، وآدابهما، ومكارمهما، وما ينطق عن اتساعهما، وقدرتهما، ويدعو إلى تعظيمهما، وتوفية حقوقهما، ومعرفة أقدارهما ممّن لهما عليه الإصبع الحسنة واليد الخضراء، والنعمة السابغة، ومن لم يُذكر الاّ بهما ومن لم يُعرف إلاّ في أيّامهما، ومن لو لم يلتفت إليه واحد منهما لكان يحرس الدرون، أو يلتقط النوى في الشوارع))**[٦].

---

(١) يُنظر: كتاب الطراز:٤٧٦.

(٢) م.ن، والصفحة نفسها.

(٣) يُنظر: م.ن:٤٧٧.

(٤) يُنظر: قصدية الخطاب في البيان والتبيين للجاحظ (ماجستير):١٥٧.

(٥) الرسالة البغدادية:٧٥.

(٦) أخلاق الوزيرين:٥٤٨.

ففي الخطاب الأول وجّه أبو حيّان كلامه – متهكما بقوله: (أعزه الله) – إلى شخص كان يجلس في صدر المجلس، وهذا يستلزم قصدا غير ما يدلّ عليه الخطاب بمعناه الحرفي، بل الضدّ منه ولعلّ سياق الكلام خير ما يدلّ على ذلك فهو يطلب منه عدم الجلوس في مقدمة المجلس وهو طلب يتناقض مع قوله (أعزّه الله).

أمّا الخطاب الثاني: ففيه أكثر من موضع تهكّمي ابتداءً بقوله: (شحنت هذا الكتاب من فضلهما ... وانتهاءً بقوله: ومن لو لم يلتفت إليه واحد منهما ...) فقد وظّف المرسِل آلية التهكّم بإيراد صفات المدح والمقصود بها الذّمّ وبهذا التضاد فإنّه يبادل بين المعنى الحرفي، والمعنى المستلزم الذي يلوّح به في ثنايا الخطاب.

إنّ الاستعمال التهكّمي للملفوظ يُفضي إلى اللجوء إلى المعنى المضاد تماما، وهذا ما ذهب إليه كلٌّ من (سبيربر وولسون) في معالجتهما لظاهرة التهكّم فلم يُدخلاه ضمن دائرة المجاز؛ لتعدد المعاني المجازية للملفوظ الواحد، بينما التهكّم لا يتولّد منه إلاّ قصدٌ مضادٌّ واحد، وهو معنى بديل لا زائد.(١)

ولإماطة الغموض، ومعرفة المعنى المقصود لابدّ من معرفة الظروف المحيطة بالخطاب؛ فلها التأثير المباشر في المحتوى القضوي للخطاب إذ لابد لكلّ منتج خطاب من قصد يريد المرسِل إيصاله إلى المتلقي، ومعرفة ما يحيط بهذا المنتج من ظروف يُفضي بنا إلى معرفة الدلالة الضمنية للخطاب فمعرفة ما كان يعانيه أبو حيّان من حرمان، وسوء معاملة من قبل هذين الوزيرين يُثبت لنا أنّ صفات المدح التي أضفاها أبو حيّان عليهما لم تكن إلاّ تهكّمًا، واستهزاءً ولاسيما إذا ما علمنا أنّه اختار للتعبير عن مضمون هذه الرسالة (أخلاق الوزيرين) في حين أنّها ضمت مثالبهما فهو تهكّم واضح، وعليه فإنّ عدم معرفة الظروف المحيطة بالخطاب، وبالمناسبة التي قيل فيها في مثل هذه الخطابات يصعب معه إدراك الأغراض والمقاصد بين المتخاطبين، ويحملها في أغلب الأحيان إلى غير مقاصدها؛ فالمعنى الحرفي إنّما هو معنى ظاهر، وإنّ عدم وجود الأدوات، والآليات التي

(١) يُنظر: قصدية الخطاب في البيان والتبيين:١٥٨.

يستعملها المرسِل للتعبير عن قصده التهكّمي تُعد عقبةً أمام المتلقي يمكنه أن يتجاوزها بما يمتلكه من كفاية تداولية تمكنه من فهم الخطاب، والتفاعل معه.

٤-الاستلزام:

شكّل المعنى قطب الرحى الذي شغل الدارسين قديما، وحديثا فالمتكلم يعبّر بالمفهوم أحيانا من دون المنطوق - في حدود القصد الاتصالي - للتعبير عن قصده، وقد فرّق الأصوليون بين منطوق الجملة، ومفهومها فالمنطوق هو ما يتبادر إلى ذهن المتلقي بصورة مباشرة، أمّا المفهوم فهو يتطلّب عمليات استدلالية[١] فبرزت ثنائيتان هما: (المنطوق والمفهوم)، و(المخالفة والموافقة).[٢]

أمّا في العصر الحديث فكانت محاولات متعددة في هذا الجانب أبرزها: محاولة (سبيربر وولسون) اللذين اتجها اتجاها جديدا؛ إذ وضعا نظرية مستقلة هي نظرية (الصلة أو المناسبة)، وما جاء به (ستراوسن) الذي أعاد مفهوما قد ظهر عند (غوتولب فريجة) وهو (الافتراض المسبق) ومع هذا فهم لم يخرجوا عما جاء به (غرايس).[٣]، ولأنّ عملية التخاطب تقتضي اشتراك جانبين عاقلين في إلقاء الأقوال، وإتيان الأفعال وجب أنْ تنضبط هذه العملية بقواعد تحدد وجوه فائدتها الإخبارية، والتواصلية وقد حدّد (بول غرايس) هذه القواعد في مقالته الشهيرة (المنطق والمحادثة).[٤] منطلقًا من فكرة أنّ جمل اللغة تدلّ في أغلبها على معانٍ صريحة، وأخرى ضمنية تتحدّد دلالتها داخل السياق الذي وردت فيه.[٥] فضلا على فرضية أساسيّة مفادها أنّ التفاعلات الخطابية تبلغ مقاصدها بـ(التعاون) الواقع بين طرفي الحوار وهنا يتوجّب على المتحاورين الكشف عن مقاصدهم، أو على الأقل التوجه العام لهذه المقاصد وبالمحصلة التمكّن من صياغة (مبدأ التعاون) الذي ينبني عليه

---

(١) يُنظر: علم التخاطب الإسلامي:٦٢-٦٣.

(٢) يُنظر: الدلاليات والتداوليات أشكال وحدود (بحث):٣٠٠.

(٣) يُنظر: نظرية التلويح الحواري:١٦، ويُنظر: التداولية عند العلماء العرب:٣٣.

(٤) يُنظر: المنطق والمحادثة:٦٢٠.

(٥) يُنظر: التداولية عند العلماء العرب:٣٣.

الاستلزام.[١] ولعلّ المحور الذي انطلق منه (غرايس) هو أنّ الناس في حواراتهم يقولون ما يقصدون وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فصبّ تركيزه على توضيح الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد، فالأول هو المعنى المعلن، والثاني هو المعنى المضمّن، والفرق بينهما أنّ الأول هو ما تعنيه الكلمة في قيمتها الظاهرة، وما يُمكن التعبير عنه، وتفسيره بمصطلحات شروط الصدق، أمّا المعنى الثاني فهو الأثر الذي ينوي المتكلم إحداثه في السامع مُعوّلاً في ذلك على قدرة هذا السامع في الوصول إلى ذلك القصد بفضل وسائل الاستنباط وما يتوافر له من معارف بمواضعات الاستعمال.[٢]

والاستلزام عند (غرايس) نوعان: أحدهما عرفي، وهو قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالة بعينها على الرغم من اختلاف السياق الذي ترد فيه، والتركيب أيضاً من ذلك (لكن) التي تستلزم أن يكون ما بعدها مخالفا لما يتوقّعه المتلقي.[٣] والآخر: هو الاستلزام التخاطبي ويكون متغيرا دائما بتغيّر السياقات التي يرد فيها ويعدّ جسرا نعبر عليه من المعاني الأصلية إلى الفرعية.[٤]

لقد كان ما يشغل (غرايس) هو كيف يكون ممكنا أن يقول المتكلّم شيئا ويقصد شيئا آخر؟ ثمّ كيف يكون ممكنا أيضا أن يسمع المتلقي شيئا ويفهم شيئا آخر فجعل عمله مركزا على إيضاح الاختلاف بين ما يقوله المتكلم وما يقصده؛ للتفريق بين ما قيل وما تمّ تبليغه.[٥] فاقترح (غرايس) نظريته التواصلية التي تنص على أنّ التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام هو (مبدأ التعاون) يروم هذا المبدأ تعاون المتكلّم، والمخاطب على تحقيق الهدف المرجو من الخطاب وقد يكون هذا الهدف

---

(١) يُنظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني:٩٩.

(٢) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٣٣.

(٣) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني:١٤٤.

(٤) يُنظر: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج:٢٧.

(٥) يُنظر: التداولية اليوم:٥٣.

محدّدًا قبل دخولهما في عملية التخاطب، أو يحصل تحديده أثناء هذه العملية.[١] ويشتمل هذا المبدأ على قواعد سلوكية، أو قرارات في أربعة مجالات هي: (الصلة، أو المناسبة، والنوعية، والكمية، والأسلوب) يندرج تحت كلّ قاعدة مقولة مخصوصة، وبحسب (غرايس) فإنّ الأهمية اللغوية لهذه القواعد ترجِع إلى أنّها تسمح باستدلالات تتجاوز المحتوى الدلالي الحرفي؛ فخصّها بـ(الاستلزام الحواري) تمييزًا لها عن الاستدلالات المبنية على مضمون اللفظة الحرفي فالاستلزام التحاوري فضلا على اعتماده على المضمون فهو يؤكّد مطالب معينة تتعلق بطبيعة التخاطب القائمة أساسًا على مبدأ التعاون.[٢]

-موقف المتكلمين من قواعد التخاطب وتأثير ذلك على الاستلزام:

يقف المتحاورون من هذه القواعد موقفين متباينين فقد يطيعها المتكلّم، ويتقيّد بها بشكل صريح إلى حدّ ما تاركا للمتلقي مهمّة توسيع، وإبراز ما قيل باللجوء إلى استدلالات مباشرة انطلاقا من مراعاة المتكلم للقواعد وهو ما يمكن أن نسميه بـ(الاستلزام المعمّم).[٣] وقد يستخف المتكلم بهذه القواعد، ويستغلها (flouting and exploting) عند قصده فيؤدي ذلك إلى استلزام مخصص، أو خارق[٤] وسواء أكان الاستلزام معمّمًا، أم مخصّصًا فسياق الكلام، واستدلالات المتلقي، وتأويله لما يستمع إليه هما من المحدّدات الأساسيّة في توجيه الفهم، وتحديد المعنى المقصود من دون غيره.[٥]

أ-الاستلزام النموذجي (المعمّم):

يرى (غرايس) أنّ الكلام متى ما بدا متماسكًا بشكلٍ عام فهذا راجع حتى مرحلة معيّنة في أقل تقدير إلى حصيلة جهود تعاون، فضلا على ذلك أنّ الغاية المنشودة منه تكمن في أن نضع نصب أعيننا هدف التوصّل إلى فعاليّة قصوى في

---

(١) يُنظر: السيميائية والتداولية (بحث):٢٠٥.

(٢) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني:١٤٨.

(٣) يُنظر: نظرية التلويح الحواري:٣١.

(٤) يُنظر: المعنى المضمر في الخطاب اللغوي العربي:٥٠٢.

(٥) يُنظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني:١١٣.

تبادل المعلومات.[١] فالقواعد التخاطبية التي ترعى التصرّفات الخطابية التي ينتهجها الأشخاص في خطاباتهم ما هي إلاّ تبعة مميّزاتهم النفسية الجوهرية فينشأ مبدأ التعاون بينهم؛ كونهم أشخاص يتمتعون بالإدراك لذلك ينبغي تصوّره بوصفه تطبيقاً لمبدأ عقلانيّة السلوكيات البشرية.[٢]

والجدير بالإشارة هنا أنّ العديد من الباحثين في النظرية التواصلية عبّروا عن فكرة (التعاون) ومنهم (غوردون، ولاكوف) اللذان تحدّثا عن (شروط صوابية التفكير)، و(غوفمان) الّذي أكّد أنّ الفرد يتصرّف غالبًا على نحو من شأنه أن يُفضي إلى أنّ طبعه سليم، وكفايته عاقلة.[٣] على أنّ آخرين ومنهم (غورنيغ) ذهبوا إلى أنّ هذا النموذج التعاوني لا يتجاوز كونه خيالًا مثاليًا، ومسكّنا يجود بالنزاعات، والمواجهات، والمحبّطات التي تميّز التبادلات الكلامية إلاّ أنّ هذا الرأي لم يلقَ القبول؛ فحتى التجادل يعني أيضاً تبادل آراء الآخرين، ومشاركتهم عدداً من القيم، والقواعد اللّغوية، والتحادثية.[٤]

وقد ذهب بعض الباحثين إلى حصر الاستلزام الحواري بالاستخفاف بأحد قواعد التخاطب، واستغلالها مع الاستمرار في تطبيق القواعد الأخرى.[٥] فالغاية من التقيّد بالقواعد التي حدّدها (غرايس) هي ضبط عملية التخاطب وكلّ خروج عن إحدى هذه القواعد الفرعية مع احترام المبدأ العام يهدف إلى اشتقاق دلالات جديدة كامنة وراء المحتوى الدلالي للعبارات اللغوية.[٦] في حين يرى آخرون أنّ الاستلزام التخاطبي يتحقق حتى مع التقيّد، وإطاعة القواعد المتفرعة عن مبدأ التعاون؛ فالمتكلّم

---

(١) يُنظر: المنطق والمحادثة:٦٢٠.

(٢) يُنظر: المضمر:٣٤٧.

(٣) يُنظر: م.ن، والصفحة نفسها.

(٤) يُنظر: م.ن:٣٤٩.

(٥) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني:١٥٦.

(٦) يُنظر: الدلالات الاستلزامية في اللغة العربية والقواعد التخاطبية (بحث):٥٧.

يُراعي القواعد والحِكم بشكل صريح إلى حدّ ما تاركًا للمخاطَب مَهمّة توسيع، وتظهير ما قيل باللّجوء إلى استدلالات مباشرة.(١)

ولعلّ الذي دعا من ذهب إلى حصر الاستلزام بخرق القواعد؛ هو أنّ الاستلزام الخارق يتطلّب سياقًا خاصًّا ومحدّدًا، واستدلالات معقّدة لكي يتمّ التوصل إليه؛ كونه يتعلّق بالمناسبة على العكس من (النموذجي) الذي لا يحتاج مثل هذا السياق الخاص ويُمكن أن نلاحظ قول أبي حيّان:

((حدّثني شخصٌ في بغداد))(٢)

فهذا المثال لا يتطلّب سياقًا خاصًّا، أو استدلالًا معقّدًا حتى يُتوصّل إلى ما سيتولّد من هذا التلميح وهو أنّ أبا حيّان ليس له معرفة بهذا الشخص.

وقد ردّ (ليفنسون) على هذا الرأي بقوله: أنّ البعدين، أو المعياريْن المستعملين لتقسيم الاستلزام بهاتين الصورتين يتقاطعان، ويتداخلان فمثلًا أنّ أغلب حالات الاستخفاف المتعمّد بالقواعد، أو استغلالها هي من حالات الاستلزام الخارق؛ وذلك لأنّ التهكّم على سبيل المثال يتطلّب سياقًا خاصًّا، ومعلومات متبادلة تساعد في استبعاد التأويل الحرفي للكلام هذا من جانب ومن جانب آخر أنّ كثيرا من الاستعارات، والمجازات لا ترتبط بالسياق في دلالاتها مع أنّها تلميحات ناتجة عن عدم التقيّد بالقواعد التخاطبية، فضلًا على ذلك أنّ كلّ التلميحات الناتجة من التقيّد بقاعدة الصلة هي من الاستلزام الخارق (المخصّص)؛ كون الكلام لا يكون ذا صلة إلاّ بالنسبة لموضوع، أو قضية محدّدة ضمن سياق محدّد.(٣)

أمّا من ذهب إلى أنّ الاستلزام لا ينتج عن خرق القواعد فحسب كما هو الظاهر، بل ينتج أيضًا عن الالتزام بها فقد عوّل على (مبدأ التعاون) في الحوار؛ فهو على الرغم من مراعاة المتكلّم للقواعد إلاّ أنّه يفترض بعض السمات داخل خطابه ليتصف بالتعاون.(٤) كقول أبي حيّان في الحوار الذي دار بينه وبين الوزير

---

(١) ينظر: الاقتضاء في التداول اللّساني:١٤٨.

(٢) الرسالة البغدادية:٧٠.

(٣) يُنظر: نظرية التلويح الحواري:٣٥.

(٤) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني:١٥١.

أبي الفداء: ((**قال – أدام الله دولته – ليلةً أُحبُّ أن أسمع كلاما في مراتب النظم، والنثر ... وأيّهما أجمع للفائدة ... وأدخل في الصناعة، وأولى بالبراعة**))[١]

((**فكان من الجواب: إنّ الكلامَ على الكلامِ صعبٌ**))[٢] فلابدّ للسائل هنا أن يستدلّ من جواب أبي حيّان أنّه يعلم أنّ الكلام على الكلام يدور على نفسه، ويلتبس بعضُه ببعض؛ ولذلك شقَّ النحو وما أشبه من المنطق.[٣] وإلاّ لما كان متعاونا فهذا الاستلزام (النموذجي) يُستعمل بصرف النظر عن سياق الحوار الذي تمّ فيه تبادل الخطاب.

بيد أنّ المرسِل لا يبني كلامه في عزلة تامّة عن العالم بصفة عامّة، وعن المرسَل إليه بصفة خاصّة، بل على ضوء الفرضيات التي قد بناها مسبقًا عن شخصية المرسَل إليه الاجتماعية، فضلًا على ذلك فإنّ للجانب المتعلّق بالقدرات الفكرية، والاستدلالية أهميته في العملية التواصلية فالمتكلم يبني معانيه، ويسوقها إلى متلقٍ من المفترض أن يمتلك آليات تمكّنه من ادراك ما يتضمنه الكلام من معانٍ غير مباشرة.[٤] ومن الأهميّة بمكان أن نشير إلى أنّ القصد في الاستلزام النموذجي لا يختلف، عن المعنى الحرفي للكلام، ولكن هناك زيادة من جنس الخطاب فالمعنى المستلزم لا يُلغي معنى الخطاب الدلالي.[٥]

وبعد تتبع لخطابات أبي حيّان التوحيديّ نجد أنّه التزم في بعضها التزامًا واضحًا بقواعد التخاطب من ذلك قوله:

((**وقال ليلةً: ما الفرق بين الإرادة، والاختيار؟ فكان من الجواب أنّ كلّ مرادٍ مختار، وليس كلّ مختار مرادًا؛ لأنّ الإنسان يختار شُرب الدواء الكريه وضَرْبَ الولد النجيب وهو لايريد، ويختار طرح متاعه في البحر إذا ألجئ وهو لايريد، وهما**

---

(١) الامتاع والمؤانسة:٢٩٨.

(٢) م.ن، والصفحة نفسها.

(٣) يُنظر: م.ن، والصفحة نفسها.

(٤) يُنظر: طرق التضمين الدلالي والتداولي في اللغة العربية وآليات الاستدلال (أطروحة):٩٨-٩٩.

(٥) يُنظر: م.ن، والصفحة نفسها.

وإن كانا انفعالين فأحدهما – وهو الاختيار – لايحدث إلاّ عن جولان، وتنقير، وتمييز، والآخر – وهو الإرادة – يَفجأ، ويبغت وربّما حَمَل على طلب المراد بالكره الشديد، وفي عُرض الاختيار سَعَة للتمكّن، وليس ذلك في عُرض الإرادة))[1] وقوله:

((البلاغة: أن يُصيبَ الناطق بالطبع الجيّد، أو الصناعة المجتلبة، أو بهما، وإن ساء فهم السامع؛ لقصور طباعه، أو بُعده عن أسباب الفضيلة. ومن ذا الذي هجا البليغ لأنّ السامع لم يَفهم، أو هجا السامع لإنّ الناطق لم يُفهم؟ وإنّما البليغ الذي يبلغ القصد بأقرب طرق الإفهام مع حسن الغرض، وليس أقرب طرق الإفهام تقليل الحروف، واختصار المراد ... ولكنّ أقرب الطرق في الإفهام أن تكون الغاية مثالاً للعقل، ثمّ يكون المعنى مسوقًا إليها، واللفظ منسوقًا عليها فَهِمَ السامع، أو قصّر)).[2]

ففي هذين النصين نجد أنّ خطاب أبي حيّان جرى في توافق مع مبدأ (التعاون)، وقواعد المحادثة المتفرّعة عنه ولعلّ هذا راجع لما يمتلكه من كفاية لغوية، وأخرى تداولية فضلًا على تنبهه للأهداف الجوهرية للمحادثة، والتواصل ففي النص الأول نلحظ تقيّده بقاعدة الكم وما تشترطه من ضرورة الإسهام في الحوار بالقدر المطلوب عن طريق توفير المعلومات اللازمة؛ لإيصال فحوى الخطاب من دون زيادة، أو تكلّف يُفضيان إلى التشويش، والمَلل عند المتلقي فقد أجاب عن السؤال إجابةً واضحةً، وكافيةً في إيضاح معنى (الإرادة، والاختيار)، والفرق بينهما وكنتيجة لالتزام المرسِل (ابو حيّان) بقاعدة الكم فهذا يستلزم من المرسَل إليه – ووفقًا لمبدأ التعاون بين المتحاورين – أن يفهم أنّ الاختيار أخصّ من الإرادة وهو القصد الرئيس للمرسِل. وبدا واضحًا التزامه بقاعدة (الكيف) وذلك في صحة ما ذهب إليه من تحديد معنى (الإرادة والاختيار)، فضلًا على إتيانه بالبيّنة، والدليل فالإنسان يختار وهو مُجبر، وكاره لهذا الاختيار فاعتقاد أبي حيّان بصدق ما ينقله، مع البرهنة على صحّته يكون قد تقيّد بهذه القاعدة، التي عدّها (غرايس) ذات أهميّة كبيرة لأنّ القواعد

(١) الإمتاع والمؤانسة:٤٤١.

(٢) البصائر والذخائر:٦٦/٢.

الأخرى – وبحسب رأيه – لا تغدو نافذةً إلاّ إذا افترضنا استيفاء قاعدة الكيف[١]؛ ولأنّ (قاعدة) الكيف تقدّم بُعدًا استلزاميا من خلال تحرّي الصدق في الخطاب فإنّ ذلك يستلزم من أبي حيّان أن يكون متأكّدًا، ولديه أدلّة لإثبات قوله، والوصول إلى قصده، واستلزام القصد هذا هو الدافع للمبادرة بالإجابة وهو ما يعرف بالثقة في قصد الخطاب إذ لو لم يستلزم جهل المرسِل لما أجابه، ولأمكن تأويل خطابه تأويلًا آخر يلزم عنه إغفال سؤالَه والتعامي عنه، واعتبار قصده خارجًا عن إطار مبدأ التعاون.[٢] وبمراعاته لسياق المقام، وملاءمة الجواب للسؤال يكون قد تقيّد بقاعدة (المناسبة أو الإضافة) التي يعود لها الفضل في تقديم أوسع لائحة من الاستلزامات النموذجية، بل إنّ (سبيربر وولسون) ذهبا إلى جعلها القاعدة الرئيسة التي تنضوي تحتها القواعد الأخرى؛ كونها القاعدة التي تركّز على فحوى الكلام ودلالته.[٣] فأبو حيّان كان مُدركًا لهدف السائل فأنتج خطابه وفقًا لمبدأ التعاون، فقدّم جوابه موافقًا، ومناسبًا للمقام، وبصورة موجزة متجاوزًا ذكر أمور مفروغ منها.

أمّا مجاراته لقاعدة (جهة الخبر) فتتضح بمراعاته لفروع هذه القاعدة وهي: الوضوح، والابتعاد عن الغموض ويتضح ذلك في جوابه الذي تجنّب به الغموض، والالتباس وابتعاده عن الإجمال المخل بالمعنى، فضلًا على ترتيب الإجابة إذ وضّح الفرق بين (الإرادة، والاختيار)، ومن ثَمّ أخذ يسوق الأدلّة التي تؤيّد ما ذهب إليه من معنى، ولأنّ أحد فروع هذه القاعدة يقتضي الإيجاز؛ هذا يجعل الاستلزام النموذجي ضروريًّا لأنّ المرسِل يُفضّل تكثيف الخطاب مقابل ذكر بعض التفاصيل الدقيقة فالمتلقي يستلزم المعاني، والفروق بين (الإرادة والاختيار) من الخطاب الموجز فبعد معرفة الفرق بينهما من قبل المتلقي وعن طريق ما ذُكر يستلزم ذلك أنّ الاختيار أخصّ من الإرادة.

ومن الأمثلة الأخرى على تطبيق قواعد التخاطب التي تُفضي إلى الاستلزام النموذجي ما جاء في النص الثاني، فمجاراة أبي حيّان لـ(قاعدة الكم) تبدو واضحة

---

(١) يُنظر: المنطق والمحادثة:٦٢٠.

(٢) يُنظر: م.ن، والصفحة.

(٣) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني:١٥٠.

فقد أعطى القدر الكافي من المعلومات في جوابه عن معنى البلاغة ووفقا لهذه القاعدة فقد نتج عن ذلك الاستلزام النموذجي؛ إذ لو كان للبلاغة معنى آخر –على وفق رأي أبي حيّان– لكان عليه بحكم هذه القاعدة التي تفرض الإخبار بالقدر المطلوب أن يقول ذلك، وبما أنّه لم يُضف معلومات أخرى عن معنى البلاغة، فهذا يستلزم أنّ ما ذكره المرسِل هو ما قصده فعلًا، ويتعذر على المتلقي الانتقال إلى قصد آخر لا يتطابق فيه معنى الخطاب مع قصد المرسِل، وحتى يُجاري قاعدة (الكيف) فإنّه يبرهن على صدق كلامه، بقوله: (ومَنْ ذا الذي هجا البليغ لأنّ السامع لم يفهم) مع تأكيده على أنّ طرق الإفهام ليست بتقليل الحروف، واختصار المراد، وتأكيده هذا جاء بدليلٍ أيضا حين ذكر أنّ أقرب الطرق للإفهام أن تكون الغاية مثالًا للعقل ... وبحكم قاعدة الكيف هذه فإنّ ذلك يستلزم أنّ المتكلم يعتقد أنّ البلاغة موكلة بالناطق، وبطبعه الجيّد، والصناعة المجتلبة من دون أن يعير السامع أهميّةً.

وتطبيقًا لـ(قاعدة الملاءمة) فإنّ الإخبار عن البلاغة، وشروطها مناسب للمقام، فضلًا على استلزام أن يكون الإفهام البليغ محصورًا بالمتكلم من دون التركيز على المتلقي فمن الواضح أنّ قوله يستلزم أن يكون المتكلم على قدر كبير من الدراية باللغة، وأساليبها حتى يبلغ قصده بأقرب طرق الإفهام، ومجاراته لقاعدة (جهة الخبر) –التي ترتبط بما يراد قوله وكيفية قوله لا بما قيل–[1] بدت واضحةً في أسلوبه الواضح البعيد عن الغموض، والالتباس مع تكثيف العبارة، والابتعاد عن الإجمال المخل، ومن ثَمّ ترتيب المعلومة إذ بدأ بذكر صفات المتكلم البليغ، وأنّ بلاغته لا علاقة لها بالمتلقي، وبعدها ذكر طريقة بلوغ القصد مع ذكر أقرب الطرق للإفهام، وكنتيجة للإيجاز، وتكثيف الخطاب فهذا يجعل الاستلزام النموذجي ضروريًا فيذكر المرسِل بعض التفاصيل الدقيقة تاركًا للمتلقي التوسع في المعنى فقوله: –(إنّما البليغ الذي يبلغ القصد بأقرب طرق الإفهام مع حسن الغرض)– يستلزم أنْ يكون المرسِل ذا كفايةٍ لغويّة عالية حتى يتمكن من الوصول إلى هدفه وهو إيصال المعلومة الواضحة الدقيقة للمتلقّي.

---

(١) يُنظر: الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني سورة البقرة أنموذجا (ماجستير):٦٣.

أ-الاستلزام الحواري الخارق (المخصّص):

هو النوع الثاني من أنواع الاستلزام التخاطبي، ويتجلّى باستخفاف المتخاطبين بقواعد التخاطب، أو بإحداها.[١] وهنا لابدّ للمتلقي من نقل كلام المرسِل من معناه الظاهر إلى المعنى الخفي الذي يقتضيه المقام، فتحصل الفائدة البعيدة، أو ما سمّاه الأصوليون بـ(المفهوم)[٢].

ويؤكّد (غرايس) أنّ قواعد المحادثة المتفرّعة عن (مبدأ التعاون) غالبا ما تكون عرضةً للاستخفاف، والانتهاك من قبل المتحاورين؛ كونها لا تطغى إلى الدرجة التي يكون فيها المتحاورون عاجزين عن التحايل، والتذبذب، واعتماد الاستراتيجية التلميحية[٣] إذ يمكن للمرء مثلا أن يبدو صريحا من دون أن يوصف بالأخرق، ومتواضعًا من دون أن يبدو بمظهر المتصنّع، ومؤدّبًا من دون أن يبدو عديم الاستقامة فيخرج بكرامة من ورطة هذا العمل الذي تفرضه عليه الاستعمالات اللغوية[٤].

إنّ عدم التقيّد، أو الاستخفاف بإحدى قواعد التخاطب مع الاستمرار باحترام مبدأ التعاون العام يتطلّب من المستمع في الأقل تقدير (مبدأ التعاون) أولًا ثمّ التوصّل عبر استدلالات متتابعة إلى المعنى المستلزم الذي قصده المتكلم لغرض توليد الصورة البيانية المتولّدة من هذا الخرق، وللتعرف على الاستلزامات الناتجة عن الاستخفاف بقواعد التخاطب عند أبي حيّان سنأتي عليها وعلى النحو الآتي:

١-قاعدة الكم:

تنصّ هذه القاعدة على أنّ عملية التخاطب لابدّ أن تكون مفيدة، ولابدّ للخطاب أن يُفضي إلى القصد من دون إيجاز مخلّ، أو زيادة مفرطة، ومشوشة، وقد يستهان بقاعدة الكم عند الاستخفاف (flouting) بها، أو يتم استغلالها

---

(١) يُنظر: نظرية التلويح الحواري:٣٢.

(٢) يُنظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني:١٠٠.

(٣) يُنظر: نظرية في اللغة والإعلام نحو مقاربة رياضية (بحث):١٥٠.

(٤) يُنظر: م ، ن:١٥٠.

(Explotation) ويؤدي ذلك إلى استلزامات متعددة.[١] يمكن التوصل إليها عن طريق استدلالات متتابعة نصل من خلالها إلى قصد المرسِل.

ومن الاستشهادات التطبيقية في خطابات أبي حيّان لخرق قاعدة الكم قوله:

((قلت لعلي بن عيسى: وكم كان سنّ أبي سعيد في ذلك الوقت؟ قال: مولده سنة ثمانين ومئتين، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة، وقد عبث الشيب بلهازمه[٢] مع السمت، والوقار، والدين، والجِدّ، وهذا شعار أهل الفضل، والتقدّم، وقلّ من تظاهر به، أو تحلّى بحليته إلاّ جلّ في العيون، وعظم في النفوس، وأحبته القلوب، وجرت بمدحه الألسنة)).[٣] وقوله:

((وقال مرّةً ما التمني؟ – وقد كان جرى ما اقتضى السؤال عنه – فقلتُ أحفظُ نصًّا لبعض الحكماء: إنّ التمنّي فَضْلُ حركة النفس، فقال جواب رشيق وإنْ كان فقيرا إلى البسط))[٤].

ففي النص الأول – بعد أن نقل علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤هـ) مناظرةً بين أبي سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ)، ومجموعة من العلماء كان قد أظهر فيها أبو سعيد مقدرةً عاليةً في المناظرة، والمحاججة، فوجّه أبو حيّان سؤاله للرّمّاني قائلًا ((وكم كان سنّ أبي سعيد في ذلك الوقت؟)) ووفقا لمبدأ التعاون الذي يروم تعاون المتكلم، والمخاطب على تحقيق الهدف المرجو من الخطاب الذي قد يكون محدّدا قبل دخولهما في عملية التخاطب، أو يحصل أثناء هذه العملية[٥] نلحظ أنّ المتلقي لم يُجب عن السؤال فقط بذكر سنّ أبي سعيد وإنّما خرق (قاعدة الكم)؛ بأن زاد على الجواب بذكر أوصاف أبي سعيد، وما هو عليه من الوقار، والدين، والجدّ؛ كونه فهم من سؤال أبي حيّان – بناءً على مبدأ التعاون – معنى التعجّب بما دار في

---

(١) يُنظر: نظرية التلويح الحواري:٤٦-٤٧.

(٢) مفردها لهزمة بكسر اللام، وهي مجتمع اللحم بين الماضغ والاذن، ويريد هنا الشعر النابت عليها. يُنظر: لسان العرب: ج٤٥/٤٠٨٧ مادة (لهزم).

(٣) الإمتاع والمؤانسة:١١٥-١١٦.

(٤) م ، ن:٤٣٧.

(٥) يُنظر: التداولية من اوستن إلى غوفمان:٨٤-٨٥.

المناظرة، وما أظهره أبو سعيد من ثباتة جأشٍ، ولسانٍ متصرّفٍ، ووجهٍ متهللٍ، وفوائدَ متتابعةٍ.[١] فسؤال أبي حيّان محمول على حقيقته مضمّن معنى التعجب، فتكون القوة الإنجازية الصريحة لملفوظ النص هي الاستفهام، أمّا القوة الإنجازية المستلزمة مقاميًا فهي التعجّب من طرف أبي حيّان، أمّا بالنسبة للمتلقي (الرمّاني) فاستلزم أن لا يكتفي بذكر سنّ أبي سعيد وإنّما أردفه بذكر بعض صفاته، فضلًا على استلزام آخر من المتلقي وهو ادراك أنّ السؤال لم يكن لمعرفة السنّ فحسب وإنّما لمعرفة ما كان يتمتع به أبو سعيد من مقدرة، وإمكانية في المناظرة، والمحاججة؛ ولذلك فإنّ الخرق في هذه القاعدة يكون قد وقع في فرعها الثاني القاضي بعدم المساهمة بأكثر مما هو مطلوب في العملية الحوارية.

أمّا خرق هذه القاعدة بفرعها الأول فقد تمثّل في النص الثاني في إجابة أبي حيّان عن سؤال (ما التمنّي) فلم يكن جوابه على قدر حاجة المتلقي بدليل تعليق الوزير على الجواب بأنّه جواب رشيق ولكنّه فقير إلى البسط والتوضيح، وخرق هذه القاعدة هنا – بناءً على مبدأ التعاون – أنّ المرسل يستلزم معرفة المخاطَب قدرًا معينًا عن معنى التمنّي، أي أنّه لم يتعامل مع مخاطَب خالي الذهن، والدليل أنّ المخاطَب نعت الجواب بالفقر أي أنّه يعلم أنّ الاجابة لم تكن كافية، وأنّ هناك معنى مفصلًا عن التمني، فضلًا على عدم طلبه الاستزادة.

٢–قاعدة الكيف:

تنصَ هذه القاعدة على أن تكون مساهمة المتكلم في الحوار صادقةً وتتجلَى في قاعدتين فرعيتين هما:

١–لا تقل ما تعتقد أنّه كاذب

٢–لا تقل ما ليس لك عليه دليل

فإن قال المتكلم لمخاطَبه كلامًا لم يكن صادقًا فيه، أو يعتقد كذبه، أوقال كلامًا لا يملك دليلًا على صدقه نتج عن هذا كلّه خرق لقاعدة الكيف.[٢]

وما ورد من أمثلة على خرق قاعدة الكيف عند أبي حيّان قوله:

---

(١) يُنظر: الإمتاع والمؤانسة:١١٥.

(٢) يُنظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني:١٠٠.

((وأنّك متى أردت أن تُحصي صنائع ابن العميد، وابن عبّاد أردت عسيرًا، ومتى أثِرْتَ أن تُحصّل فضائلهما حاولت ممتنعًا، وأنّهما كانا بالسياسة عالميْن، ولأولياء نِعمهما ناصحيْن، وإلى الصغير، والكبير مُتَحَبّبيْن، وعلى القاصي، والداني حَدِبَيْن ... ومن كلّ دَنَس، ونَطَفٍ بعيديْن نَزِهَيْن، وأنّهما لو بَقيا لنزل عليهما الوحي))[1].

وقوله: **((فأمّا قول أبي الحارث حمين، وقد سُئل عمّن يحضر مائدة محمد ابن يحيى، وجوابه: الملائكة، قيل إنّما نسألك عمّن يأكل معه قال: الذُّباب))**[2].

ففي النّصّ الأول لاريب أنّ عدم صدق المرسِل (أبو حيّان) – في صريح خطابه هذا – ظاهر، وبيّن؛ لأنّ ما صرّح به لا يطابق الواقع، وما يفكّر به المتكلّم فلابدّ للمتلقي أن يفترض أنّ المرسِل لم يرفض (مبدأ التعاون) في الحوار بل أراد أن يُوصل أمرًا ما فعلى المتلقي أن يبحث عن قضية (مستلزمة) لها علاقة بما قيل، وأنّ هذه القضية على الأرجح وضمن هذا السياق نقيض ما صرّح به المرسِل وبهذا يكون قد تجاوز، واستخفّ بقاعدة (الكيف) مقدّمًا فعلًا إنجازايا ملائمًا يقتضيه المقام. فما قدّمه أبو حيّان هو خلاف للواقع، ولا أدلّ على ذلك من أنّه عمل كتابًا فيهما وسمه بـ(أخلاق الوزيرين) سالكًا بهذا العنوان مسلك الحذر، والاحتياط فهذا العنوان يسع فيه المجال للثناء بالخير، وبالشرّ معًا فهو القائل في ابن عبّاد ((ولكنّني أبتُليتُ به، وكذلك هو أُبتلي بي، ورماني عن قوسه مُغرقًا فأفرغت ما كان عندي على رأسه مَغيظًا؛ وحرمني فازدريته، وحقّرني فأخزيته ... ولئن كنت انصرفت عنه بخفيّ حُنين لقد لصق به من لساني وقلمي كلُّ عارٍ، وشنارٍ، وشين))[3].

وهذا يدلّ على الغيض، والحقد الذي كان يحمله أبو حيّان على هذين الوزيرين، وهو بخلاف ما جاء به في النصّ الأول وهذا ما يستلزمه المتلقي وفقًا لمبدأ التعاون بين المتحاورين.

---

(١) أخلاق الوزيرين:٨٢-٨٣.

(٢) م.ن:٧٥.

(٣) م.ن:٨٦-٨٧.

أمّا النصّ الثاني، فقد نقل أبو حيّان قول أبي الحارث الذي خرق به قاعدة (الكيف) فقد كان جوابه بعيدًا عن الواقع، ولم يكن صادقًا ولعلّ تعليق أبي حيّان خير دليل إذ قال: ((فإنّ هذا من باب التملّح، والمُجانة، وليس من قبيل الصدق في شيء)) وبخرق هذه القاعدة حدث الاستلزام الحواري (المخصّص)؛ الذي يعود إلى كون المتكلّم يقصد بإجابته شيئًا آخر غير الذي تلفّظ به في كلامه فلا يُمكن أن يكون قد قصد (الملائكة، والذُّباب) فعلًا، وإنّما هناك معنى مستلزم لمّح إليه المرسِل معولًا – في فهمه من قبل المتلقي – على (مبدأ التعاون) والمعنى المستلزم لما قاله هو أنّ محمد بن يحيى على جانبٍ كبيرٍ من الحرص، والإقتار أي إنّه أراد أن يسند إليه صفةَ البخل؛ لأنّ الأمر في مثل هذا المقام يستحيل أن يكون نقيضًا فما قاله ليس نقيضا لما قصده.

٣–قاعدة الملاءمة:

تنصّ هذه القاعدة على ضرورة أن تكون المساهمة في الحوار ملاءمة أي أن يناسب مقالك مقامك[١] وقد عُدّت هذه القاعدة مستوعبة لسائر القواعد الأخرى؛ كونها تتيح أكثر من أي قاعدة أخرى الإيجاز في التخاطب، والتخلّي عن ذكر أمورٍ مفروغٍ منها.[٢]

ومن الأمثلة التطبيقية على خرق هذه القاعدة عند أبي حيّان قوله:

((قال: إنّي أُريد أن أسألك عن ابن عبّاد – فقد انتجعتَه، وخبرتَه، وحضرتَ مجلسه – وعن أخلاقه، ومذهبه، وعادته، وعن علمه، وبلاغته، وغالب ما هو عليه، ومغلوب ما لديه؛ فما إنّي أجد مثلك في الخُبر عنه، والوصف له ...))[٣].

((فقلت إنّي رجل مظلوم من جهته، وعاتب عليه في معاملتي، وشديد الغيظ؛ لحرماني ... على أنّي عملت رسالةً في أخلاقه، وأخلاق ابن العميد))[٤].

---

(١) يُنظر: المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية (ماجستير):١١٧.

(٢) يُنظر: الاقتضاء في التداول اللساني:٧١٨.

(٣) الامتاع والمؤانسة:٥٦.

(٤) م.ن: والصفحة نفسها.

فظاهر الجواب يوحي بعدم مناسبته للسؤال، ولكن إذا ما تأمّلنا إجابة أبي حيّان نجدها تدلّ على معنيين: الأول (حرفيٌّ) وهو أنّ أبا حيّان لم ينل شيئًا من ابن عبّاد، والثاني (مستلزمٌ) هو عدم استعداده لوصف ابن عبّاد، وهذا الاستلزام يستلزم معنى آخر فأبو حيّان يلمّح بعدم الرضا من ابن عبّاد، وغضبه عليه وبالتالي لم يكن جوابه مطابقا في الظاهر؛ لأنّه كان يجب أن يصفَ ابن عبّاد وهو ما أراده الوزير، ودليل ذلك قول الوزير: **((وبعد فما سألتك إلاّ وصفه بما جُبِل عليه، أو بما كسب هو بيده من خير، وشر))**[١] فلم يكن هناك ملاءمة بين منطوق الخطاب، وحال المتلقي له، وهو ما يُعرف بالخروج عن مقتضى الظاهر من الخطاب بغيةَ التلميح عن معنًى مستلزم هو المعنى غير المباشر للملفوظ.

٤-قاعدة جهة الخبر:

تنصّ هذه القاعدة على أنّ الكلام يجب أن يكون مرتبًا، منظمًا، وخاليًا من الغموض، والإبهام كما اتفق على ذلك معظم الباحثين.[٢] وخرق هذه القاعدة، أو الاستخفاف بها يجعل المتلقي يبحث في جميع التأويلات الناتجة عنه مع افتراض المتلقي أنّ المتكلّم يقبلها جميعا.[٣]

ومن أمثلة الاستخفاف بهذه القاعد عند أبي حيّان قوله:

((وقال مرّةً أُخرى: حدِّثني عن اعتقادك في أبي تمّام، والبحتري. فكان من الجواب: أنّ هذا الباب مختلفٌ فيه، ولاسبيل لرفعه، وقد سبق هذا من الناس في الفرزدق، وجرير، ومن قبلهما في زهير، والنابغة حتى تكلّم على ذلك الصدر الأول مع علوّ مرتبتهم في الدين، والعقل، والبيان))[٤].

يتضح من إجابة أبي حيّان أنّه انتهاك لقاعدة (الجهة أو الطريقة)؛ إذ كان بإمكانه أن يُجيب عن السؤال بشكلٍ أوضح، وأكثر تفصيلًا، ولكنّه اتّجه إلى ضبابية

---

(١) الامتاع والمؤانسة:٥٦.

(٢) يُنظر: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص):١٤٢، وعلم الدلالة بالمر:٢٠٠، والنّصّ والخطاب والإجراء:٤٩٦، ومقدمة في اللغويات المعاصرة:٢١٢.

(٣) يُنظر: المنطق والمحادثة:٦٣٢.

(٤) الإمتاع والمؤانسة:٥٠١.

الجواب، وغموضه، وهذا يستلزم من المتلقي تأويل قول المرسِل للوصول إلى قصده الذي لمّح به في اللفظ الحرفي للجواب، ولعلّ لجوء المرسِل إلى هذه الاستراتيجية هو للابتعاد عن التحرج الذي ربّما يقع فيه بتقييمه للشاعريْن، فضلًا على ذلك أنّه ربّما يُعطي حكمًا غيرَ منصفٍ، فيكون جوابه هذا قد أغناه عن خوض كثير.

المبحث الأول: (هدف الخطاب)

أولًا: أهمية هدف الخطاب، وأولويته في تحديد نوع الخطاب:

عند تفحّص مفهوم الخطاب يتضح أنّه مؤسَّس على عملية الفهم، والإفهام، وتتبين مدى قوة اللّحمة بين الفهم، والخطاب؛ ولأنّ المرسل لا يُرسل كلامه من دون هدف معيّن؛ ذلك أنّ لكلّ منتج خطاب هدفًا(١)، والفهم بطبيعة الحال مبنيٌّ على انتاج الدلالة التي تبرز في الاستعمال اللغوي؛ كون اللغة تمثّل سلاحًا من أقوى الأسلحة النفسية للسيطرة على ذهنيّة المتلقّي.(٢)

ووفقًا لهذا فإنّ (الهدف) يُعدّ الركيزة الأساسية التي يُبني عليها الخطاب، وله أهمية في تحديد نوع الخطاب إذا ما علمنا أنّ الخطاب منفلت من امكان التحديد، وهذه الخاصية جعلته متنوعًا، ومتعدّدًا فتجدنا أمام تنوع، وتعدد الخطابات الشفويّة التي تمتد من المخاطبات اليومية إلى الخطابات الأكثر صنعة وزخرفة، وإلى جانب الخطابات الشفوية نجد ايضًا كتلةً من الخطابات المكتوبة التي تعيد إنتاج الخطابات الشفوية، وتستعير أدوارها، ومراميها من المراسلات إلى المذاكرات، والمسرح، والكتابات التربوية.(٣)

ولعلّ هذا التنوع مدعاة للاهتمام، والتركيز على أهمية الهدف في تحديد نوع الخطاب إذ لا يمكن بأيّة حال أن نحصر الخطابات في أنماط مخصوصة، ومقاييس واضحة وهذا راجع إلى ما لانهاية من الخطابات، فبدأت محاولات الباحثين لتحديد أنواع الخطاب معوّلين في ذلك على الهدف منه إذ قسمه د.(منذر عياشي) على نوعين: الأول: نفعي مباشر قائم على لغة الحياة اليومية، والثاني: إبداعي(٤).

وذهب (تودوروف) إلى جعل الخطاب نوعين: ((خطاب نقدي، وآخر أدبي أمّا الخطاب النقدي فهو الممارسة التي يكون فيها الناقد كالمُنجز لا يستطيع أن يتحدث إلاّ خطابًا مثقوبا، وهي مرحلة يظهر فيها تحويل الأنا إلى علاقة حين لم يبق

---

(١) يُنظر: فهم الخطاب القرآني بين الإماميّة والأشاعرة:٢٥.

(٢) يُنظر: مناهج البحث في اللغة:٥.

(٣) يُنظر: آليات تحليل الخطاب في أضواء البيان (ماجستير):١٠٥.

(٤) يُنظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب:١٤٢.

له سوى أن يصمت عبر نوع من الدرجة الصفر للمتكلّم ... أمّا الخطاب الأدبي والشعري خصوصا فهو من منظور التواصلية خطاب يهدف إلى التعبير))[١].

أمّا أهمية هدف الخطاب، وأثره في اختيار الاستراتيجية المناسبة للخطاب فيتجسّدان في أنّ الهدف ركن من أركان الخطاب فضلًا على أنّه ووفقا لـ (بنفنيست) –((كل تلفظ يفرض متكلماً، ومستمعاً، وعند الأول هدف التأثير على الثاني)).[٢]

ثانيًا: هدف الخطاب في الأفعال اللغوية:

يتجلّى هدف الخطاب في الأفعال اللغوية عن طريق تقسيمات هذه الأفعال التي طرحها الباحثون إذ تعدّ نظرية الأفعال الكلامية الركيزة الأساسية التي قام عليها الاتجاه التداولي فالفعل الكلامي هو: ((التصرف، أو العمل الاجتماعي، أو المؤسساتي الذي يُنجزه الإنسان بالكلام ومن ثَمّ (فالفعل الكلامي) يُراد به الإنجاز الذي يؤديه المتكلّم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة ومن أمثلته (الأمر، والنهي، والوعد، والسؤال، والتعيين، والإقالة، والتعزية، والتهنئة ... فهذه كلّها أفعال كلامية)).[٣]

فالمتكلّم يُنجز هذه الأفعال بالخطاب، ولعلّ سبب تركيز بعض الباحثين على دراستها كونهم ينطلقون من أنّ العلامة ليست بؤرة العملية الاتصالية وحدها بل تكمن بؤرة العملية الاتصالية فيما ينجزه الفعل اللغوي؛ لذلك يجب أن لا ننظر إليها على أنّها دلالات مجردة، ومضامين لغوية، وإنّما هي فوق ذلك (إنجازات، وأغراض تواصلية) تهدف إلى صناعة أفعال، ومواقف اجتماعية، أو مؤسساتية، أو فردية بالكلمات هدفها التأثير في المخاطب بحمله على فعلٍ، أو تركه، أو دعوته إلى ذلك...[٤]

وقد أكّد (اوستن) أنّنا حين نتلفظ بقولٍ ما نقوم بثلاثة أفعال هي:

١–فعل التلفّظ ويقصد بذلك الأصوات التي يخرجها المتكلّم والتي تمثّل قولًا ذا معنى.

---

(١) الأسلوبيات وتحليل الخطاب:٨٨.

(٢) تحليل الخطاب الأدبي:١٠.

(٣) التداولية عند العلماء العرب:١٠.

(٤) يُنظر: م.ن:١١.

٢-فعل قوة التلفّظ ويقصد به أنّ المتكلّم حين يتلفّظ بقولٍ ما فهو ينجز معنى قصديًا، أو تأثيرًا مقصودًا وهو ما أسماه أوستن (قوة الفعل).

٣-فعل أثر التلفّظ، ويعني بذلك أنّ الكلمات التي ينتجها المتكلّم في تركيب نحوي منتظم محمّلة بأهداف معينة في سياق محدد تعمل على تبليغ رسالة وتُحدث أثرًا عند المتلقي.[١] وهذه الأفعال مرتبط بعضها ببعض فالتلفظ بالكلام يقود إلى الإنجاز، والهدف، أو الغرض. ومن الفعل الثاني صنّف مجموعة من الأفعال وإذا ما تتبعنا تصنيفه هذا يتضح لنا أنّه اعتمد معيار هدف الخطاب فقد ارتأى أن يصنّف الأفعال التي يهدف المتكلّم انجازها إلى خمسة اقسام استنادًا إلى قوة الهدف الإنجازية وهي:

١-الحكميات: نحو: الإدانة، أو الفهم، أو الوصف، أو اصدار أمر، أو تحليل.

٢-التنفيذات: وتعني متابعة الأعمال نحو: الاستقالة، طرد، تحويل، نقل، وهي أعمال تنفيذ.

٣-الوعديات: مثل الوعد، الموافقة، التعاقد، العزم، والقسم.

٤-السلوكيات: نحو، الاعتذار، الشكر، التهنئة، الترحيب، الكره، التحريض.

٥-العرضيات: وهي تتضمن أفعالاً لتقديم وجهات النظر، وإثبات الحجّة نحو أؤكّد، أعترض، أنكر[٢].

وفي محاولة لإعادة تصنيف الأفعال الكلامية وضع (سيرل) مجموعة من القواعد التي تتحكم في إنجاز الأفعال الكلامية يمكن وصفها بأنّها تتميز بكونها قواعد عرفية وليست طبيعية، فضلًا على تميّزها بكونها قواعد ذات طابع تواصلي تبليغي،[٣] وهذا جعله يختلف مع أصحاب الاتجاه الصوريّ (غير التواصلي) إذ يلتقي كلٌّ منهما في فكرة أساسية مفادها أنّ عملية الإنتاج اللغوي لا تتم إلاّ بوجود قواعد معينة لكنّهما يختلفان في أصل هذه القواعد، وطبيعتها فهي قواعد لغوية بحتة

---

(١) يُنظر: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلمات:١١٦.

(٢) يُنظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان:٦٢.

(٣) يُنظر: نحو نظرية وظيفية للنحو العربي(أطروحة):١٤٩.

عند أصحاب الاتجاه الصوري في حين أنّها قواعد لغوية، واجتماعية، وثقافية تواصلية بحسب الاتجاه التبليغي.(١)

وعلى هذا الأساس ميز (سيرل) بين نوعين من القواعد:

أ. **القواعد التأسيسية:** Regles constitutives:

وهي القواعد التي تحدد معايير انجاز الفعل الكلامي، واتجاهه وأيّ خلل فيها يؤدي إلى فشل الفعل الكلامي.

ب. **القواعد الضابطة:** Regles normatives:

وهي القواعد التي تحكم، وتسير أشكال السلوكيات الموجودة في الواقع مثل قواعد التهذيب التي تنظم العلاقات بين الأشخاص والتي يمكن أن تختلّ من دون أن يفشل الفعل الكلامي.(٢) وفضلا على هذه القواعد أضاف (سيرل) مجموعة من المعايير رأى أنّها تساعد على التمييز بين الأفعال الإنجازية فيُسهل عليه تصنيف الأفعال الإنجازية بحسب الاختلافات الموجودة بين كلّ فعل إنجازي، وآخر.(٣) ويقف على رأس هذه المعايير (معيار الاختلاف في الهدف، أو الغرض الإنجازي للفعل) فيمكن أن يُحدَّد الغرض الإنجازي من (فعل الأمر) على أنّه محاولة التأثير على المتلقي وحمله على القيام بفعل ما، أمّا الهدف الإنجازي من فعل الوعد فهو إلزام المتكلّم نفسه بالقيام بفعل ما للمخاطَب ويجب عليه الإيفاء بوعده، والهدف من الوصف هو تمثيل الشيء سواء أكان الوصف صادقاً أم كاذبًا، دقيقًا أم غير دقيق، وعليه فالقوة الإنجازية هي محصلة لمجموعة عناصر، أمّا الهدف الإنجازي فهو واحد؛ لذلك يُعدّ ألأكثر أهميةً.(٤)

ثالثًا: أثر الهدف في تحديد الأدوات اللغوية:

لابدّ لكلّ منتج خطاب من هدف يسعى المتكلّم إلى بلوغه؛ ولذلك فإنّ الكيفية التي يخرج بها الخطاب تتحدد وفقًا للهدف؛ ولأنّ اللغة تُعدّ المادة الرئيسة للخطاب

---

(١) يُنظر: نحو نظرية وظيفية للنحو العربي (أطروحة) : ١٤٩ .

(٢) يُنظر: الأفعال الكلامية في سورة الكهف (ماجستير):١٢٨.

(٣) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أوكسفورد:٢٢٤.

(٤) يُنظر: الأفعال الكلامية في سورة الكهف:١٢٨.

يبدو أثر الهدف واضحًا في اختيار المستوى اللغوي المناسب لتحقيقه، ووفقًا لهذا المعْطى لابدّ للمخاطِب أن يتمتع بقدرة كافية من الكفاية اللغوية، وهي القدرة التي تكمن عنده وتمكّنه من انتاج عدد لامتناه من الجمل.(١) وهي من الأهمية بمكان أنّه يجب على كلّ متكلّم أن يمتلكها، وتستمد وجودها من وجود قواعد، وأنظمة لغوية معينة بمختلف مستوياتها (الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية)(٢) فعلى المستوى الصوتي نجد المتكلّم يعمد إلى أساليب متنوعة من أجل الوصول إلى أهدافه فيكون للهدف الأثر الواضح في تحديد الأداة اللغوية.

وتُعدّ المحارفة (الإصاتة) من التقنيات حديثة العهد في الفكر النقدي الحديث(٣) وتعني تكرار الحروف في الدوال، والتلاعب بالحروف المتماثلة وتكرارها بهدف خلق إيقاعات موسيقية من صوتيات اللغة.(٤)

وواضح أنّ مصطلح (المحارفة) بهذا المفهوم يقترب من مصطلح التجانس الصوتي الذي يعني تكرار صوت، أو أكثر في الكلمات المتوالية، ومصطلح (التجانس) يقترب بدوره من (السجع). وقد يقع اختيار المتكلّم على الصياغة التي تعتمد المستوى الصرفي بناءً على الهدف المراد من الخطاب، وهو من مستويات اللغة يتناول البنية التي تمثّلها الصيغ، والمقاطع ويطلق الدارسون المحدثون على هذا الدرس مصطلح (المورفولوجيا)(٥) وهو يشير عادةً إلى دراسة الوحدات الصرفية أي (المورفيمات)، فالوحدات الصرفية هي إشارات، أو علامات تُنتج في فضاء الخطاب من دون قيد دلالي، أو بنيوي، فدلالتها نابعة من تحررها من السوابق، واللواحق، ومن ثمة فهي أدوات يوظفها المتكلّم لتحقيق هدفه الفكري، والفنّي.(٦) وتعدد استعمال

---

(١) يُنظر: اللسانيات واللغة العربية، ٢/٢٥٦.

(٢) يُنظر: الكفايات التواصلية والاتصالية دراسات في اللغة والإعلام:٨٨.

(٣) يُنظر: القصة والحداثة:٤٧.

(٤) يُنظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب:٨٨.

(٥) يُنظر: مناهج البحث في اللغة:١٧٠، والمنهج الصوتي للبنية العربية:٢٣، والعربية وعلم اللغة البنيوي:١٢٨.

(٦) يُنظر: جماليات تحول الوحدة الصرفية لدى النحاة والبلاغيين (بحث):٦٩.

الصيغ الصرفية له أهداف دلالية، وجمالية تتمثّل في تقوية المعنى، وتثبيته، من ذلك قول أبي حيّان: ((**فلا جرم: لا سرّ إلاّ وهو متهم، ولا قائل إلاّ وهو متوهّم، ولا سامع إلاّ وهو كظيم**))[١].

فقوله (كظيم) هي صيغة مبالغة تدلّ على من قام بالفعل وقد زاد، وأكثر، وبالغ فيه، واسم الفاعل منها (كاظم) وهي تدلّ على القيام بالفعل ولكن ليس على وجه الكثرة، والمبالغة فعدول أبي حيّان وتحوله من صيغة (فاعل) إلى صيغة (فعيل) كان الهدف منه التكثير في الوصف، فضلًا على أنّ صيغة (فعيل) أقوى من صيغة (فاعل) لما فيها من الدلالة على الثبوت، والدوام، والمبالغة في الوصف.[٢]

أمّا في المستوى التركيبي، فقد يتجاوز المتكلّم المستوى الصرفي بغيةَ تحقيق هدفه من الخطاب إلى مستوًى آخر من مستويات اللغة هو (المستوى التركيبي) وكما هو معلوم أنّ الجملة نوعان (الكبرى والصغرى) وتنقسم الكبرى بحسب بنائها الداخلي إلى بسيطة، ومركبة، وتركيبية، وتركيبية مركبة.[٣]

ولعلّنا نلحظ أنّ المتكلم عادةً ما يسعى إلى الجمل المركبة التي تتكون من اثنين من التراكيب، أو أكثر، ويتم الربط بينها بأداة من أدوات العطف، أو الربط سياقيًا من دون أداة.[٤]

وربما هذا عائد إلى أنّ المتكلّم يسعى إلى تحقيق هدفه من الخطاب، وترسيخ أفكاره في ذهن المتلقي من ذلك قول أبي حيّان: ((**السجع الذي يلهج به هو مما يقع في الكلام، ولكن ينبغي أن يكون كالطراز في الثوب، والصّنِفة[٥] في الرداء، والخط في العصْب[٦]، والملح في الطعام، والخال في الوجه؛ ولو كان الوجه كله**

---

(١) الإشارات الإلهية:٦٥.

(٢) يُنظر: ظاهرة التحويل في الصيغ الصرفية:٦٤.

(٣) يُنظر: الجملة العربية مكوناتها أنواعها:١٤٨.

(٤) يُنظر: لغة أبي العلاء المعري في رسالة الغفران:١٤٥.

(٥) صنِفة الإزار بكسر النون حاشيته وطرفه التي عليها الهدب، يُنظر: لسان العرب: ٢٥١١/٢٨ مادة (صنف).

(٦) ضرب من برود اليمن. يُنظر: لسان العرب ٢٩٦٦/٣٢ مادة (عصب).

خالًا لكان مقليًا))[1] ففي هذا المثال نجد أنّ أبا حيّان أراد أن يبين أهمية السجع، وأنّه متى ما تحققت به الشروط التي ذكرها كان حلية ظاهرة في الكلام مستعيناً في ذلك على الجمل المركبة – التي ربط فيما بينها بحرف العطف الواو – وما تحمله من ثراء لغوي يمكّن المعنى في ذهن المتلقي.

بهذا كله يحاول المتكلم أن يتوسل إلى هدفه وهو كسب تأييد السامع، وإقناعه بالفكرة التي يتبناها، ولأنّ الهدف الرئيس من عملية التخاطب هو محاولة إقناع المتلقي بفكرة ما لذلك ستكون الاستراتيجية الحجاجية (الإقناعية) هي مدار البحث في المبحث الثاني من هذا الفصل.

---

(١) أخلاق الوزيرين:١٣٤.

المبحث الثاني: (الاستراتيجية الحجاجية)

أولًا: مفهوم الحجاج:

١-لغةً:

تكاد تُجمع المعجمات العربية القديمة، والحديثة[١] على ما جاء في لسان العرب من معنًى للحجاج ((يقال حَاجَجْتُهُ أُحَاجُّه حِجاجًا، ومُحَاجَّةً حتى حَجَجْتُه أي غَلبْتُه بالحُجَجِ التي أدليتُ بها ... والْحُجَّةُ الْبُرْهانُ، وقيل الحُجَّة ما دُوفِعَ به الخصمُ. وقال الأزهري: الحُجَّةُ الْوجْهُ الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخُصُومةِ، وهو رجلٌ مِحْجاجٌ أي جَدِل، وحَجَّه يحُجُّه حَجًّا: غلبه على حُجَّته، وفي الحديث فحَجَّ آدمُ موسى أي غلبه بالحُجّة))[٢].

ويقال ((حاجّه فحجّه غلبه بالحُجَّة ... وحاجَّه مُحاجّةً وحِجاجًا: جادله، وفي التنزيل: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾ البقرة: ٢٥٨))[٣]

وبهذا يكون الحجاج هو محاولة الغلبة من قبل المتحاورين باستعمال الحجج، والأدلّة، والبراهين الكلامية، والعقلية، فيكون مرادفًا للجدل.[٤]

ويبدو أنّ اللغويين العرب القدماء والمحدثين اشتركوا في أمر واحد هو أنّ الحجاج يكون أثناء المخاصمة بين شخصين، عادّين الحجةَ وسيلة يستعملها المتكلّم للتغلب على خصمه في حوار يكون طابعه النزاع، والمخاصمة.

والحقيقة أنّ الحجاج لا ينحصر في هذا النوع من الحوارات فقط، بل يتعدّاه إلى الحوارات الأخرى التي يحاول فيها المتكلّم إقناع المتلقي بقضية ما.

٢-اصطلاحاً:

تذهب معظم التعريفات الاصطلاحية للحجاج إلى أنّ الحجاج علاقة تخاطبية بين المتكلم، والمستمع حول قضية ما، متكلّمٌ يدعّم قوله بالحجج، والبراهين لإقناع

---

(١) يُنظر: كتاب العين: ٢٨٧/١، باب الحاء ، ومقاييس اللغة :٣٠/٢ كتاب الحاء، والمعجم الوسيط:١٥٦.

(٢) لسان العرب: ٧٧٩/١ باب الحاء مادة (حجج).

(٣) المعجم الوسيط: ١٦٥ .

(٤) يُنظر: م،ن:٥٦٩/٢ مادة (حجج).

المتلقي، والمتلقي له حق الاعتراض عليه إنْ لم يقتنع، وهو مجال رحب من مجالات التداولية يشترك مع علوم عديدة، وهو وإنْ يقع ضمن الحقل التداولي إلاّ أنّه انبثق من حقل المنطق، والبلاغة الفلسفية.(١) ويرتبط مفهومه بالفعل، فهو بحث من أجل ترجيح خيار من خيارات قائمة، وممكنة بهدف دفع فاعلين مُعيّنين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائمًا.(٢) يقوم في مفهومه على صناعة الجدل، والخطابة بل إنّ من الدارسين حديثًا من عدّه خطابة جديدة لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة.(٣)

ثانيًا: الحجاج في الفكر الغربي قديمًا:

١-**كوراكس:** (كوراكس) تحدّث عن الحجاج، وحاول استنباط صياغة منهجية تنظم الخطاب الحجاجي، وركّز على مجموعة مقترحة من التقنيات التي تسمح بإنتاج خطاب حجاجي ناجح في حضرة القضاء فضلًا على توضيحه أنّ كل خطاب حجاجي يرتبط بمقام القضاء لابدّ أن يتعلق بأربعة عناصر هي: لفت انتباه المتلقي، وعرض موضوع الخطاب، ثم دعم الموضوع بما يناسبه من حجج، وأخيرًا الاستنتاج، وبهذه العناصر يسمح بتأسيس منظومة قضائية حجاجية كان لها الأثر الكبير على الساحة القضائية، والاجتماعية.(٤)

٢-**افلاطون:** لأنّ افلاطون حارب السفسطائيين – كما فعل أستاذه سقراط – كان لزامًا عليه – ولكي يبدد أسباب الخوف – العمل بجدّ للتمييز بين القول الفلسفي الحقيقي، والآخر السفسطائي المزيّف ولتحقيق هذه الغاية اعتمد طرقًا متعددة للمواجهة أبرزها عرض التفكير السفسطائي وكشف زيف هذا التفكير.(٥)

فكان خطابه موجهًا إلى النفس أشرف ما في أجزاء الإنسان لتقودها إلى السعادة الحقّة، فحرص على ضبط هذه الصناعة عن طريق اعتماد المنهج الجدلي،

---

(١) يَنظر: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة (بحث):٥٨.

(٢) يُنظر: م.ن:٥٧.

(٣) يُنظر: الحجاج في القرآن: ٣٦.

(٤) يُنظر: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح (بحث):٤٥.

(٥) يُنظر: م،ن:٧٢.

ومعرفة أنواع النفوس، وما يناسبها من الأقاويل، ومن ثمّ اختيار المناسبة للمقامات.[١]

٣-أرسطو:

يُعدّ (أرسطو) من الأوائل الذين تعرضوا للحجاج في كتابه (الخطابة) فهي عنده الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع.[٢] وجعل لها خطتين: جدلية، ونفسية، ورأى أنّه لابدّ للخطابة الجدلية من أمرين: التركيب الذي يجمع به الخطيب نواحي الفكرة المتفرقة ليتمكن من تحديد الكلام، والتحليل الذي يردّ الفكرة إلى آراء جزئية، وسَمّي أصحاب القدرة على التركيب، والتحليل (جدليين)، فالخطابة عنده فضلًا على أنّها الكشف عن طرق الإقناع فهي نوع من الجدل، أو هي الجدل بعينه.[٣]

وقد ربط أرسطو بين خاصية التعبير عند الإنسان، وبين الإقناع ((فالإنسان لأنّه متكلّم مُعبّر يبحث عن الإقناع، ويحاول أن يصل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بوسائل مستمدّة من التفكير الذي حوبي به من الطبيعة))[٤].

وبحسب (أرسطو) فهناك وسائل إقناعية غير صناعية جاهزة لا دورَ للخطيب في ابتكارها تتمثّل في (الشهود، والعقود، والاعترافات، والقوانين، والقسم) وهناك حجج صناعية محايثة لفن الخطابة وهي ثلاثة اجناس: حجة الباث والتي ينبغي أن يكون فيها الخطيب في موضع قبول عاطفي لدى المتلقي أثناء بث الخطاب، وتلقيه.[٥] وحجة المتلقي أي ميوله، ونوازعه وهي من أهم الحجج فالغاية في النهاية هي التأثير في المتلقي، والواقع أنّ جميع المقومات لا تكتسب الأهمية إلاّ عندما تجد الصدى المناسب، والمطلوب في المتلقي.[٦] وحجج الخطاب نفسه، ذكر (أرسطو) قوله: ((أنّني أُسمي المضمر قياسًا خطابيًا، وأسمّي الشاهد استقرارًا خطابيًا، كلّ الناس

---

(١) يُنظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي (بحث):١٠.

(٢) يُنظر: الحجاج عند أرسطو (بحث):١٣٢.

(٣) يُنظر: كتاب الخطابة:٢٢-٢٣.

(٤) م.ن:٢٤.

(٥) يُنظر: مدخل الى الحجاج (افلاطون، وأرسطو، وشايم بيرلمان) (بحث):٢٩.

(٦) يُنظر : م،ن٣٠.

يبرهنون على أنّ إثبات ما إمّا بالشاهد، وإمّا بالمضمر ولا يوجد غيرهما من أجل هذه الغاية)).[١]

ثالثًا: الحجاج في الفكر العربي قديمًا:

تضمّنت الدراسات العربية القديمة – على اختلافها – إشارات واضحة عن الحجاج فقد ورد بمعناه الحديث ولكن بتسميات مختلفة فالجاحظ (ت٢٥٥هـ) أطلق عليه اسم (البيان) في قوله: ((مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل، والسامع إنّما هو الفهم، والإفهام فبأي شيء بلغتَ الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع)).[٢]

فقد ارتبطت دراسة الحجاج عند الجاحظ بدراسته للبيان الذي اهتمّ به في الفهم، والإفهام فالبيان عنده هو المعرفة، والإقناع، مفهومًا، ووظيفةً في الوقت نفسه.[٣]

وذكره (أبو الوليد الباجي ت٤٧٤هـ) في حديثه عن الجدل وسبل الاستدلال والإقناع من ذلك قوله: ((وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا؛ لأنّه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال؛ ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة، ولا عُلم الصحيح من السقيم، ولا المعوج من المستقيم))[٤].

ونجد نظرة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) لا تختلف كثيرًا إذ يقرر بضرورة استعمال الحجاج بوصفه آلية الإقناع المثلى، وكان دقيقًا في تعريفه للجدل عادّا الاحتجاج وجهًا من وجوهه إذ يقول: ((وأمّا الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية، وغيرهم فإنّه لمّا كان باب المناظرة في الرّد، والقبول متّسعًا، وكل واحد من المناظرَينِ في الاستدلال، والجواب يُرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صوابًا، ومنه ما يكون خطأً فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابًا، وأحكامًا يقف

---

(١) مدخل إلى الحجاج (افلاطون ، ارسطو ، شايم بيرلمان):٢٩.

(٢) البيان والتبيين: ٧٦/١.

(٣) يُنظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها:١٩٤.

(٤) كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج: ٨.

المتناظران عند حدودها في الرد، والقبول وكيف يكون حال المستدل، والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً وكيف يكون مخصوصًا منقطعًا ومحل اعتراضه، أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال؟!؛ ولذلك قيل فيه إنّه معرفة بالقواعد من الحدود، والآداب – في الاستدلال – التي يتوصل بها إلى حفظ رأي، أو هدمه سواء أكان ذلك الراي من الفقه، أو غيره)).[١] ويمكن القول إنّ الحجاج في الفكر العربي القديم مثّل لونين من الخطابة هما: خطابة الجدل، والمناظرة، والخطابة الإفهامية التعليمية.[٢]

رابعًا: الحجاج في الفكر الغربي الحديث:

١-بيرلمان وتيتكاه:

مثّل كتاب (مصنّف في الحجاج-الخطابة الجديدة)١٩٥٨م للفيلسوفين البلجيكي(شايم بيرلمانshaim perleman، وزميله أولبيرت تيتكاهAlpert tyteca) أبرز محاولة لإخراج الحجاج من دائرة الخطابة والجدل ومن ثمَّ محاولة تجديد النظرية الحجاجية الأرسطية.[٣] فهما يريان أنّ الحجاج يتجاوز النظر فيما هو حقيقي، ومثبّت إلى تناول حقائق متعددة، ومتدرجة فمبعثه هو الاختلاف، وشرطه أن يقوم على موضوعية الحوار بحيث يقف فيه المحاجّ موقف الشريك المتعاون من أجل تحقيق غايته المتمثّلة في استمالة عقل المتلقي لما يُعرض عليه فيجعلها تخضع لما يطرح عليها، وأنْ يزيد في درجة خضوعها باعتماد وسائل التأثير في عواطفه، وخيالاته، ومن ثم إقناعه.[٤]

وقد جاء (بيرلمان) بما يسمى بـ(مدرسة البلاغة البرهانية) التي مثّلت المرحلة الأخيرة، أو المنظور البلاغي المستحدث لتطور البحوث البلاغية في اللسانيات

---

(١) المقدمة: ٢٠٣/٢.

(٢) يُنظر: البلاغة والاتصال:١٢٦.

(٣) يُنظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال (مصنّف في الحجاج-الخطابة الجديدة) (بحث): ٢٩٧.

(٤) يُنظر : في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيله في الدرس اللغوي القديم:١٠٧.

الحديثة هذه البحوث التي كان يُنظر إليها على أنّها علم قديم يرتبط بالإفراط من جهة، وبالكتب المدرسية من جهة ثانية.(١)

وقد عرّف كل من (بيرلمان وتيتكاه) الحجاج بانّه ((درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من طروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم)).(٢)

لقد انصبّ اهتمام الباحثين على محاولة إعادة توضيح الحجاج، وتبرئته من تهمة المغالطة، والتلاعب بمشاعر المستمعين، فضلًا على تخليصه من صرامة الاستدلال الذي يجعل المتلقي في حالة خضوع واستلاب، فالحجاج عندهما حوار يسعى إلى إحداث اتفاق بين الأطراف المتحاورة في جو من الحرية. والمعقولية أي أنّ التسليم برأي الآخر يكون بعيدًا عن الاعتباطية، واللامعقول اللذين يطبعان الخطابة عادةً، وبعيدًا عن الإلزام، والاضطرار اللّذين يطبعان الجدل، ومعنى هذا أنّ الحجاج؛ كونه حوارًا ينبذ العنف بجميع مظاهره.(٣)

٢-ديكرو:

يُعدّ اللساني الفرنسي (أزفالد ديكرو Osvald Decro) من مؤسسي نظرية الحجاج باعتبارها نظرية لسانية تهتم بدراسة الوسائل اللغوية، وإمكانات اللغة الطبيعية التي يمتلكها المتكلّم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهةً ما تمكّنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية؛ لأنّها تنطلق من فكرة مفادها: أنّنا نتكلّم بقصد التأثير(٤) ولذلك تؤدي اللغة عند ديكرو وظيفة حجاجية انطلاقًا من بنية أقوالها إذ يقول: ((إنّ التسلسلات الحجاجية الممكنة في خطاب ما ترتبط بالبنية اللغوية للأقوال وليس فقط بالأخبار التي تشتمل عليها)).(٥) في الحقيقة إنّ نظرية الحجاج انبثقت من صلب نظرية (الأفعال اللغوية) التي طرحها كلٌّ من (أوستن)، وتلميذه (سيرل) ضمن مجال

---

(١) يُنظر: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة (بحث):٦١.

(٢) الحجاج في القرآن:٢٧.

(٣) يُنظر: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات:١٢.

(٤) يُنظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل:٥٦.

(٥) تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية:١٢١.

الأفعال اللغوية، ثمّ طوّر (ديكرو) آراء هذين الباحثين التي تتعلّق بالأفعال اللغوية عن طريق إضافة فعلين هما: فعل الحجاج، وفعل الاقتضاء.[١] مما يعني أنّ الحجاج في رأيه لغوي (لساني)[٢] فعرّف (ديكرو) الإنجاز (التلفظ): ((بأنّه فعل لغوي موجّه إلى إحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية أي مجموعة الحقوق، والواجبات، ففعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطًا معينًا من النتائج بوصفه الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير عليه الحوار)).[٣] وبالمحصلة تغدو القيمة الحجاجية لقول ما نوعًا من الإلزام المتعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميه، واستمراره في حين تكون العلاقات القانونية (الواجبات، والحقوق) محددة للمجال الخطابي أي بكيفية تموضع المتكلم، والمخاطب فيُصبح الخطاب بذلك وسيلةً لا غاية.[٤]

ولهذا يميز(ديكرو) بين وظيفتين للغة هما: الوظيفة الحجاجية، والوظيفة الإخبارية، والإخبارية في نظره وظيفة ثانوية بالنسبة للحجاجية؛ إذ تتغير أسبقيتها حين نستعملها بشكل مباشر، وفي مقام معين مما يجعل كينونتها تتغير سيميائيًا[٥] وعليه فإنّ رؤية (ديكرو) للحجاج رؤية تداولية تهتم بدراسة استعمال الجملة في المقام من جهة، والسعي إلى البحث عن كلّ ماله صلة داخل بنية اللغة بالاستعمال البلاغي المحتمل من جهة اخرى ولهذا يُطلق عليها التداولية المدمجة.[٦]

---

(١) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء:١٢٢.

(٢) يُنظر: تلوين الخطاب:٢٠٦.

(٣) م.ن:١٦٥.

(٤) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية:١٢١.

(٥) يُنظر: تداولية الخطاب التفسيري(أطروحة):١٢١.

(٦) يُنظر: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات:٣٥٧.

خامسًا: الحجاج في الفكر العربي الحديث:

١-طه عبد الرحمن:

لقد امتازت نظرته للحجاج بطابعها الفلسفي؛ لكونه أستاذًا للمنطق، وفلسفة اللغة من جهة، وأنّه عوّل على أصول تعتمد الفلسفة، والمنطق كالمؤلفات العربية القديمة، والغربية القديمة، والحديثة من جهة أخرى، فضلًا على أنّ هذا النوع من الخطابات لابدّ وأن يكون فلسفيًا قبل كلّ شيء مادام يتعلق بالكلام، والخطاب.[١]

والحجاج عند (طه عبد الرحمن) مرتبط بالتواصل فلا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان.[٢] وقد ذكر بأنّ ((الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية بناءً على أنّه لا خطاب من غير حجاج)).[٣] وعرّفه بأنّه: ((كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها))[٤] وصنّفه إلى حجاج تجريديّ ينبني على اعتبار الصورة وإلغاء المضمون، والمقام، وحجاج توجيهيّ وهو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه المدعوم بنظرية (الافعال الكلامية)، والحجاج التقويمي هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرّد من نفسه ذاتًا ثانية يضعها موضع المعترض على دعواه.[٥]

٢-أبو بكر العزاوي:

يرى الدكتور (أبو بكر العزاوي) أنّ اللّغة تحمل بصفة ذاتية، وجوهرية وظيفة حجاجية، أي: إنّ هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية اللغة، وفي بنية الجمل، والأقوال نفسها، إذ نجدها في الظواهر الصوتية، والصرفية، والمعجمية، والتركيبية، والدلالية، والتداولية.[٦] وقدّم تعريفاً للحجاج هو ((تقديم مجموعة من الحجج، والأدلّة التي تخدم

---

(١) يُنظر: الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه:٦٠.

(٢) يُنظر: التواصل والحجاج:٥.

(٣) اللسان والميزان:٢١٣.

(٤) م.ن:٢٢٦.

(٥) يُنظر: الخطاب الحجاجي انواعه وخصائصه:٦٠-٦١.

(٦) يُنظر: الخطاب والحجاج:١١.

النتيجة المقصودة، والغاية المتوخاة))[١] وأكّد في مقدمة كتابه (اللغة والحجاج) فرضية الطبيعة الحجاجية للغة العربية، أراد من خلالها اكتشاف منطق اللغة، وبدت محاولته في هذا الكتاب للإحاطة بنظرية الحجاج في اللغة، ومثّلت امتدادًا لنظرية (الأفعال الكلامية) تناول فيها مفهوم الحجاج، وبعض الروابط الحجاجية في اللغة العربية فضلًا على تناوله الاستعارة الحجاجية.[٢] أمّا كتابه (الخطاب والحجاج) فقد ذكر فيه مجال الحجاج في قوله: ((ليس هو القول والجملة، وإنّما مجاله الحقيقي هو الخطاب والحوار حيث تتجلّى طرائق اشتغاله، وتظهر وجوه استعماله)).[٣]

ولعلّ الهدف من هذا الكتاب – وعلى وفق رأيه – هو دراسة الحجاج في مستوى الخطاب وهو ينطلق من مسلّمة مفادها أنّ كلّ النصوص، والخطابات التي تُنجز بوساطة اللغة الطبيعية حجاجية لكنّ مظاهر الحجاج، وطبيعته ودرجته تختلف من نصّ إلى نصّ، ومن خطاب إلى خطاب.[٤]

سادسًا: العلاقة بين الحجاج والإقناع:

يُعدّ الحجاج، والإقناع – بحسب (أوستن فريلي) وجهين لعملة واحدة، ولا يختلفان إلاّ في درجة التوكيد.[٥] ولأنّ هدف الإقناع هو إحداث تغيير في الموقف الفكري، والعاطفي للمتلقي،[٦] فلابدّ له من أدوات، وآليات، والحجاج هو من أهمّها ولذلك نلحظ هذا الترابط بينهما فالحجاج هو إجراءٌ، الهدف من ورائه حمل المخاطب على تبنّي موقف معين عن طريق اللجوء إلى حجج تستهدف إبراز صحة هذا الموقف وبالتالي فهو عملية إقناع المتلقي، والتأثير عليه، ونجاح الحجاج يكون في تحقيق الإقناع.[٧]

---

(١) الخطاب والحجاج:٩.

(٢) يُنظر: اللغة والحجاج:٦.

(٣) الخطاب والحجاج:١٢٥.

(٤) يُنظر: م.ن:١٣٠.

(٥) يَنظر: النص والخطاب والاتصال:١٩٢.

(٦) يَنظر: إشكالات النص:١٩٨.

(٧) يُنظر: دروس الحجاج الفلسفي:٥.

والجدير بالذكر هنا – وبما أنّ الاقناع مرتبط بالحجاج – أنّ الحجاج قد يكون جدليًا، وقد يكون خطابيًا وفي الجدل يسمّى الإقناع تبكيتًا؛ لأنّ المحاورة تقوم بين طرفين كلاهما يحاول تخطئة الآخر مستعملًا البرهانيات من مقدمات، وعلائق ونتائج صورية منطقية، أمّا الإقناع الواقع في الحجاج الخطابي، فهو تقريب بين المتكلّم، والمتلقّي وعليه فليس من الضرورة استعمال البرهانيات الصورية بحرفيتها، بل قد يستعملها بصورة بسيطة، أو يستعمل حِجَجًا مختلفة.[١] ((والحق أنّ ما يحدث في المداخلة من حجاج ليس مناقشة جدلية برهانية بالمفهوم المنطقي لهذه المناقشة ولكنّه جدلٌ، أو حجاجٌ خطابيّ يرمي إلى الإقناع، والاقتناع)).[٢]

ومن الأهمية بمكان التنبيه على أنّ النص الخطابي نصٌّ إقناعيّ، ولكنّه ليس بالضرورة أن يكون حجاجيًا؛ لأنّه لا يعبر عن قضية خلافية في كلّ الأحوال[٣].

– الاستراتيجية الحجاجية:

أولا: تعريفها:

وهي الاستراتيجية التي تشير إلى علاقة تخاطبية بين المتكلم، والمتلقي بشأن قضية معينة يدعم فيها المتكلم أقواله بالحجج، والبراهين لإقناع المستمع، ولها دورٌ فعّال في عملية الإقناع؛ كونها محاولة واعية من المتكلم للتأثير في المستمع سواء على مستوى سلوكه، أو على مستوى معتقداته، وقناعاته كما يتم وفقًا لهذه الاستراتيجية توظيف اللغة داخل بنية محددة تخضع لقواعد استدلالية، واستنتاجية ترتبط بالمتكلم، والمتلقي داخل سياق اجتماعي، ونفسي، وتواصلي محدّد له هدف، وغاية تتمثّل في التأثير على ذلك المتلقي.[٤]

ثانيا: مسوغاتها:

١. الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان.[٥]

---

(١) يُنظر: اشكالات النص:١٩٩.

(٢) م.ن: الصفحة نفسها.

(٣) يُنظر: النص والخطاب والاتصال:١٩٢.

(٤) يُنظر: الحجاج في خطاب النبي ابراهيم (ماجستير):١-٢.

(٥) يُنظر: المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي (بحث):٨.

٢. اتباع السبل الاستدلالية المتنوعة التي تتصف باللين من دون اتباع سبل الإكراه.
٣. أنّها الأقدر من باقي الاستراتيجيات على التأثير في اعتقاد المخاطَب، وتوجيه سلوكه لما تهبه الحجج من قوة في استحضار الأشياء.[١]

ثالثا: الاستراتيجية الحجاجية عند أبي حيّان التوحيدي:

أ-الآليات اللغوية:

١-الروابط الحجاجية:

وهي من الأدوات اللغوية التي تُمكّن من الربط الحجاجي بين قضيتين، وترتيب درجاتها بوصفها حجاجًا في الخطاب، ولمّا كانت للّغة وظيفةٌ حجاجية، وكانت التسلسلات الخطابية محدّدة بوساطة بنية الأقوال اللغوية، وبوساطة العناصر التي تمّ تشغيلها فقد اشتملت اللغات الطبيعية على مؤشرات لغوية خاصة بالحجج.[٢]

ولقد اشتملت اللغة العربية كغيرها من اللغات على عدد كبير من الروابط الحجاجية وتُعرّف بانّها: ((وحدات لغوية تصل بين ملفوظين، أو أكثر تم سوقهما ضمن الاستراتيجية الحجاجية))[٣].

وهذه الوحدات، أو الموجهات هي عناصر لسانية تقوم بتوجيه المنجز اللفظي نحو نتيجة معينة فدورها هنا يختلف عن دورها التقليدي المتمثّل في الإخبار وإنّما لها قيمة حجاجية وهي إحدى المميزات التي ينماز بها الخطاب الحجاجي ولاسيما وجود هذه الروابط بين الأقوال أنفسها، وقد لا تكون الروابط ظاهرة كما يشترط ذلك في الحجة، والنتيجة لأنّ السياقات المقامية هي التي تستدعي هذه العناصر، وتطلبها فالخطاب الحجاجي يسمّى حجاجيًا إذا توافر فيه ملفوظان اثنان يقوم كلٌّ منهما بتعزيز الآخر فيسمى الأول حجة، والثاني نتيجة.[٤] وينماز كل رابط بخصيصة معينة يستعملها المرسل لإيجاد علاقة حجاجية تفضي إلى نتائج محددة.[٥] من هذا

---

(١) يُنظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام:٣٨.
(٢) يُنظر: اللغة والحجاج:٢٦.
(٣) يُنظر: الحجاج في اللغة (بحث):٦٤.
(٤) يُنظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية:٢٣.
(٥) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه:٣١٨.

المنطلق خرجت اهتمامات (ديكرو) بالروابط؛ نظرًا لما تؤدّيه من دور كبير في الخطاب فهي تساعد على فهمه، وتأويله تقول (آن روبول) ((قد أدّت أعمال أزفالد ديكرو إلى شيوع الروابط التداولية، أو الخطابية في علم الدلالة، وفي التداولية أساسًا))[١] فضلًا على أنّ هذه الروابط تسهم في تسهيل عملية تأويل الخطاب، وتوجيهه.[٢]

وقد اقترح (ديكرو) وصفًا حجاجيًا جديدًا لهذه الروابط، والأدوات؛ كونها بديلًا للوصف التقليدي مثال ذلك كلمة (حتى) فدورها لا يقتصر على إضافة معلومة للخطاب بل إدراج حجة جديدة أقوى من التي قبلها فتضفي قوة حجاجية مكثّفة.[٣]

يقول (ديكرو) ((لنأخذ ملفوظة (كتب جاك فروضه حتى إنّه تناول حساءه دون عبوس) فإنّ وجود (حتى) يعني أنّ الجملة الثانية هي الأكثر إذهالًا، وأكثر مفارقةً من الجملة الأولى)).[٤]

وقد ميّز الباحثون بين مجموعة من أهم الروابط، نذكر ما ورد منها عند أبي حيّان وعلى النحو الآتي:

أ. الروابط المُدرِجة للحجج:

– لأنّ:

تعدّ ألفاظ التعليل من الأدوات اللغوية التي يستعملها المتكلّم لتركيب خطابه الحجاجي، وبناء حججه، ويعدّ الرابط (لأنّ) من أهم ألفاظ التعليل، ويستعمل لتبرير الفعل، وتفسيره ومن أمثلتها عند أبي حيّان التوحيدي ما جاء في تفسيره لحديث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ((الدال على الخير كفاعله)).[٥]

يقول: ((**هذا حثٌّ على الخير، وتشبيه لمن وطّأ الطريقَ إليه، ودلّ عليه بمن تفرّد بفعله، واشتراك بين من دلّ، ومن قَبِل ليقع التعاطف، ويعمّ التلاطف، ويكونوا**

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل:١٦٩.

(٢) يُنظر: م.ن:١٧٣.

(٣) يُنظر: الحجاج في الدرس اللغوي الغربي:١٥٥.

(٤) يُنظر: م.ن:١٥٦.

(٥) صحيح مسلم (إمامة):١٣٣٠.

كنفس واحدة ... وإنّما صحّ التشبيه ؛لأنّ الدلالة من الدالّ على الخير خيرٌ، وقبول الدلالة من القابل خير، فكأنّ هذا بما دلّ، وهذا بما قبل فاعلان خيرًا)).[١]

وقوله: حينما وصف من يسمع الغناء، فيقال له: يا أبا القاسم كلّ هذا يجري لسماع الغناء فيقول: **((يا سيدنا هذه سورة إذا استولت على أهل مجلس وجدتْ لها عدوى لا تُملك، وغاية لا تُدرك؛ لأنّه قلّما يخلو الإنسان من صبوة، أو صبابة، أو حسرة على فائت، أو فكر في متمنّى))**[٢].

وقوله: في المدح، والذمّ **((وهذه آفات متداركة لا سبيل إلى التفصّي منها، والسلامة عليها وذاك؛ لأنّ الكلام في حمد من يُحمد، وذم من يُذمّ، إنْ نُمّق تنميقًا دخله التزيّد والمتزيّد مقليٌّ، وإنْ أُرسل على غِراره شانه التقصير، والمقصّر معجّز))**.[٣]

وبملاحظة الأمثلة السابقة نجد أنّ النتائج، والحجج، والروابط جاءت على النحو الآتي: ففي المثال الأول:

النتيجة: صحّة تشبيه الدال على الخير بفاعله للحثّ على الخير

الرابط: لأنّ

الحجة١: الدلالة من الدال خير

الحجة٢: قبول الدلالة من القابل خير

وفي المثال الثاني:

النتيجة سورة لها عدوى لا تُملك، وغاية لا تُدرك

الرابط: لأنّ

الحجة: قلّما يخلو الإنسان من صبو، أو صبابة، أو حسرة ...

أمّا المثال الثالث:

النتيجة: المدح، والذمّ آفتان

الرابط: لأنّ

الحجة١: أنّ الكلام إذا نُمّق دخله التزيّد والمتزيّد مقليٌ

---

(١) البصائر والذخائر: ٢١٩/٧.

(٢) الرسالة البغدادية:٢٤٦.

(٣) أخلاق الوزيرين:٣٦-٣٧.

الحجة٢: أنّ الكلام إذا أُرسِل على غِراره شانه التقصير

فالرابط الحجاجي (لأنّ) في الأمثلة السابقة ربط بين النتائج، والحجج؛ وبسبب دلالتها التفسيرية التعليلية نجدها قد تموضعت تمامًا بعد إلقاء النتائج مرتبطةً مباشرةً بالحجج؛ كونها هي ذاتها تفسير، ومبرر لحصول النتائج فاستعمال أبي حيّان للرابط (لأنّ) هو للتعليل، ولتحقيق الانسجام في خطابه وصولًا لإقناع المتلقي، ومن ثَمّ يكون هذا الرابط قد جاء كأداة عِلّيّة، واستنتاجية في الخطاب الحجاجي.

- **لام التعليل:**

وتعرّف بأنّها اللام الدالة على أنّ ما قبلها سبب لما بعدها[١] وتستعمل حجاجيًا بالوصل بين الحجة، والنتيجة، كما أنّها تستعمل لتقديم حجج الدعم قصد تحقيق النتيجة، إذ يستعمل المرسل ألفاظ التعليل لربط النتائج بأسبابها في تركيب خطابه الحجاجي، وتعدّ مؤشرات على توظيف الاستراتيجية الإقناعية.[٢]

ومن الأمثلة على هذا الرابط عند أبي حيّان قوله: **((والعلم كلّه -أبقاك الله- قد دخله الضيم، وغلب عليه الذهاب لقلّة الراغبين، وفقد الطالبين، وإعراض الناس عنه أجمعين))**.[٣]

وقوله: **((فإنّي قد وجدتُ للقوم في هذا الباب حيرةً عارضةً، أو راكدةً لا يستطيعون التفصّي عنها، ولا يقدرون على البراءة منها للضلال الذي قد لزمهم، والأصنام التي قد تربّعت في نفوسهم، والأمثلة التي قد خالطت عقولهم، والأفياء التي استصحبوها من احساسهم))**.[٤]

وقوله: **((اللهم إنّا نكاتب الخلق التي أظهرتها في آفاق ملكوتك ليكونوا شفعاءنا عندك، ونستدعي من أحوالهم خيرًا عنك))**[٥].

---

(١) يُنظر: الجنى الداني:١٤٤.

(٢) يُنظر: عدة الأدوات الحجاجية (بحث):٤٠٥.

(٣) أخلاق الوزيرين:٣٢٨.

(٤) الامتاع والمؤانسة:٤٦٣.

(٥) الاشارات الإلهية:٣٣٤.

وبالنظر في الأمثلة الآنفة الذكر نجد أنّ أبا حيّان استعمل الرابط (لام التعليل) للربط بين الحجة، والنتيجة، فضلًا على تقديم حجج الدعم قصد تحقيق النتيجة، وقد جاءت النتائج، والحجج على النحو الآتي:

في المثال الأول:

النتيجة: دخول الضيم على العالم وغلبة الذهاب عليه.

الرابط: لام التعليل.

الحجة١: قلّة الراغبين.

الحجة٢: فقد الطالبين.

الحجة٣: إعراض الناس عنه أجمعين.

أمّا في المثال الثاني:

النتيجة: وجود حيرة عارضة، أو راكدة لا يستطيع القوم الخروج منها، ولا البراءة منها.

الرابط: لام التعليل.

الحجة١: ضلال لزمهم.

الحجة٢: أصنام تربّعت في نفوسهم.

الحجة٣: أمثلة خالطت عقولهم.

الحجة٤: أفياء استصحبوها من احساسهم.

وفي المثال الثالث:

النتيجة: إنّا نكاتب الخلق التي أظهرتها في آفاق ملكوتك.

الرابط: لام التعليل.

الحجة١: يكونوا شفعاءنا عندك.

الحجة٢: نستدعي من أحوالهم خيرًا عنك.

فقد استعمل أبو حيّان الرابط (لام التعليل) للربط بين الحجة، والنتيجة، وتقديم الحجج لتدعيم قصده، وتحقيق هدفه من الخطاب وهو إقناع السامع، والدفع نحو انسجام النص، وتماسك أجزائه.

ولعلّ استعمال أبي حيّان التعليل عن طريق الرابط (لام التعليل)، والرابط (لأنّ) كان يتوخّى من ورائه التفسير، وبيان تبعية الحكم لعلّته؛ لترابطهما في الذهن فتجيء العلّة، ومعلولها مما يزيد من قناعة السامع بالحكم.[١] فربط النتيجة بالحجة، وبصورة تراتبية يجعل من التعليل الوظيفة الأساسيّة للحجج[٢].

فالرابطان (لأنّ، ولام العليل) وظّفهما التوحيدي وجعل الحجج والنتائج تترابط فيما بينها بعلاقة سببية تكون مقنعة للمتلقي فهما يتجاوزان الربط إلى جعل الحجة سببًا وعلّةً تُفضي إلى النتائج المحصّل عليها، ومن ثَمّ إيجاد علاقة بين الأشياء من طريق التسليم بأسباب معينة تؤدي إلى نشوئها.[٣] وبهذا يكون أبو حيّان قد انطلق من أرضية بنى عليها أدلّته التي ساعدته على تقوية حججه لإقناع المتلقي بقبول النتيجة.

ب. الروابط المدرجة للنتائج:

هيكلية الحجاج التواصلية، والتفاعلية تقضي الإفصاح عن النتائج؛ لأنّ هذا العمل له أثرٌ كبير في المخاطب، ويكون ذلك من طريق مجموعة من الروابط ذات الدلالة الاستنتاجية.

- **إذن:**

ومن ضمن هذه الروابط (إذن) وأصلها أن تكون للجواب، والجزاء.[٤] ويقصد بالجواب أن تقع في كلام هو جواب عن كلام سابق، ملفوظ أو مقدّر وهي كذلك في كل موضع.[٥] أمّا الجزاء فالمقصود به أن يكون مضمون الكلام الذي هي فيه جزاء لما قبله مسببًا عنه، مرتبطًا به.[٦] وحتى تتحقق الوظيفة الحجاجية في هذا الرابط يجب أن يكون ما بعده متسببًا عمّا قبله ويكمن هذا في اتجاهين:

---

(١) يُنظر: المنطق الفطري في القرآن الكريم:٩٥.

(٢) يُنظر: الجدل في القرآن الكريم:٢١٥-٢١٦.

(٣) يُنظر: هندسة الإقناع:١٩٠.

(٤) يُنظر: الكتاب: ١٢/٢، والتبصرة والتذكرة:٣٩.

(٥) يُنظر: يُنظر: حاشية الصبان على الأشموني: ٢٩١/٣.

(٦) يُنظر: شرح التصريح على التوضيح: ٢٣٤/٢.

١-أن يدلّ على إنشاء الارتباط والشرط، بحيث لا يفهم الارتباط من غيرهما فإذا قال (أزورك) فقلت (إذن أكرمك) إنّما أردت أن تجعل الزيارة شرطًا للإكرام وسببًا له، ولو سقط لم يُفهم الارتباط.

٢-أن يكون مؤكّدًا لجواب ارتبط بمتقدّم، أو منبّه على سبب حصل في الحال، نحو (إنْ أتيتني إذن آتك) ووالله إذن أفعل، وإذن أظنّك صادقًا تقوله لمن حدّثك، ولو سقط الرابط (إذن) لفهم الارتباط.(١)

ونجد أنّ أبا حيّان التوحيديّ وظّف هذا الرابط (إذن) لإظهار حاصل القول (النتيجة)، فعملُها الحجاجي هو الربط بين الحجة والنتيجة، أي أنّه يدرج النتيجة بعده، ويمكن أن نتبين ذلك مما يأتي:

قال أبو حيّان **((يا هذا إلى ها هنا امتدّ نَفَسي فيما بدأتُ به من إيقاظك، وزجرك، وتنبيهك، وقد قيل: كلام الحكماء إذا كان صوابًا كان دواءً، وصواب ما سمعت غيرُ خاف، فإذن هو دواء، وانت بك داء فاجعله دواء لدائك فعن قليلٍ ما تصير إلى شفائك))**.(٢) وقوله:

((لأنّك جاهل بحقيقة ما غُيّب عنك فكيف تجنح إلى خفيٍ عنك، وتستوحش من جليٍ عندك، إنّك إذن لمن الجاهلين)).(٣) وقوله:

((واستيقن أنّ الكتاب قد حوى من الذّهن لواقحه، ومن العقل قرائحه ... ومن الأخلاق محاسنها، ومن العرب بيانها، ومن الفرس سياستها، ومن اليونان دقائقها، ومن الشريعة رقائقها، فهو إذن للكليل شحذٌ، وللوسنان يقظة، وللعقل سمة... وللأديب عدّة، وللمجهول علامة... وللناسك بصيرة، وللعائل نصيحة))(٤).

وقد جاءت الحجج، والنتائج على النحو الآتي:

ففي المثال الأول:

الحجة١: امتدّ نفسي فيما بدأت به من إيقاظك، وزجرك، وتنبيهك.

---

(١) ينظر: معترك الأقران: ٥٣/٢، والجنى الداني: ٣٥٧-٣٥٨.

(٢) الإشارات الإلهية:٩٠.

(٣) البصائر والذخائر: ٨/٢.

(٤) م،ن: ١١/٦.

الحجة٢: كلام الحكماء إذا كان صوابًا كان دواءً.

الحجة٣: صواب ما سمعت غير خاف.

الرابط: إذن.

النتيجة: هو دواء وانت بك داء.

المثال الثني:

الحجة: إنّك جاهل بحقيقة ما غُيّب عنك.

الرابط إذن.

النتيجة: إنّك لَمن الجاهلين.

أمّا المثال الثالث:

الحجة: أنّ الكتاب قد حوى من الذهن لواقحه، ومن العقل قرائحه ومن الأخلاق محاسنها...

الرابط: إذن

النتيجة: فهو للكليل شحذٌ، وللوسنان يقظةٌ، وللعقل سمة ...

الملاحظ في الأمثلة السابقة أنّ أبا حيّان قدّم مجموعة من الحجج مع الرابط (إذن) فتولّدت (علاقة استنتاجية) وذلك ((انّ المتكلم يستنتج النتيجة من حجة يقدّمها، فإذا بنتيجته متولّدة من رحم الدليل، أو البرهان ناشئة عنه عائدة إليه))[١].

وكأنّه مهّد بالحجج للتصريح بحاصل القول (النتيجة) فالحجج المقدّمة سوّغت، ودعمت دعوى المتكلّم ممّا يجلب انتباه المتلقي. ويقويّ تركيزه فتكون الحجج أجدى، وأنفع فيحدث التأثير، والإقناع، فأبو حيّان وظّف الرابط (إذن) ليكون ما بعده متسببًا عما قبله، فضلًا على أنّ ما وفّره الرابط هو عدم وقوع الشك، والتأويل، وهذا يدخل في صلب الحجاج، ويكون المحاجّ قد راعى مبدأ الوضوح، والإفهام في تقديم الحجة التي تستوجب مراعاة المقام.[٢]

---

(١) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه:٣٤٢.

(٢) يُنظر: النقد النصي وتحليل الخطاب:٢٥٨.

- **لهذا:**

يتضح الدور الحجاجي للرابط (لهذا) بربطه بين الحجة، والنتيجة، ويمكن لنا أن نتلمس ذلك فيما ورد من أمثلة عند أبي حيّان منها قوله:

((الاستطاعة عند المعتزلة قبل الفعل، زعموا كما أنّ العين قبل الإدراك، واليد قبل الضرب وقال خصومهم: الاستطاعة مع الفعل ... والاستطاعة هي عواريٌ عند الإنسان تزداد مرّةً بامتداد المعير، وتنقص على ذلك التقدير، ولهذا لم يكن الإنسان قادرًا على الإطلاق، ولا عاجزًا على الإطلاق))[١].

وقوله: **((إنّ أهل البرّ، وأصحاب الصحارى الذين وِطاؤهم الأرض، وغطاؤهم السماء هم في العدد أكثر وعلى بسط الأرض أجول، ومن الترفه، والرفاهية أبعد، وبالحول، والقوة أعلق، وإلى الفكرة، والفطنة أفزع ... ولهذا يُقال: عيب الغنى أنّه يورث البلادة، وفضيلة الفقر أنّه يبعث الحيلة؛ وهذا معنى كريم لا يقرّ به إلاّ كلّ نقّاب عليم))**[٢] وقوله:

((وإذا انكشفت لك أيضًا الفضائل بأسمائها الخاصة، وحدودها العامّة، فقد انكشفت لك أيضًا الرذائل بأسمائها الخاصة، ورسومها العامة أعني أنّك إنْ نظرت إلى الشجاعة التفتّ إلى الحسن، وإذا أشرت إلى الكرم فقد أومأت إلى اللّؤم، وإذا ذكرت الحلم فقد زهّدت في السفه ... فلهذا قلت: إنّ بانكشاف الفضائل انكشاف الرذائل))[٣].

وظّف أبو حيّان في خطاباته الرابط (لهذا) حجاجيًا، وذلك بربطه بين الحجج، والنتائج ففي المثال الأول حمل الخطاب حجتين، ونتيجتين مستنتجتين منهما

الحجة١: الاستطاعة تزداد بامتداد المُعير

الحجة٢: تنقص على ذلك التقدير

الرابط: لهذا

النتيجة١: لم يكن الإنسان قادرًا على الإطلاق

---

(١) البصائر والذخائر: ٨/١٢٥.

(٢) الامتاع والمؤانسة:٨٢.

(٣) الإشارات الإلهية:١٢٨.

النتيجة٢: لم يكن عاجزًا على الإطلاق

وفي المثال الثاني كان البناء الحجاجي فيه على النحو الآتي:

الحجة١: هم في العدد أكثر وعلى بسط الأرض أجول

الحجة٢: من الترفه والرفاهية أبعد

الحجة٣: بالحول والقوة أعلق

الحجة٤: إلى الفكرة والفطنة أفزع

الرابط: لهذا

النتيجة١: عيب الغنى أنّه يورث البلادة

النتيجة٢: فضيلة الفقر أنّه يبعث الحيلة

أمّا المثال الثالث فقد جاء على النحو الآتي:

الحجة١: انكشاف الفضائل بأسمائها الخاصة وحدودها العامة

الحجة٢: انكشاف الرذائل بأسمائها الخاصة ورسومها العامة

الرابط : فلهذا

النتيجة: أنّ بانكشاف الفضائل انكشاف الرذائل

في الامثلة السابقة يتبيّن لنا أنّ الرابط الحجاجي (لهذا) قد شكّل نتيجة أولى، ونتيجة ثانية، فالأمثلة تحمل حجة، ورابطًا حجاجيًا مُدرِجًا للنتيجة، والنتيجة مستخلصة من الحجة، وقد وظّف أبو حيّان هذا الرابط؛ لكون البنية الحجاجية التحاورية، والتفاعلية تستوجب الإفصاح عن النتائج في الغالب؛ فهذا الإجراء له أثر في المتلقي، فتولّدت عن هذا الرابط علاقات استنتاجية وهي أنّ المتكلّم يستنتج النتيجة من حجة يقدّمها، فإذا بنتيجة متولّدة من الدليل نفسه، ناشئة عنه عائدة إليه.

ج. روابط التعارض الحجاجي:

من الروابط الحجاجية التداولية ذات الاهتمام الواسع في اللسانيات الحديثة ولاسيما عند الباحثَيْن (ديكرو، انسكومبر) هما (لكن، وبل) فقد ميّزا بين الاستعمال الحجاجي، والإبطالي للأداة (mais) وإذا كانت اللغة الفرنسية تشتمل على أداة واحدة تستعمل للحجاج، والإبطال فإنّ لغات أخرى تتوافر على أداتين: أداة للحجاج، وأخرى للإبطال كـ(الإسبانية – sino, pero–)، والألمانية (sondern, Aber)، والعبرية

(ilay, Aval) والعربية (لكن، بل) واللغة العربية وإنْ كانت تلتقي مع الإسبانية، والألمانية في توافرها على أداتين إلاّ أنّها تختلف عنهما في أنّ (بل، لكن) تستعملان للحجاج، والإبطال، أمّا في اللغتين الإسبانية، والألمانية، فواحدة للحجاج ، وأخرى للإبطال، وتلتقي مع الفرنسية في ذلك.(١)

ويمكن توضيح هذا الوصف الحجاجي على النحو الآتي:

إنّ التلفظ بأقوال من نمط ((أ لكن ب)) يتطلب أمرين:

١-أنّ المتكلّم يقدّم (أ و ب) بصفتهما حجتين الأولى موجهة نحو نتيجة معينة (ن)، والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المعاكسة لها (لا – لكن).

٢-يقدم المتكلم الحجة الثانية بوصفها الأقوى أولًا؛ ولأنّها توجه القول، والخطاب برمته ثانيًا.(٢) فالرابطان الحجاجيان (بل، ولكن) يعملان تعارضًا حجاجيًا بين ما يتقدمهما، وما يليهما ويمكن لنا أن نتبين ذلك عن طريق الشواهد التطبيقية عند أبي حيّان.

- **لكن:**

تعبّر لكن – بنوعيها المخفّفة، والمثقّلة، الحجاجية، والإبطالية دائمًا – عن معنى التعارض، والتنافي بين ما قبلها وما بعدها، وهو ما أكّده جلّ النحاة.(٣)

وردت في خطابات أبي حيّان في مواضع متعددة منها قوله:

((وأربحهم بضاعة من كانت محاسنه غامرةً لمساويه، ومناقبه ظاهرةً على مثالبه ... والمحتجّ عنه أنبه من المحتجّ عليه، والنافح عنه أصدق من النافح فيه وليس العمل على عدد هذه وهذه، ولكن على أن لا يكون مع صاحب المحاسن من الخصال اللّئيمة ما يحبطها، ويجتاحها، ويختلعها، ويأتي عليها وإن صغُر جِرم تلك الخَلّة))(٤) وقوله:

---

(١) يُنظر: اللغة والحجاج: ٥٧، ٥٨.

(٢) يُنظر: م،ن:٥٩-٦٠.

(٣) يُنظر: معاني القرآن: الفراء: ٤٦٥/١، والمفصل في صنعة الإعراب:١٣٩، وشرح المفصل ٧٩/١، ومغني اللبيب: ٣٢٢/١، وهمع الهوامع: ١٣٣/١.

(٤) أخلاق الوزيرين:٢٦-٢٧.

((مرّ لي من كلام لبعض الحكماء أنا أرويه لك ههنا لا لأجدد به عليك ما ليس عندك، ولكن لأُذكّرك، فإنّ الإذكار بالخبر بعثٌ على الاهتمام به ،والبعث عليه سلوك لطريقه))[١] وقوله:

((اللهمّ إنّا نسألك ما نسأل لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك، وحسن أفعالنا معك، وسوالف إحساننا قبلك؛ ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ... ورحمتك الواسعة))[٢].

يظهر دور الرابط الحجاجي (لكن) في هذه الخطابات واضحًا فالخطاب الأول تضمّن عبارتين الأولى في قوله: أربحهم بضاعةً ... شكّلت نتيجة دُعّمت بمجموعة من الحجج (محاسنه غامرة لمساويه، ومناقبه ظاهرة الخ)، أمّا العبارة الثانية التي تلت الرابط (لكن) وهي ضرورة أن لا يكون مع صاحب المحاسن من الخصال اللئيمة، فهذه الحجة تخدم النتيجة المتمثلة بعدم ربح بضاعة من يملك الخصال اللئيمة، فهي حجة أقوى من الحجة الأولى؛ إذ غيرت وجهة الخطاب برمته فهناك تعارض حجاجي بين الحجة التي سبقت الرابط (لكن) والحجة التي جاءت بعده فجاء البناء الحجاجي على النحو الآتي:

الحجة١: محاسنه غامرة لمساويه

الحجة٢: مناقبه ظاهرة على مثالبه

الحجة٣: المحتجّ عنه أنبه من المحتجّ عليه

الحجة٤: النافح عنه أصدق من النافح فيه

النتيجة: أربحهم بضاعة

الرابط: لكن

الحجة: ضرورة ألاّ يكون مع صاحب المحاسن من الخصال المذمومة

النتيجة: أكسدهم بضاعة

وقد تستعمل (لكن) لتوضيح سبب الحجة التي سبقتها كما في الخطاب الثاني:

---

(١) الصداقة والصديق:٣٣.

(٢) الإشارات الإلهية:٤٧.

الحجة١: لا لأجدد به عليك ما ليس عندك

الرابط: لكن

الحجة٢: لأذكّرك ...

فقد تضمّن هذا الخطاب حجتين يربط بينهما الرابط (لكن) وبدا واضحًا أنّ الحجة الثانية بيّنت أنّ سبب رواية كلام العرب لم تكن لتجديد ما لم يمتلكه المتلقي، إنّما هي لتذكيره.

وفي الخطاب الثالث جاء البناء الحجاجي على النحو الآتي:

الحجة١: لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك.

الحجة٢: ولا حسن أفعالنا معك.

الحجة٣: ولا سوالف إحساننا قبلك.

الرابط: لكن

الحجة١: عن ثقة بكرمك.

الحجة٢: رحمتك الواسعة.

ففي هذا الخطاب نجد (لكن) ربطت بين ثلاث حجج سبقتها خدمت نتيجةً دلالتها من قبيل تأنيب الذات، والشعور بالقصور، وبين حجتين جاءتا بعدها تخدمان نتيجة معارضة للنتيجة الأولى من قبيل ثقة بكرم الله، ورحمته، وحسن التوكّل عليه سبحانه وتعالى، وهنا تكون الحجة الثانية أقوى من الأولى، معارضة لها فتكون النتيجة المضادة هي التي يؤول إليها الخطاب برمّته، ويمكن تمثيل ذلك على النحو الآتي:

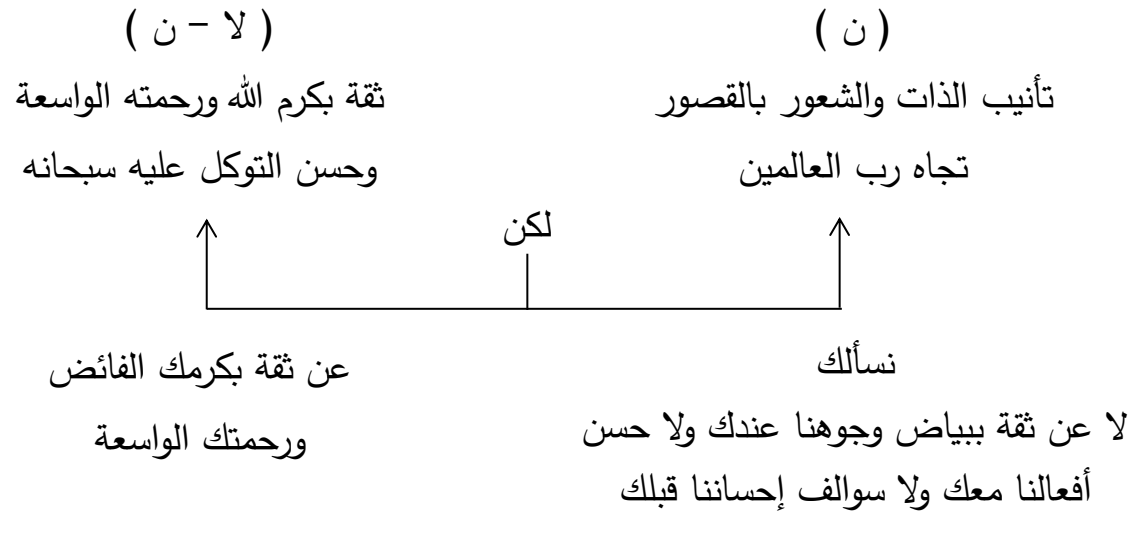

- **بل:**

يستعمل للإبطال، والحجاج مثل (لكن) وهو من الحروف الهوامل ومعناه الإضراب عن الأول، والإيجاب للثاني.(١) وتكمن حجاجيته في أنّ المتكلم يرتب به الحجج بما يمكن تسميته بالحجج المتعاكسة؛ لأنّ بعضها منفي، والآخر مثبت، غير أنّ استعمال الرابط (بل) لجملتين مثبتتين يجعل الحجاج يسير في سلّم حجاجي واحد، أمّا الإضراب بـ(لكن) فهو يؤلّف بين حجتين من سلّمين مختلفين.(٢)

ويمكن لنا تبيّن الدور الحجاجي للرابط (بل) من خلال الاستشهادات التطبيقية عند أبي حيّان التوحيدي منها قوله:

((ولا تكلّف أحداً إلاّ ما له طريق إلى طاعتك، وإجابتك، وعنده الحجة القوية في تقديم أمرك ... ولا يخرج معه إلى محادّتك، ومخالفتك لأمر يُعْوِز، وحادث يَعرض ... وحاسد يطعن ... وسفيه يتهانف، وصدر يحرج، ولسان يتلجلج بل يتلقى أمرك بالقبول، وينشط لخدمتك بالتأميل...))(٣).

وقوله: **((وسردت في حواشيه أعيان الأحاديث التي خدمتُ بها مجلس الوزير، ولم آل جهدًا في روايتها، وتقويمها، ولم أحتج إلى تعمية شيء منها، بل زبرجتُ كثيرًا منها بناصع اللفظ مع شرح الغامض، وصلة المحذوف، وإتمام المنقوص))**.(٤)

وقوله:

((والحق لاينسب إلى شيء، بل كلّ شيء ينسب إليه، ولا يُحمل على شيء، بل كلّ شيء يُحمل عليه، وهو متفق من كلّ وجه)).(٥)

وقد جاء البناء الحجاجي في الامثلة السابقة على النحو الآتي:

ففي المثال الأول:

الحجة١: لا تكلّف أحدًا إلا ماله طريق إلى طاعتك وإجابتك

---

(١) يُنظر: معاني الحروف:٧١.

(٢) يُنظر: نظرية الحجاج في اللغة (بحث):٣٦٧.

(٣) يَنظر: أخلاق الوزيرين:٢.

(٤) الإمتاع والمؤانسة:١٩٨.

(٥) البصائر والذخائر: ٧٠٦/١.

الحجة٢: وعنه الحجة القوية .

الحجة٣: ولا يخرج معه إلى محادّتك ومخالفتك

الرابط: بل

الحجة١: يتلقى أمرك بالقبول

الحجة٢: وينشط لخدمتك بالتأميل.

الحجة٣: ويرى أنّ ما يناله من رِضاك فوق ما يبذله في جهده لك.

المثال الثاني:

الحجة١: ولم آل جهدًا في روايتها وتقويمها.

الحجة٢: ولم أحتج إلى تعمية شيء منها.

الرابط: بل

الحجة١: زبرجتُ كثيرًا منها بناصع اللفظ

الحجة٢: مع شرح الغامض وصلة المحذوف، وإتمام المنقوص.

المثال الثالث:

الحجة١: الحق لا يُنسب إلى شيء

الحجة٢: لا يحمل على شيء

الرابط: بل

الحجة١: كل شيء ينسب إليه

الحجة٢: كل شيء يُحمل عليه

بملاحظة الحجج السابقة نجد أنّ أبا حيّان قد أقام علاقة حجاجية مركّبة من علاقتين حجاجيتين بين الحجة التي قبل الرابط وبين الحجة التي تأتي بعد الرابط معولًا في ذلك على الرابط (بل) ففي المثال الأول جاءت الحجج التي سبقت الرابط تخدم نتيجة من قبيل أنّ أبا حيّان يحثّ مخاطَبه إلى عدم الاعتماد على من لا يطيعه، أو يتحمّله، ويصبر عليه، أو من يخالفه لأمر ما، بينما جاءت الحجة الثانية الواقعة بعد الرابط تخدم نتيجة من قبيل الحثّ على مصاحبة من يتلقى أمرك بالقبول، وينشط لخدمتك، ويُوفي لك فتكون الحجة الثانية قد سارت في اتجاه معاكس للحجة الأولى.

والشيء نفسه ينطبق على المثالين الثاني، والثالث إذ نجد أنّ الرابط (بل) يربط بين حجتين متضادتين لكن الحجة الواقعة بعد الرابط هي الحجة الأقوى، والنتيجة التي تخدمها (المضادة) (لا – ن) هي النتيجة المعتمدة.

د. روابط التساوق الحجاجي:

– حتى:

يشكل المتلقي ركنًا أساسيًا من أركان عملية بناء الخطاب؛ لذا وجب التركيز عليه، وملاحظته عند بناء الخطاب، أو تحليله، فالمتغيرات الحاصلة في استراتيجيات الخطاب تحصل نتيجة لمسايرة المتلقي، والوصول به إلى أعلى درجات الإقناع ولاسيما إذا ما علمنا أنّ الحجج المقدّمة من قبل المرسل تُفضي إلى نتائج متباينة من حيث القوة، والضعف ((فالحجج اللغوية ليست متكافئة، ولا متماثلة، وتخالف في هذا البراهين المنطقية، والرياضية فالحجة اللغوية لها قوة معينة، وتحتل مرتبة معينة من المراتب الحجاجية فهناك الحجج القوية، والحجج الأقوى، وهناك الحجج الضعيفة، والحجج الأضعف))[١] ومن الروابط التي تساعد في الحركة، والانتقال من الحجة الضعيفة إلى الأقوى الرابط (حتى)؛ كونه يربط بين حجتين، أو أكثر لها الوجهة الحجاجية نفسها، ويخدمان نتيجة واحدة.[٢] وهذا يتفق مع ما قدمه كل من (ديكرو، وأنسكومبر) في وصفهما للأداة (mene) في اللغة الفرنسية المقابلة لـ(حتى) الحجاجية في اللغة العربية فأقرّا بأنّ ((الحجج المربوطة بوساطة هذا الرابط ينبغي أن تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة أي: أنّها تخدم نتيجة واحدة، والحجة التي ترد بعد (حتى) تكون هي الأقوى، وهذا ما قصده النحاة بقولهم ((بأن يكون ما بعدها غاية لما قبلها))[٣] لذلك فإنّ القول المشتمل على الأداة (حتى) لا يقبل الإبطال، والتعارض الحجاجي))[٤].

---

(١) اللغة والحجاج:٨٨.

(٢) يُنظر: الوظيفة وتحولات البنية:١٠٩.

(٣) رصف المباني في شرح حروف المعاني:٢٥٧، وينظر: الكتاب: ٤٩/١، والمقتضب:٣٨/٢، والمقرب: ١٩٨/١.

(٤) اللغة والحجاج:٧٣.

ولنا أن نمثّل لها مما ورد من توظيف لهذا الرابط عند أبي حيّان التوحيديّ فقد استغل التوحيديّ هذا الرابط في سياقات حجاجية كثيرة في خطاباته منها:

قوله: **((اللهمّ ... لذّذنا بحلاوة مناجاتك، وأهّلنا لرفع حجابك حتى لايجري على ألسنتنا ذكرهم بخير يكون شاغلًا عنك، ولا بشرّ يكون مبعدًا عنك))**[١].

وقوله: **((ودين الله محميّ الحريم عزيز الجانب، لا يُتلقّى بالتعسّف، والتكلّف، ولا يُتناول بالتقعّر، والتنطّع وما شمت الحاسد المرصد، والطاعن الملحد، حتى رأى علماء الدين، وأنصار الشريعة يموجون في نِحَلِهم، ويكفّرون أهل القبلة على اعتقادهم، ويحيّرون المسترشد، ويغوون الرشيد))**[٢].

وقوله: **((وهذه الجملة – أكرمك الله – أنت أحوجتني إليها، وجشّمتني صعبها حتى نشبتُ بها قائمًا، وقاعدًا، وتقلّبت في حافاتها مختارًا، ومضطرًا، وتصرفت في فنونها محسنًا، ومسيئًا))**[٣].

نجد الرابط الحجاجي في هذه الأمثلة قد ربط بين مجموعة من الحجج ففي المثال الأول كان البناء الحجاجي على النحو الآتي:

الحجة١: لذّذنا بحلاوة مناجاتك.

الحجة٢: أهّلنا لرفع حجابك.

الرابط: حتى

الحجة١: لا يجري على ألسنتنا ذكرهم بخير يكون شاغلًا عنك.

الحجة٢: ولا بشرّ يكون مبعدًا منك.

وفي المثال الثاني:

الحجة١: دين الله لا يُتلقّى بالتعسّف والتكلّف.

الحجة٢: ولا يُتناول بالتقعّر والتنطّع.

الرابط: حتى

الحجة١: رأى علماء الدين وأنصار الشريعة يموجون في نحلهم.

---

(١) الإشارات الإلهية:٦٣.

(٢) البصائر والذخائر: ١٧/٣.

(٣) أخلاق الوزيرين:٩.

الحجة٢: يكفّرون أهل القبلة على اعتقادهم.

الحجة٣: يحيّرون المسترشد.

الحجة٤: يغوون الرشيد.

أمّا المثال الثالث:

الحجة١: أحوجتني إليها.

الحجة٢: جشّمتني صعبها.

الرابط: حتى.

الحجة١: نشبتُ بها قائمًا وقاعدًا.

الحجة٢: تقلّبتُ في حافاتها مختارًا ومضطرًا.

الحجة٣: تصرّفت في فنونها محسنًا ومسيئًا.

فكلّ الحجج السابقة سواء الواردة قبل الرابط (حتى) أم بعده تخدم نتيجة واحدة ففي المثال الأول نرى أنّ الحجتين اللتين سبقتا الرابط تخدمان نتيجة واحدة من قبيل (التلذّذ بالدعاء، وطلب القرب من الله سبحانه وتعالى)، أمّا الحجتان بعد الرابط فهما تخدمان النتيجة نفسها إلاّ إنّهما تحملان طاقة حجاجية تجعلهما أقوى من الحجتين السابقتين للرابط، وذلك أنّهم لا يريدون الانشغال عن الله سبحانه وتعالى وإن كان في ذلك الانشغال خير يعود عليهم.

وفي المثال الثاني فإنّ الرابط الحجاجي (حتى) يربط بين مجموعة من الحجج السابقة للرابط تخدم نتيجة من قبيل شماتة الحاسدين المتربصين بدين الله، والكافرين الطاعنين أمّا الحجج التي جاءت بعد الرابط فتخدم النتيجة نفسها وهي فساد أهل الدين، وتحريفهم كلام الله نلحظ أنّ الحجج التي جاءت بعد الرابط أقوى وهي مع قوتها جاءت متساندة ومتضافرة مع الحجج التي سبقت الرابط في تحقيق النتيجة المراد إنجازها.

وفي المثال الثالث نجد الرابط (حتى) قد ربط بين مجموعة من الحجج كانت تخدم نتيجة واحدة فهي حجج متساوقة إلاّ أنّ ما بعده لها خاصية أساسية تتمثل في أنّها الأقوى ويمكن أن يقدّمها المتكلّم لصالح النتيجة المقصودة، وينبغي أن تتموقع في أعلى السلّم الحجاجي، وتسند إليها أعلى المراتب الحجاجية.

هـ. روابط التتابع الحجاجي:

- **الواو:**

يُستعمل الواو حجاجيًا وذلك لترتيب الحجج، ووصل بعضها ببعض، وتقويّ كلّ حجة الأخرى، وتعمل على الربط النسقي أفقيًا عكس السلم الحجاجي.(١)

وينتج عن (الواو) علاقة التتابع التي تجعل المخاطِب يلقي حججه بطريقة متسلسلة عند تشكيل قولٍ إثرَ قول، مما يسمح للمخاطَب أن يُتلقّى خطابه بصفة تدريجية تجعله يفهم مقاصد المرسِل، وتجعله يقتنع مع كل حجة تُقدّم إليه.(٢)

ويسهم الربط الحجاجي بـ(الواو) في بناء هيكلية مكونات الخطاب، وضبط منهجه بربط المقدمات بالنتائج داخل الخطاب الواحد(٣) والعلاقة التي ينتجها الرابط الحجاجي (الواو) تساعد على تعقيب الأحداث، وتتابعها، وربط المعاني بعضها ببعض، والتي تشكل بنية حجاجية يصل بها المحاجّ إلى نتيجة معينة يقترب بها من اقناع المخاطَب.(٤)

ومن الاستشهادات التطبيقية عند أبي حيّان في توظيفه للرابط (الواو) عن أبي سليمان قوله:

((هذا كلامٌ ظالمٌ الصديق لا يُراد ليُؤخذ منه شيءٌ، أو ليُعطي شيئًا ولكن ليُسكن إليه، ويُعتمد عليه، ويُستأنس به، ويُستفاد منه، ويستشار في الملمّ ويُنهضَ في المهمّ، ويُتزيّن به إذا حضر، ويُتشوّق إليه إذا سفر))(٥) وقوله:

((ولا طرب أبو سليمان المنطقي إذا سمع غناء هذا الصبي الموصلّي النابغ الذي فتن الناس، وافتضح به أصحاب النسك، والوقار... بوجهه الحسن، وثغره المبتسم، وحديثه الساحر، وطرفه الفاتر، وقدّه المديد، ولفظه الحلو، ودلّه الخلوب،

---

(١) يُنظر: آليات الإقناع في الخطاب القرآني سورة الشعراء نموذجًا (ماجستير):١٠٠.

(٢) يُنظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل:٧٧.

(٣) يُنظر: التحليل التداولي لخطاب الحجاج النحوي:٢٣١.

(٤) يُنظر: م،ن:٢٣١.

(٥) الصداقة والصديق:٩٣.

وتمنّعه المطمع، وإطماعه المُمنّع، وتشكيكه في الوصل، والهجر، وخلطه الإباء بالإجابة، ووقوفه بين لا ونعم))[١].

كما هو واضح فإنّ الحجج جاءت متسقة، وغير منفصلة، فضلًا على أنّ كل حجة تقوي الحجة الأخرى وهذا الاتساق تمّ بوساطة توظيف أبي حيّان للرابط (الواو) الذي لا يجمع بين الحجج فحسب بل يقويّ بعضها ببعض لتحقيق النتيجة المرجوة، وتدعيم الرأي قصد التأثير في المتلقي، وإقناعه.

و. روابط الشك والتقريب:

- **لعلّ:**

يقف المتلقي مواقف مختلفة من الخطابات التي يطرحها المرسِل فهو يحاول إقناع المتلقي بشتّى الوسائل، والآليات، فيحاول أحيانًا الوقوف موقف الحياد، أو التشكيك في مضمون القضية المطروحة وهذا يُكسب الخطاب الموضوعية، والنزاهة، والرابط المستعمل في هذا الجانب هو (لعلّ) فهو عنصر يكشف عن موقف المرسِل من مضمون القضية المطروحة فاستعماله يكون بدلالة التقريب لا القطع فيصطبغ الخطاب بصبغة الموضوعية لأنّنا بإعلاننا عن شكّنا، وعدم يقيننا نجعل حكايتنا حكايةً تقريبيةً فنكون قد برهنّا على درجة النزاهة الفكرية التي تُفضي إلى جعل الحكاية في مجملها حكايةً صادقةً.[٢]

وقد ورد الرابط (لعلّ) في بعض خطابات أبي حيّان نحو قوله:

((قال الوزير: قرأتُ ما دوّنه الصابي أبو إسحق في التاجيّ فما وجدتُ هذا الحديث فيه، فقلتُ: لعلّه لم يقع إليه، أو لعلّه لم ير التطويل به، أو لعلّه لم يستخفّ ذكر عزّ الدولة على هذا الوجه))[٣] وقوله:

((وإذا سمعت خطابي، وفهمت عتابي فمتّعني بإرشادك لي، وزودني مما أفاء الله عليك، ولعلّ دواءك يقع على دائي))[٤].

---

(١) الامتاع والمؤانسة:٣٣٣.

(٢) يُنظر: مدخل نظري للاتصال الحجاجي الإقناعي (بحث):١٥٠.

(٣) الإمتاع والمؤانسة:٤٨٢.

(٤) الإشارات الإلهيهة:١٥٧.

يبدو واضحًا أنّ خطاب أبي حيّان لم يكتسب القطعية وإنّما اصطبغ بالموضوعية من طريق استعماله للرابط (لعلّ) الذي يتسم بالدلالة التقريبية غير القطعية فهو لم يُجب الوزير جوابًا نهائيًا إنّما جوابه كان يحتمل أكثر من نتيجة، وكذا الحال في المثال الثاني كان يترجى في جوابه ولم يكن متيقنًا وتزويد المتلقي بهذه المعلومات الاحتمالية تجعلها حجةً على المتلقي ووقوف أبي حيّان موقف الحياد، أو المشكك من مضمون القضية المطروحة أكسب الخطاب الموضوعية، والنزاهة وبذلك يكون الخطاب قد ابتعد عن الإكراه تاركًا مجال الاختيار للمتلقي وهذا ينسجم وقواعد الخطاب والرابط (لعلّ) وفّر الجو الموضوعي للحوار، فضلًا عن حضور الثقة بين المتحاورين، ومن ثم وقوع الإقناع.

٢-العوامل الحجاجية:

يستلزم التواصل تحديد الفكرة وتوجيهها وجهةً تخدم المتلقي، وتأخذ بيده للوصول إلى الإقناع الذي يُعدّ الوظيفة الأساسيّة للخطاب الحجاجي لذا عُدّ التقييد وعدم الإطلاق من استراتيجيات الخطاب الإقناعي فالعلاقة التقييدية عنصر كشف عن مقاصد المتكلم من جهة، ودفع نحو تبني سلوك معين من المتلقي من جهة ثانية هذه العملية بين طرفي الخطاب تُفضي إلى تفاعل، وتدافع بين القضية المطروحة التي يُراد لها أن تكون سلوكًا، والقضية التي تعترض القضية المطروحة؛ لذلك فإنّ عوامل الحجاج التقييدية تُعدّ من أوليات الخطاب الحجاجي؛ كونها من جنس الخطاب القطعي للدلالة على الظهور المعنوي الذي يمثل حجة في كل خطاب ولاسيما في الخطابات الحوارية.(١)

وقد ارتبط مفهوم العامل الحجاجي بضرب من الحجاج هو الحجاج التقني، والعوامل الحجاجية هي مورفيمات إذا وُجدت في ملفوظ تُحوّل، وتُوجّه الإمكانات الحجاجية لهذا الملفوظ فهي تقوم بحصر، وتقييد الإمكانات التي تكون لقولٍ ما.(٢)

---

(١) يُنظر: الاطلاق والتقييد في النص القرآني قراءة في المفهوم والدلالة:١٦٤.

(٢) يُنظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل:٤٣-٤٤.

وعرّف (ديكرو) العوامل الحجاجية بقوله: ((هي صرافم لها وظيفة دفع المتقبّل لتحديد النتيجة))[١] غير إنّ العامل الحجاجي ليس له هذه الوظيفة فحسب، وإنّما كانت في تصور (ديكرو) هي الوظيفة المركزية إذ تضطلع على تلمّس المسار التأويلي الصحيح الموصل إلى النتيجة فهي بمثابة العلاقات الدالّة على مقاصد الباث.[٢] ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى الفرق بين الروابط، والعوامل، أمّا الأولى فهي تربط بين قولين أو حجتين أو أكثر، وتسند لكل قول دورًا محددًا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة، أمّا العوامل الحجاجية فهي تربط بين متغيرات حجاجية أي: بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج، ولكنّها تقوم بحصر، وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل (ربما، لا + إلاّ، إنّما، تقريباً، كاد، المفعول لأجله) وما ورد من هذه العوامل عند أبي حيّان مُوظفًا إياها توظيفًا حجاجيًا هي:

أ- المفعول لأجله:

تشترك المقيّدات بكل أصنافها بوظيفة عامة هي: (البيان) أي بيان ما أطلق من الخطاب لأنّ ترك الكلام على إطلاقه يولّد اللّبس، والغموض بوصفه كلامًا لا يكشف عن مقاصد المتكلم، ولا يحمل أية أهداف يسعى إلى تحقيقها، وهناك وظائف خاصة لهذه المقيّدات يطّلع بها السياق التواصلي، ووظيفة المفعول لأجله الخاصة هي تحديد قيمة الفعل وذلك بإطلاق حكم قيمي عليه يكون تسويغًا للفعل، أو تعديلًا له[٣] ((لأنّه عذر لوقوع الأمر))[٤] وتكمن القيمة الحجاجية في (المفعول لأجله) في ((توضيح علّة الإقدام على الفعل، وهو جواب له))[٥] كونه ((نتيجة له وثمرة يقصدها الفاعل))[٦] ومن الشواهد التطبيقية لـ(المفعول لأجله) في خطابات أبي حيّان قوله:

---

(١) العوامل الحجاجية في اللغة العربية:٦٧.

(٢) يُنظر: م.ن:٦٨.

(٣) يُنظر: آليات الحجاج وأدواته (بحث):٢

(٤) الكتاب: ٣٦٧/١.

(٥) شرح المفصل: ٥٢/٢.

(٦) المقتصد في شرح الإيضاح: ٦٦٧/١.

((اللهم إنّا نفتتح كلامنا بذكرك، ودعائك استعطافًا لك، ليكون نصيبنا منك بحسب تفضلك لا بحسب استحقاقنا، ونختم أيضًا كلامنا بما بدأنا رغبةً في رحمتك لنا))[1].

وقوله:

((وأسألك اللهمّ كبدًا رجوفًا خوفًا منك، ودمعًا نطوفًا شوقًا إليك، ونفسًا عزوفًا إذعانًا لك))[2] وقوله:

((أطلتُ الحديث تلذّذًا بمواجهتك، ووصلته خدمةً لدولتك، وكرّرته توقعًا لحسن موقعه عندك، وأعدته، وأبديته طلبًا للمكانة في نفسك))[3].

ففي المثال الأول ورد القيدان (استعطافاً، ورغبةً) لبيان علّة بدأ الكلام وختامه بذكر الله سبحانه وتعالى إذ وظّف أبو حيّان هذين القيدين لبيان ما وقع الفعل لأجله ولم يجعل الكلام مطلقًا فالاستعطاف، والرغبة في رحمة الله عزّ وجلّ هما بمنزلة الحجتين اللتين قدمهما المتكلم؛ ليُظهر طلبه، ورغبته في أن ينال رحمة الله سبحانه وتعالى، فالنتيجة الضمنية هي من قبيل وجوب أن نبدأ كلامنا، ونختمه بذكر الله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨.

أمّا في المثال الثاني فقد جاءت القيود (خوفًا، وشوقًا، وإذعانًا) لتسوّغ، وتعلّل سبب رجوف الكبد، ونطوف الدمع، وعزوف النفس، وهنا يكمن البعد الحجاجي في بيان علّة الإقدام على الفعل وبذلك يتوجه الخطاب الوجهة التي يريدها المحاجّ، ومن ثم تتحدد قيمة الفعل.

وفي المثال الثالث ذكر أبو حيّان القيد (المفعول لأجله) أربع مرات (تلذّذاً، خدمةً، توقعا، طلبا) موظّفًا إيّاه في الاستراتيجية الحجاجية ففي حواره مع الوزير لم يترك الكلام على إطلاقه، بل حدّد الفكرة منه، ووجهها الوجهة التي تخدم المتلقي

---

(١) الإشارات الإلهية:٢٠٣.

(٢) البصائر والذخائر: ٥/٣.

(٣) الامتاع والمؤانسة:٥٢٨.

ومن ثم تحقيق الهدف الأساسي وهو الإقناع، فمن خلال المقيّدات كشف أبو حيّان عن مقاصده مبتعدًا عن اللّبس، والغموض في حالة ترك الكلام على إطلاقه

ب-ربّما:

من الأمثلة التي وظّفها أبو حيّان للعامل (ربّما) قول: ((**المغنّي إذا راسله آخر لِم يجب أن يكون ألذّ، وأطيب، وأحلى، وأعذب ... أنّ المسموع الواحد ... هو بالحس الواحد وربما كان الحسّ الواحد أيضًا غليظًا، أو كدرًا فلا يكون لنيله اللّذة به بسطٌ، ونشوٌ، ولذاذةٌ، وكذلك المسموع ربما لم يكن في غاية الصفاء ... فإذا ثُنّي المسموع – أي توحّد النغم بالنغم – قوي الحسّ المُدرِك**))[1] وقوله:

((**وقد أتت المقابسات الأول على فقر بليغة في تحقيق شأن النفس، وإثبات أمرها وما خصّت به دون البدن، والمزاج، وتوابعها، ولواحقها ولا وجه للولوع بالإكثار؛ فإنّ ذلك ربما جرّ إلى تقصير، وحمل على الاعتذار**))[2].

في هذين المثالين استعمل أبو حيّان العامل (ربما) ففي المثال الأول نجد أنّ الحجتين في قوله: ((ربما كان الحسّ الواحد غليظًا))، و((ربّما لم يكن في غاية الصفاء)) إذ قيّد، وحدّد الإمكانية الحجاجية في سبب لذّة الغناء وطيبه، وحلاوته، وعذوبته إذا راسل مغن مغنيًا آخر فهناك فرق بين (ربما كان الحسّ) و(كان الحسّ)، و(ربما لم يكن)، و(لم يكن) فعلى الرغم من أنّ الحجتين تشتركان في الوجهة الحجاجية نفسها إلاّ أنّ توظيف أبي حيّان للعامل (ربما) لم يترك الكلام مطلقًا، وكان موضوعيًا حينما لم يعط جوابًا قطعيًا.

وهذا ما نلحظه في المثال الثاني، فقد بيّن أبو حيّان سبب عدم الإكثار، والإسهاب في الحديث عن حقيقة النفس، وبيان بعض حقائق الأشياء، فإنّ هذه الحجة تخدم نتيجة هي أنّ هذا العلم كلما قلّت فيه الحروف كان المعنى أتمّ، وأخلص، وكلّما كثر اللفظ كان ما يراد، فيه أنقص، والسبب في ضيق هذا العلم أنّه بحثٌ عن حقائق الموجودات، وقصد إلى أعيان المعقولات، والخصائص عرية عن العلل والشبهات، بعيدة من الشكوك، والمعارضات غنيةٌ عن التأويلات،

---

(١) الامتاع والمؤانسة: ٢٦٠.

(٢) المقابسات: ٣٢١.

والاحتمالات[١] فحصر، وقيّد علّة عدم الإكثار، والإسهاب في الكلام بأنّ ذلك سيُفضي إلى التقصير، والحمل على الاعتذار.

ج-إنّما:

هي أبرز العوامل الحجاجية التي تحصر الإمكانات الحجاجية للملفوظ، وقد خصّها البلاغيون بالذكر، يقول عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ((تجيء لخبر لا يجهله المخاطَب، ولا يدفع صحته، أو لما يُنَزّل هذه المنزلة))[٢]، ووضّح أنّها لا تُقال لمن يجهل الخبر، بل لمن يُراد تنبيهه.[٣]

ومن أمثلة هذا العامل عند أبي حيّان قوله في ردّه على الوزير ابن سعدان الذي طلب منه أن يُقيّم مجموعة من العلماء قال: ((**فقلتُ وصْف هؤلاء أمر متعذّر، وباب من الكلفة شاقٌّ، وليس مثلي من جسر عليه، وبلغ الصواب منه، وإنما يصفهم من نال درجةَ كلّ واحد منهم، وأشرف بعد ذلك عليهم، فعرف حاصلهم، وغائبهم، وموجودهم، ومفقودهم**))[٤].

وقوله:

((أطعــتُ مطــامعي فاســتعبدتني ولــو أنّــي قنعــتُ لكنــتُ حــرّا[٥]

وما أحسن ما قال أيضا:

حتــى متــى يســتفزّني الطمــع ألــيس لــي بالكفــاف متّســع
مــا أفضــل الصــبر والقناعــة للنــا س جميعًــا لــو أنّهــم قنعــوا
أمّــا المنايــا فغيــرُ غافلــةٍ لكــلّ حــيٍّ مــن كأســها جُــرَعُ[٦]

---

(١) يُنظر: المقابسات:٣٢١.

(٢) دلائل الإعجاز:٣١٣.

(٣) يُنظر: م،ن: والصفحة نفسها.

(٤) الامتاع والمؤانسة:٣٨.

(٥) أبو العتاهية، الديوان: ١٦٨.

(٦) م،ن: ٢٦٧.

وإنّما وقفتك على هذا السرّ أنّ جميع ما يتشكّاه الناس رَجَع إلى الطمع، والضّرع))[1].

يظهر دور الرابط الحجاجي (إنّما) في توجيه الملفوظ نحو وجهة حجاجية واحدة دون سواها فقد قام بحصر الإمكانات الحجاجية في المثال الأول في خدمة نتيجة واحدة من قبيل أنّه لا يملك من المعلومات عن هؤلاء العلماء إلاّ النزر اليسير، فضلاً على إقراره بمكانتهم العلمية المرموقة الأمر الذي لا يمكنه من تقييمهم، مقدّمًا الحجج على ذلك:

الحجة١: يصفهم من نال درجة كلّ واحد منهم.

الحجة٢: أشرف عليهم.

الحجة٣: عرف حاصلهم، وغائبهم، وموجودهم، ومفقودهم.

وكذا الحال في المثال الثاني، فقد بدا دور هذا العامل في الحجاج لا الإخبار فقد بيّن عبد القاهر الجرجاني أنّ (إنّما) لا تأتي لإعطاء معلومات جديدة، أو خبر يجهله المخاطَب، وإنّما تتمثل وظيفتها في كونها تزيد في القوة الحجاجية للملفوظ الوارد بعدها[2]؛ لذلك فإنّ قول أبي حيّان الوارد بعد أداة الحصر (إنّما) يمثل الحجة الأقوى؛ فقد حدّد، وحصر بوساطة العامل الحجاجي حقيقة استعباد الناس، وخنوعهم، واستكانتهم بالطمع، والضّرع.

د- لا ... إلاّ:

هو عامل يوجه القول وجهة واحدة فيستثمره المرسِل عادةً لإقناع المرسَل إليه.[3] ويكون ذلك بحصر الإمكانات الحجاجية للملفوظ وهذا ما بيّنه الجرجاني بقوله: ((اعلم إنّك إذا قلت: ما جاءني إلاّ زيدٌ، احتمل أمرين؛ أحدهما أن تريد اختصاص زيد بالمجيء، وأن تنفيه عمن عداه، وأن يكون كلامًا تقوله لا لأنّ في

---

(١) الإشارات الإلهية:٨٢.

(٢) يُنظر: دلائل الإعجاز:٣٣٠.

(٣) يُنظر: الحجاج والمعنى الحجاجي (بحث):٦٤.

المخاطَب حاجةً إلى أن تعلم زيدًا قد جاءك، ولكن لأنّ به حاجة إلى أن يعلم أنّه لم يجىء إليك غيره، والثاني أنّ كلامًا تقوله ليعلم أنّ الجائي زيد لا غيره))[١].

وقد وردت البنية الحجاجية القائمة على (لا ... إلاّ) عند أبي حيّان التوحيدي نحو قوله:

((فإن قلتَ هذا كلّه مستغنًى عنه كابرت، وبهتّ ... فعلى جميع الأحوال لايكون الكاتب كاملًا، ولا لاسمه مستحِقًّا، إلاّ بعد أن ينهض بهذه الأثقال))[٢].

وقوله:

((يا هذا! لا مُستقلّ إلاّ من الله، ولا نجاة لك إلاّ بالله، ولا منعم عليك إلاّ الله، ولابدّ لك على كلّ حال من الله))[٣].

ففي المثال الأول وظّف أبو حيّان العامل الحجاجي (لا ... إلاّ) لحصر الإمكانات الحجاجية وكما هو واضح أنّ المخاطِب، والمتلقي في سياق تحاوري، وقد تضمّن الحوار حجةً خدمتْ نتيجة واحدة من قبيل أنّ الكاتب حتى يكون كاملًا، مستحقًا لهذا اللّقب لابدّ أن يكون ملمّا بمجموعة من العلوم كـ(أصول الفقه مخلوطة بفروعها، وآيات من القرآن مضمومة إلى سعته فيها، وأخبارًا كثيرة مختلفة في فنون شتّى لتكون عدّة عند الحاجة إليها).[٤] فقد قيّد كمال الكاتب بحمله لهذه العلوم، وجعلها حجةً لإقناع المخاطَب.

وفي المثال الثاني حاول أبو حيّان التأكيد على حقيقة (أنّ التوفيق من الله وحده) فعمد إلى البنية القصرية، فمثّلت حجةً على المخاطَب للامتثال، والقبول بالأمر الموجه، وقد ولّد العامل الحجاجي (لا ... إلاّ) دلالة تمثّلت في قبول النتيجة وهي الاتكال على الله عزّ وجلّ، والإنابة في كلّ الأحوال.

وهذا التقييد ولّد دعامة استند إليها أبو حيّان في بناء خطابه الإقناعي وهو من شأنه أن يوجِد التفاعل، ويشد انتباه المتلقي، حصره في مقصده إذ جاء الخطاب

---

(١) دلائل الإعجاز:٣٣٤-٣٣٥.

(٢) الامتاع والمؤانسة:٩٢.

(٣) الإشارات الإلهية:٧٧.

(٤) يُنظر: الإمتاع والمؤانسة:٩٣.

تأكيدًا، وإقرارًا للحقيقة التي قصدها المخاطِب، وبدا واضحًا أنّ هذا القصر له وقع حجاجي على نفسية المتلقي؛ كونه يعمل على حصر تفكيره، وتوجيهه نحو حقيقة وهي أن لا توفيق ينال المرء إلاّ من الله سبحانه وتعالى.

٣-التكرار:

يقوم أسلوب التكرار – أو المعاودة، ويسمّى أيضًا بالترديد – بدور حجاجي هام؛ ولهذا يُعدّ رافدًا أساسيًا يرفد الحجج، والبراهين التي يقدمها المتكلّم لأطروحة ما بمعنى أنّه يوفّر لها طاقة مضادة تُحدثُ أثرًا جليلًا في المتلقي، وتساعد على نحو فعّال في إقناعه، أو حمله على الإذعان؛ وذلك أنّ التكرار يساعد على التبليغ، والإفهام من جهة، ويُعين المتكلّم على ترسيخ الرأي، أو الفكرة في الأذهان من جهة أخرى فإذا ردّد المحتجّ الفكرة بحجة ما أدركت مراميها، وبانت مقاصدها، ورسخت في ذهن المتلقي، وإن ردّد رابطًا حجاجيًا أقام تناغمًا بيّنًا بين أجزاء الخطاب، وأكّد الوحدة بين الأقسام، أو أوهم المتلقي بها.[١]

والتكرار هنا ((هو ليس ذلك التكرار المولّد للرتابة، والملل، أو التكرار المولّد للخلل، والهلهلة في البناء، ولكنّه التكرار المبدع الذي يدخل ضمن عملية بناء النص، أو الكلام بصفة عامّة، إنّه التكرار الذي يسمح لنا بتوليد بنيات لغوية جديدة باعتباره أحد ميكانزمات عملية انتاج الكلام، وهو أيضًا التكرار الذي يضمن انسجام النص، وتولّده، وتناميه))[٢] فالتكرار – قضية كبرى – يؤكّد على أنّ الكاتب يلحّ على فكرة معيّنة، ويحاول أنْ يُوصلها إلى المتلقي عِبر طرق معيّنة تتطابق فينتج عنه تكرار.[٣] وله دورٌ في تأكيد الحجة، وهو مدّ للقول، رابط بين مدّ القول، وبلوغه الشفاءَ، والإقناع.[٤]

---

(١) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته واساليبه:١٦٨.

(٢) الخطاب والحجاج:٤٨.

(٣) يُنظر: العمدة:٢/٧٧.

(٤) يُنظر: الصناعتين:١٥٦.

أ- التكرار الشكلي:

- تكرار اللّفظ:

لقد تجلّى تكرار اللّفظ عند أبي حيّان في مواضع كثيرة منها قوله:

((عتابٌ ليس ينقطع، وقلبٌ ليس يرتدع، وخفاءٌ ليس يتسع، وبلاءٌ ليس يمتنع، ورُوحٌ ليس ينتفع، وأمرٌ ليس يرتفع))[1].

وقوله: **((وهذه النسبة وإنْ اختلفت بالعبارة، والإضافة فإنّه مطّردٌ فيها ومحمولٌ عليها تارةً بالإكراه الشديد، وتارةً بالدواعي العارضة، وتارةً بالقصد الذي يترجّح بين الأسباب الحاضرة، والغائبة))**[2].

لقد تجسّد التكرار في هذين الخطابين من خلال تكرار بعض الألفاظ ففي الأول تكررت لفظة (ليس) ست مرات، وهي عبارة عن حجج مقدّمة من أبي حيّان إلى متلقيه بغية تحريكه لمعرفة ما قد اعتراه من السهو، والغفلة، إذ وفّر هذا التكرار طاقةً مضافةً من شأنها أن تُحدث أثرًا جليلًا في المتلقي، وتساعد على نحو فعّال في اقناعه، وحمله على الإذعان كون التكرار يساعد على التبليغ، والإفهام، وترسيخ الرأي، أو الفكرة عند المتلقي.

وفي المثال الثاني كرّر أبو حيّان لفظة (تارة) ثلاث مرات، والحجج المقدّمة هي: الحجة١: الإكراه الشديد

الحجة٢: الدواعي العارضة

الحجة٣: القصد الذي يترجّح بين الأسباب الحاضرة، والغائبة.

لقد أسهم تكرار لفظة (تارة) في تناميها، وانسجامها عن طريق إقامة علاقة ترابطية بينها فمثّلت الخيط الذي يصل بين مكونات الخطاب، فضلًا على دورها في تأكيد الحجج المقدّمة فتكرار اللّفظ لمرة، أو مرّتين إنّما يكمّل تلقي الكلام بالقبول.

- تكرار عبارة:

يقع التكرار أيضًا عن طريق تكرار الجملة، أو العبارة وما ورد من ذلك عند ابي حيّان قوله:

---

(١) الإشارات الإلهية:٥٧.

(٢) البصائر والذخائر:١/١٥٩.

((فهل رأيت قولًا كلّما بان غمّض، وهل رأيت عِرقًا كلّما سكن نبض؟ فهل رأيت نارًا كلّما أُطفئت اشتعلت، وهل رأيت كبدًا كلّما بُلّت جفّت؟ وهل رأيت سقمًا كلّما عُولج أعضل، وهل رأيت بيانًا كلّما وضح أشكل؟ وهل رأيت فتقًا كلّما رُتق اتسع))[1] فقد كرّر أبو حيّان عبارة (هل رأيت) مقدّمًا مجموعة من الحجج تخدم نتيجة واحدة من قبيل ضرورة ابتعاد المرء عن الغرور وعمّا تمنّه نفسه من دوام السلامة ثمّ تدعيمها عن طريق التكرار مستعملًا في ذلك الاستفهام التعجبي، قاصدًا به إثبات الدعوى، وتبريرها، ومن ثمّ إقناع المتلقي، وتأكيد المعنى في ذهنه.

- **تكرار عنصرين اثنين من مادة واحدة:**

من الشواهد على هذا النوع من التكرار قول أبي حيّان **((إذا رأت غِلمةً في الشهوية أخمدت نارها، وإذا وجدت السرف في الغضبية قصّرت عِنانها فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم، فيعود السفه حِلمًا، أو تحالمًا، والحسد غبطةً أو تغابطًا، والغضب كظمًا أو تكاظمًا، والغي رشدا أو تراشدًا، والطيش أناة أو تآنيًا))**[2]

ففي هذا المثال حاول أبو حيّان –في حديثه عن القوتين الشهوية والغضبية– إقناع متلقيه عن طريق تقديم حجتين:

الحجة١: إذا رأت غلمة في الشهوية أخمدت نارها.

الحجة٢: إذا وجدت السرف في الغضبية قصّرت عِنانها

فهاتان الحجتان تخدمان نتيجة واحدة هي أنّ الغضبية، والشهوية سيقومان على الصراط المستقيم وبعدها أخذ بتدعيم الحجج عن طريق تكرار لفظين من مادة واحدة وهذه الهيأة المكررة تعكس في سياقها الحجاجي حالة من حالات التأثير في سلوك المتلقي وذلك باستعمال علاقات لغوية تعتمد في تأثيرها السمعي على مبدأ التجانس[3].

---

(١) الإشارات الإلهية:٦٥.

(٢) الامتاع والمؤانسة:١٣١.

(٣) يُنظر: النص والخطاب والاتصال:٢٤١.

ب-تكرار المضمون:

يقع هذا التكرار في مجموعة من العلاقات اللغوية التي تُبنى على تكرار محتوى الألفاظ لا الألفاظ نفسها، أو قد تشترك في جزء من المعنى ومن هذه العلاقات:

- **علاقة العام بالخاص:**

ورد هذا التكرار في النصوص الحجاجية عند أبي حيّان منها قوله:

((واختلس حظك من المعارف فيه تتخلّص من المناكر، وخض بحر المعارف تنج من المجاهل))[١].

ولأنّ التكرار إحالة قبلية؛ إذ تحيل اللّفظة نفسها إلى مثيلتها السابقة، أو يحيل المرادف إلى مرادفه.[٢]

فقد احتجّ أبو حيّان بقوله (تتخلص من المناكر)، و(تنج من المجاهل) فاللفظتان (مناكر، ومجاهل) هما موضع الشاهد، أنكره إنكارًا ونُكرًا والجمع مناكر ومناكير[٣]، والجهل ضد العلم أصلًا، جهل فلان حقّ فلان: أنكره.[٤] فالجهل أعمّ من الإنكار، وهذا يُعطي المتكلم إمكانية انتاج صور لغوية مختلفة تسهم في فهم قصده، وترسيخ دعوته.

- **علاقة الترادف:**

تجسّدت هذه العلاقة في قول أبي حيّان: **((وكما أنّ القلوب جُبِلت على حبّ من أحسن إليها كذلك النفوس طُبِعت على بغض من أساء إليها))**.[٥]

---

(١) البصائر والذخائر: ٧/٥.

(٢) يُنظر: الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب:٢٠.

(٣) يُنظر: لسان العرب: باب النون: ٤٥٤٠/٤٨. مادة (نكر)

(٤) يُنظر: م.ن: باب الجيم: ٧١٣/٩. مادة (جهل)

(٥) أخلاق الوزيرين:١١.

نلحظ أنّ أبا حيّان استعمل مفردتين مترادفتين هما (جُبِلت، طُبِعت) جاء في لسان العرب ((وجَبَلَ اللهُ الخَلْقَ يجبِلُهُم، ويجبُلُهُم: خَلَقَهُم، وجبله على الشيء طَبَعَهُ، وجُبِل الإنسانُ على هذا الأمر أي طُبِع عليه))[١].

أمّا طُبِع فهي من: ((الطَّبْعُ، والطَّبيعَةُ: الخَلِيقَةُ والسَّجِيّةُ التي جُبِل عليها الإنسانُ)).[٢]

والجمع بين هاتين المفردتين لمعنى واحد وظّفه أبو حيّان لشغل فضاء المعنى كاملًا، ومن ثم تدعيم الحجتين (الإحسان، والإساءة) اللتين خدمتا نتيجتين هما (الحب، والبغض) وبالتالي ازدادت الكثافة الحجاجية التي من شأنها توفير درجة كبيرة من الإقناع لدى المتلقي.

- **علاقة اللاحق بالسابق:**

وتجلّى ذلك في قول أبي حيّان: ((**أما تستحي ممن خلقك فسواك، وأرشدك فهداك، وتمّمك وقوّاك، وأعطاك وهنّاك ثمّ وعدك ومنّاك، ثمّ خصّك واجتباك، ثمّ علاّك وحلاّك، ثم رقاك وحيّاك، ثمّ ملكك وولاّك ثمّ أحضرك وآواك ثمّ استخلصك وتولاّك**))[٣].

ما قدّمه أبو حيّان هو بمثابة الحجج التي تخدم نتيجة – ضمنية تقع وراء الاستفهام التوبيخي – من قبيل أنّ المتلقي لم يشكر الله، ولم يذكر إحسانه فهو في ضلال قديم، وخبال عظيم، نلحظ أنّ أبا حيّان قد تدرج في عرضه للحجج، عن طريق ربط اللاحق بالسابق وهذه الطريقة في إلقاء الحجج على المتلقي تزيد من القوة الحجاجية، وتهيئ ذهن المتلقي لقبول الحجج بما تتمتع به من تماسك، فتكون وسيلة إقناع ناجعة تؤدي إلى دفع المعنى إلى مستوًى أقوى مما يزيد في فاعليتها الإقناعية في توجيه المتلقي واستمالته إلى وجهة نظر المتكلم، أو دعواه، وزيادة مصداقيته.

---

(١) لسان العرب: ٥٣٨/٧. مادة (جبل).

(٢) م.ن: ٢٦٣٤/٣٠. مادة (طبع).

(٣) الإشارات الإلهية:٢٢١.

٤-التوازن:

يُطلق على بعض التراكيب – حين تتوافق اجزاؤها بعدد وحداتها، وأوزان هذه الوحدات – بالأبنية المتوازنة.[١]

وذكره ابن فارس (ت٣٩٥هـ) تحت مصطلح (المحاذاة) وذلك في قوله: ((**أن يُجعل الكلام بحذاء كلام فيُؤتى به على وزنه لفظاً وإن كانا مختلفين**))[٢] ورأى الثعالبي (ت٤٢٩هـ) أنّ العرب تزيد وتحذف حفظا للتوازن، وتفضيلا له.[٣]

ويُمكن لنا أن نتبين هذا النوع من التكرار بما ورد في خطابات أبي حيّان منها:

((**والمؤمن إذا قصُرت يده عن المعروف، وأمسك لسانه عن الزجر ... تمنى الرّحلَ عن هذه الدار المحشوة بالنار والعار، إلى الدار التي هي دار القرار، فقد جمدت العيون فما تدمع، وتكبّرت القلوب فما تخشع، وكَلِبت البطون فما تشبع، وغلبت الشقوة فما تنزع**))[٤] وقوله:

((**لمّا رأيت شبابي هرمًا بالفقر، وفقري غِنى بالقناعة، وقناعتي عجزًا عند أهل التحصيل؛ عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه، وموضعي منه فرأيت طرفه نابيًا، وعنانه عن رضاي منثنيًا، وجنانه في مرادي خشِنًا، وارتفاقي في أسبابه سببًا... طمعت في السكوت تجلّدًا، وانتحلت القناعة رياضةً**))[٥].

بملاحظة الخطاب الأول نجد أنّ أبا حيّان قدّم مجموعة من الحجج منها:

الحجة١: قصرت يده عن المعروف.

الحجة٢: أمسك لسانه عن الزجر.

النتيجة: تمنى الرحيل عن هذه الدار إلى الدار التي هي دار القرار.

---

(١) يُنظر: تطور لغة الخطاب السياسي في مقالات فتحي رضوان (بحث):٦٢.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة: ١٧٤.

(٣) يُنظر: فقه اللغة، الثعالبي: ٣٦٩.

(٤) الإشارات الإلهية: ١٦٩.

(٥) المقابسات: ١٠٥.

داعمًا هذه النتيجة بحجة أخرى هي: (أنّ هذه الدار محشوة بالنار، والعار)، وفي الإطار التدعيمي التبريري نفسه يقدّم أبو حيّان حججًا أخرى، بطريقة التكرار التوازني للجمل وهي:

جمدت العيون فما تدمع

تكبّرت القلوب فما تخشع

كلبت البطون فما تشبع

غلبت الشقوة فما تنزع

وهذا ما نلحظه في المثال الثاني إذ يعرض أبو حيّان حججًا

الحجة١: لمّا رأيت شبابي هرمًا بالفقر

الحجة٢: وفقري غنى بالقناعة.

الحجة٣: وقناعتي عجزًا عند أهل التحصيل

تخدم هذه الحجج نتيجة هي:

عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه، وموضعي منه

ثمّ عزّز الحجج السابقة بمجموعة من الحجج بتراكيب متوازنة الأجزاء

الحجة١: عنانه عن رضاي منثنيًا

الحجة٢: جنانه في مرادي خشنًا

الحجة٣: ارتفاقه في اسبابه سببًا

وقد أفضت هذه الحجج بدورها إلى نتائج هي:

النتيجة١: طمعت في السكوت تجلّدًا

النتيجة٢: انتحلت القناعة رياضةً

وقد بدا واضحًا ما للتوازن من أثر سمعي إيجابي في رونق الكلام، فضلًا عمّا له من دور بارز في تمكين المعنى، والوصول إلى أعلى درجات الإقناع.[١]

---

(١) يُنظر: النص والخطاب والاتصال:٢٦٨.

ب- ألآليات البلاغية:

تُعدّ البلاغة آلية من آليات الحجاج؛ كونها تعتمد التأثير، والاستمالة، عن طريق الحجاج بالصور البيانية أي: محاولة إقناع المخاطَب باستمالته حتى يتقبّل قضيةً ما، وتكمن أهمية الآليات البلاغية فيما توفره من جمالية قادرة على التأثير في وجدان المتلقي، فإذا انضافت تلك الجمالية إلى حجج متنوعة، وعلاقات حجاجية تربط بين أجزاء الكلام، وتصل بين أقسامه أمكن للمتكلم تحقيق هدفه من الخطاب أي جعل المتلقي يقتنع بفكرة معينة، وتوجه سلوكه الوجهة التي ينشدها المخاطِب.(١)

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أنّ ما يهمّنا هنا هي الوظائف الحجاجية التي تؤديها الصور البلاغية لا المعنى الأسلوبي للكلمة إذ أنّ ((الأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي؛ لتؤدّي وظيفة لاجمالية أو انشائية، بل هي تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية ومن هنا يتبين أنّ معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لإداء أغراض تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية، ولإفادة أبعاد تداولية))(٢).

وقد ضمّن أبو حيّان خطاباته جملةً من الأساليب البلاغية تمثّلت في:

١-تقسيم الكل إلى أجزاء:

ينص هذا الصنف من الحجج على تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له فتكون الأجزاء بمنزلة الحجج على دعوى المتكلم.(٣) وما ورد من هذا النوع عند أبي حيّان فيما يجب توافره في الكاتب حتى يكون كاملاً قوله:

((ما نظنّ أنّه اجتمع هذا كلُّه إلاّ لجعفر بن يحيى فإنّ كتابته كانت سواديّة، وبلاغته سَحبانيّة، وسياسته يونانية، وآدابه عربية، وشمائله عراقية))(٤)

وقوله: **((ومراتب الإنسان في العلم ثلاث تظهر في ثلاث أنفس، فأحدهم مُلْهم فيُعلّم، ويعمل، ويصير مبدأ للمقتبسين منه، المقتدين به، ألآخذين عنه، الحاذين**

---

(١) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه:١١٩.

(٢) التداولية والحجاج مداخل ونصوص:٥٠.

(٣) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه:٢٠٧.

(٤) الامتاع والمؤانسة:٩٣.

على مثاله المارّين على غراره القافين على آثاره، وواحد يتعلّم ولا يُلْهم فهو يماثل الأول في الدرجة الثانية أعني التعلّم، وواحدٌ يتعلّم، ويُلْهَم))[1].

ففي المثال الأول يقدّم أبو حيّان أُطروحةً هي توافر جعفر بن يحيى على مجموعة من الشروط جعلت منه كاتبًا كاملًا، وقد مثّلت هذه الأطروحة – بالنسبة للبناء الحجاجي لخطابه – نتيجةً ظاهرةً، ومن ثمّ جزّء أبو حيّان هذه الأطروحة إلى عدة أجزاء مثّل كلّ جزء منها حجةً تخدم النتيجة ذاتها، فيكون البناء الحجاجي لهذا الخطاب على النحو الآتي:

النتيجة: امتلاك جعفر بن يحيى مجموعة من الشروط جعلته كاتبًا كاملًا

كتابته كانت سواديّة بلاغته سحبانيّة سياسته يونانية آدابه عربية شمائله عراقية

أمّا في خطابه الثاني فقد قدّم أبو حيّان أطروحةً أخرى ذكر فيها أنّ مراتب الإنسان ثلاث تظهر في ثلاث أنفس، وكانت هذه الأطروحة بمنزلة النتيجة التي مثّلت (الكلّ)

ثمّ بدأ أبو حيّان بتجزئة الكل إلى أقسام، وكلّ قسم منها يمثّل حجةً وهذه الحجج تخدم نتيجة واحدةً ويمكن توضيح البناء الحجاجي لهذا الخطاب بالمخطط الآتي:

النتيجة: مراتب الإنسان ثلاث تظهر في ثلاث أنفس

أحدهم مُلهَم يتعلم ويعمل يتعلّم ولا يُلهَم يتعلّم ويُلهَم

نلحظ من هذا أنّ تقسيم الكل إلى أجزاء يزيد من القوة الحجاجية للقول؛ إذ بكثرة الحجج يكون التدعيم أجلى، والإقناع أوضح.

---

(١) الامتاع والمؤانسة: ١٢٩-١٣٠.

٢-الطباق:

يُعرّف الطباق بأنّه الجمع بين متضادَّين أي: على معنيين متقابلين في الملفوظات[١] ويقوم على إيجاد علاقة ظاهرة، أو خفية بين معنيين متضادين في ملفوظ واحد مع وجود نوع من التناسب يسوّغ الجمع بينهما؛ لإفادة غرض معيّن.[٢] وما وقع من الطباق في خطابات التوحيدي قوله:

((وإذ جرى الأمر على غير ما كان في حسابي، وتلبّس بظنّي فإنّي أهدي ذلك كله بغثاثته، وسمانته، وحلاوته، ومرارته، ورقّته، وخَثارته في هذا المكان))[٣] فقد أورد أبو حيّان الحجج موظّفًا آلية الطباق دعمًا لحجته الرئيسة وهي (جريان الأمر على غير ما كان يحسب له، ويتلبّس في ظنّه) فتولّدت من هذه الحجة نتيجة أراد ابو حيّان أن يظهرها للمتلقي وهي (أنّه أهدى ذلك كلّه)، ودعمًا للحجة الرئيسة وتحقيقًا لإقناع المتلقي ضمن الإطار التبريري قدّم أبو حيّان مجموعة من الحجج على شكل ثنائيات متضادة جاءت على النحو الآتي:

ح١: غثاثته وسمانته.

ح٢: حلاوته ومرارته.

ح٣: رقّته وخثارته.

٣-السجع:

معظم الأساليب البلاغية تمتلك سمة التحول لإداء أغراض تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية، ولإفادة أبعاد تداولية.[٤] ويكون المحسّن البديعي حجاجيًا إذا كان يهدف إلى تغيير وجهة النظر فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المتلقي فإنّ المحسّن سيكون للزخرف اللّفظي، وتحسين الأسلوب، وسبب ذلك هو تقصيره عن إداء دور

---

(١) يُنظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع:٣٠٠.

(٢) يُنظر: م،ن:٣٠٣.

(٣) الامتاع والمؤانسة:٢٠-٢١.

(٤) يُنظر: التداولية والحجاج مداخل ونصوص:٥٠.

الإقناع.[١] والسجع من بين المحسّنات اللفظية التي تزخر بهما خطابات أبي حيّان، وظّفه ليزيد من القوة الحجاجية فيها، منها قوله:

((كان والله حامل الأثقال، وملتقى القفّال، ومحقق الأقوال، والأفعال، ومجري لُجم الأحوال على غاية الكمال))[٢] وقوله:

((وأنا أسألك ثانيةً على طريق التوكيد كما سألتك أولًا على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العيّابين، بعيدةً عن تناول أيدي المفسدين المنافسين))[٣].

يحاول أبو حيّان في خطابه الأول إقناع المتلقي بفضائل ممدوحه، فجاء بمجموعة من الحجج التي تخدم نتيجة من قبيل أنّ ممدوحه كان يذكرهم، ويهتمّ بحالهم وليس له نظير، أو مماثل في تهذيب الأمور، وإصلاحها، فقدّم هذه الحجج معتمدًا على السجع لتقويتها، والتأثير بالمخاطَبين.

وظهرت القيمة الحجاجية للسجع في المثال الثاني في قوله: (الحاسدين العيّابين، المفسدين المنافسين) وبدت هاتان العبارتان بمنزلة حجتين تخدمان نتيجة وهي (أن تكون الرسالة مصونةً محفوظة) فعمد إلى تقوية الحجتين بأن زينهما بالسجع، فأضاف قوة حجاجية استطاع من خلالها التأثير في المخاطَب، وإقناعه في تحقيق النتيجة المرجوة.

٤-المقام:

حتى نحكم بمدى نجاعة آلية ما ودورها في إشباع توقعات المتلقي، وتحقيق كفاياته اللغوية، والذهنية علينا حتمًا أن نكون على دراية بثقافته، وبيئته اللتين تهيئان له قبول أسلوب ما هذا القبول الذي يحوّل المسار الدلالي للدوال إلى مسار دلالي حجاجي من الطراز الأول.[٤] وهذا ما ذهب إليه (بيرلمان) إذ رأى أنّ ((الخطيب إذا

---

(١) يُنظر: التداولية والحجاج مداخل ونصوص:٥١.

(٢) الامتاع والمؤانسة:٣٦-٣٧.

(٣) م،ن:١٩٨.

(٤) يُنظر: حجاجية الخطاب في إبداعات التوحيدي:٩٤.

أراد أن يكون خطابه منسجمًا مع مستوى مخاطبيه، أن يفهم أولًا المقام المُتَكلّم فيه، ثمّ أحوال السامعين، ومستوياتهم المعرفية، والإدراكية))[١].

ومن الشواهد التطبيقية التي راعى فيها أبو حيّان المقام قوله:

((قال الوزير ... هاتِ فائدة الوداع فقد بلغتَ في المؤانسة غاية الإمتاع، قلتُ: أكره أن أختم مثل هذه الفقر الشريفة بما يُشبه الهزل، ويُنافي الجدّ فإن أذنتَ رويتُ ما يكون أساسًا، ودِعامةً ما تقدّم قال هاتِ ما أحببتَ فما عهدنا من روايتك إلاّ ما يشوقنا إلى رؤيتك قلتُ: قال ابن المقفع: عمل الرجل يعلم أنّه خطأ هوًى والهوى آفة العفاف، وتركه العمل بما يعلم أنّه صواب تهاون والتهاون آفة الدين، وإقدامه على ما لا يعلم أصواب أم خطأ لَجاج، واللّجاج آفة الرأي))[٢].

إنّ مراعاة المقام هي الحجة المقدمة من قبل أبي حيّان وقد أفضت هذه الحجة إلى نتيجة وهي ما جاء من قول ابن المقفّع إنّما هي لتدعيم الحجة بالابتعاد عن الهزل، ومنافاة الجدّ وبهذا يكون أبو حيّان قد وصل إلى أهدافه الحجاجية من طريق إقناع المتلقي بضرورة التزام الجدّ؛ لأنّ المقام يفرض ذلك وكلّ هذا يقع ضمن الإطار التبريري التدعيمي ولاسيما أنّ الوزير كان قد أعطى أبا حيّان حرية الاختيار ولم يكرهه؛ كونه صاحب السلطة الثقافية على المتلقي.

ج- السلّم الحجاجي:

هي نظرية تهتم بترتيب الحجج بحسب قوتها، وتنطلق هذه النظرية ((من إقرار التلازم في عمل المحاجّة بين الحجة (القول) والنتيجة (ن) ومعنى التلازم هنا هو أنّ الحجة لا تكون حجة بالنسبة إلى المتكلم إلاّ بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة إلى أنّ النتيجة قد يُصرّح بها وقد تبقى ضمنية))[٣] ونظرية السلالم الحجاجية التي تدعم النتائج قد تكون متفاوتة في درجة قوتها إذ تشكّل سلّمًا ينطلق من أضعف حجة حتى يصل إلى أقواها؛ ولذلك سُمّيت بالسلالم الحجاجية.[٤]

---

(١) مفهوم الحجاج عند بيرلمان، وتطوره في البلاغة المعاصرة(بحث):٦٤.

(٢) الامتاع والمؤانسة:٢١٥-٢١٦.

(٣) الحجاج في اللغة:٣٦٢.

(٤) يُنظر: م.ن، والصفحة نفسها.

وذهب (ديكرو) إلى أنّ المدلول الطبيعي واحد، والأدلّة الطبيعية متعددة فقد تكون النتيجة واحدة وتتعدد الأقوال الموضوعة للتدليل عليها، فمثلاً لو أخبرك أحدهم قائلاً (أكرم زيد صديقه)، و(أكرم زيد عدوه) فالاستدلال من هذين القولين نتيجة واحدة هي أنّ زيدًا من أنبل الناس خلقًا و القولان يهديان إلى نتيجة واحدة يُطلق عليها اسم (الفئة الحجاجية) وكلّ فئة حجاجية تتحدد بنتيجتها المشتركة.[١] ومن الضرورة التأكيد على أنّ الأقوال المثبّتة للمدلول الواحد لا تتعدد فحسب، بل تتفاوت في قوتها التدليلية، أو الحجاجية؛ إذ يعلو بعضها على بعض مكوّنة بذلك (السلّم الحجاجي)، وهي مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية، ومستوفية لشرطين هما:

١-كل قول يقع في مرتبة معينة من السلّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

٢-كل قول كان فيه السلّم دليلًا على مدلول معيّن كان ما يعلوه مرتبةً دليلًا أقوى عليه[٢].

- **قوانين السلّم الحجاجي:**

١-قانون النفي:

ومُقتضى هذا القانون أنّ القول إذا كان دليلًا على مدلول معيّن فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله، وقد اصطُلِح على هذا القانون بـ(قانون تبديل السلّم) فإذا كان قولًا ما مستعملًا من قبل المتكلّم ليخدم نتيجة معيّنة فإنّ نفي هذا القول سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة.[٣]

وما ورد من أمثلة على هذا القانون عند أبي حيّان قوله:

((وفي الأخلاق كلام واسع نفيس على غير ما وجدتُ كثيرًا من الحكماء يطيلون الخوض فيه، ويغوصون المرام فيه بتأليف محرّف عن المنهج المألوف،

---

(١) يُنظر: الحجاج في اللغة:٣٦٢.

(٢) يُنظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام:١٠٥.

(٣) يُنظر: نظرية الحجاج في اللغة:٩٤-٩٥.

ولو ساعد نشاطٌ، والتأم عتاد، وقُيّض مُعين، وزال الهمّ بتعذّر القوت لعلّنا كنّا نحرّر في الأخلاق رسالةً واسطةً بين الطويلة، والقصيرة))[1] وقوله:

((فقلتُ والله أيّها الوزير ما أعرف اليوم ببغدادَ – وهي الرقعة الفسيحة الجامعة، والعرصة العريضة الغاصّة – إنسانًا أشكر لك، وأحسن ثناءً عليك، وأذهب في طريق العبوديّة منه))[2].

ففي الخطاب الأول نجد أنّ التلازمية بين الحجة والنتيجة يعكس تعددًا للحجة في مقابل النتيجة الواحدة على أنّ هناك تفاوتًا من حيث القوة والضعف فيما يخصّ بناء هذه الحجج.[3]

ومع تعدد الحجج إلاّ أنّها تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة، كما تنتمي إلى السلّم الحجاجي ذاته، وكلّها تؤدي إلى نتيجة واحدة تشير إلى محاولة تحرير رسالةٍ في الأخلاق، وبملاحظة هذا الخطاب الحجاجي نجد أنّ أبا حيّان قد اعتمد تراتبية الحجج في تدعيم كلامه، وتحقيق هدفه (النتيجة) بتحقق الحجج التي هي بمنزلة شروط، وعدم تحقق هذه الحجج، أو الشروط سيؤدي بها ووفقًا لقانون النفي إلى أن تكون داعمةً لنتيجة مضادة وهي: (عدم القدرة على تحرير رسالة في الأخلاق) ويمكن أن نرمز لهذا السلّم على النحو الآتي:

النتيجة: تحرير رسالة في الأخلاق

- زوال الهمّ
- توفر المُعين
- إلتآم العتاد
- القدرة والنشاط

النتيجة: عدم القدرة على تحرير الرسالة

- استمرار الهمّ
- انعدام المُعين
- التشتت
- عدم القدرة

أمّا في المثال الثاني نجد أنّ أبا حيّان اعتمد أيضاً على تراتبية الحجج وبحسب قوتها في محاولة لإقناع مخاطَبه بمدى رضا أبي سليمان المنطقي السجستاني، ورجائه به، فأخذ يدعم كلامه بمجموعة من الحجج تخدم نتيجة واحدة

---

(١) الصداقة والصديق:١٠١.

(٢) الامتاع والمؤانسة:٣٦.

(٣) يُنظر: الخطاب الأدبي ورهانات التأويل:١٦٥.

وهي رضا أبي سليمان عن الوزير ورجاؤه به، ونفيُ هذه الحجج سيُفضي إلى نتيجة مضادة وهي (السخط وعدم الرضا عن الوزير)؛ لأنّ من لا يشكر ولا يُحسن الثناء لشخص ما يكون غير راض عنه، وساخط عليه. ويمكن أن نرمز لهذا السلّم الحجاجي بالشكل الآتي:

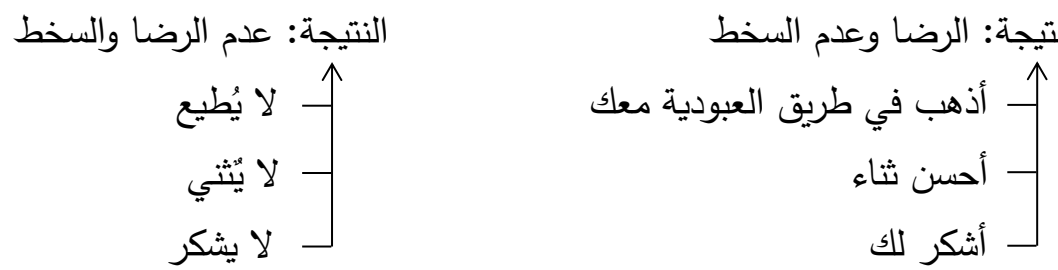

٢-قانون القلب:

يتّصل هذا القانون بقانون النفي ويُعدّ تتميمًا، وتكميلًا له[١] ومضمون هذا القانون إنّه إذا كانت إحدى الحجج أقوى من الأخرى في تدعيم نتيجة معيّنة، فإنّ نقيض الحجة الأضعف أقوى في تدعيم النتيجة المضادة[٢] ومن الأمثلة التطبيقية على هذا القانون عند أبي حيّان قوله:

((فقال: ما الذي حفظت من حديث عنهم، وما يجوز أن يُلقى إلينا منهم؟ فقلتُ: سمعتُ أشياء، ولست أُحِبّ أن أسم نفسي بنقل الحديث، وإعادة الأحوال فأكون غامزًا، وساعيًا، ومفسدًا))[٣].

وقوله:

((بلى والله إنّك لتسمع هذا الخطاب وغيره من بدائع ما في الكتاب، ولكنّك محجوب عن كلّ غيب في الغيوب، تسمع الحق بأذن مجّاجة، وتعيه بقلب متخرّق، وتتدبّره بعقل سادر))[٤].

نلحظ في المثال الأول أنّ أبا حيّان لم يكن راغبًا في مجاملة الوزير على حساب فساد أخلاقه ومن ثمّ يوصف بأنّه واشٍ وناقل للحديث فقوله (غامزًا وساعيًا،

---

(١) يُنظر: الحجاج والمعنى الحجاجي (بحث):٦١.

(٢) يُنظر: م،ن:٦٢.

(٣) الامتاع والمؤانسة:٤٦.

(٤) الإشارات الإلهية:٧٩.

مفسدًا) هي حجج أدت إلى نتيجة واحدة وهي: (عدم نقل الحديث) وقد عرض أبو حيّان الحجج عرضاً تراتبيًا بدأ بالحجة الأضعف (غامزًا) ثم الأقوى (ساعيًا)، فالأقوى (مفسدًا) فالغمز، والسعي، والفساد حجج تؤدي إلى نتيجة وهي: (النفاق ونقل الحديث)، وأنّ نقيض الحجة الأضعف (الغمز) يكون حجة، ودليلًا أقوى في تدعيم النتيجة المضادة وهي: (عدم نقل الحديث)، ويُمكن الترميز لهذا بالشكل الآتي:

فيكون نقيض الحجة الأضعف (الغمز) دليلًا وحجة أقوى في تدعيم النتيجة المضادة وهي (عدم النفاق)؛ لأنّ من لا يملك صفة الغمز لا يملك صفتي السعي، والإفساد، ومن ثم لا يوصف بالمنافق، وناقل الحديث.

أمّا المثال الثاني فقد تضمّن مجموعةً من الحجج تنتمي إلى الفئة الحجاجية نفسها، وإلى السلّم الحجاجي ذاته وهذه الحجج على الرغم من تفاوتها في القوة، والضعف إلاّ أنّها تخدم نتيجة واحدة هي: (أنّ المخاطَب محجوب عن كلّ غيب في الغيوب) وقد اعتمد أبو حيّان في حجاجه تراتبية الحجج الموصلة إلى النتيجة فبدأ بالحجة الأضعف ثم الأقوى، فالأقوى، ولو نقضنا الحجة الأضعف في هذا الترتيب لكانت دليلًا، وحجةً أقوى على النتيجة المضادة للنتيجة الأولى فسماع المتلقي الحقّ بأذن واعية أقوى دليلًا ليُصبح مكشوفًا عن كل غيب في الغيوب، ويمكن أن نرمز لهذا السلّم على النحو الآتي:

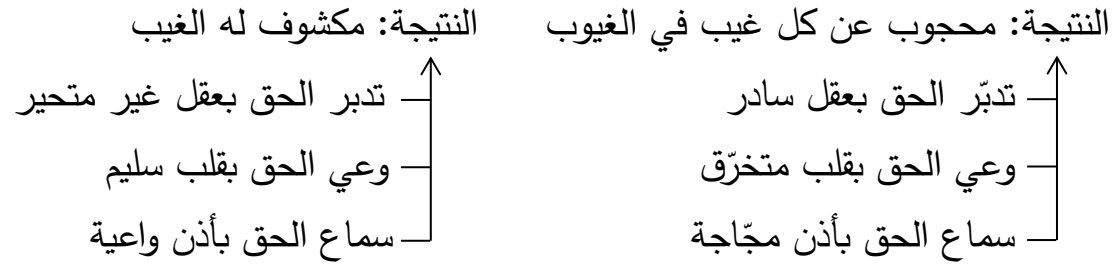

٣- قانون الخفض:

ومقتضى هذا القانون أنّه ((إذا صدق القول في مراتب معيّنة من السلّم، فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها))[١].

ويمكن لنا أن نتوضح ذلك في قول أبي حيّان على لسان ابن السمّاك:

((لولا ثلاث لم يقع حيف، ولم يُسلّ سيف: لقمةٌ أسوغ من لقمة، ووجهٌ أصبح من وجه، وسلكٌ أنعم من سلك، وليس كلٌّ أحد له هذه القوة، ولا فيه هذه المنّة، والإنسان بشرٌ، وبنيته متهافتة، وطينته منتثرةٌ، وله عادةٌ طالبة، وحاجة هاتكة، ونفس جموح، وعينٌ طموح، وعقل طفيف، ورأيٌ ضعيف ... هذا إذا تخلّص من قرناء السوء، وسلم من سوارق العقل، وكان له سلطانٌ على نفسه، وقهرٌ لشهواته، وقمعٌ لهوائجه))[٢].

فالرؤية الحجاجية التي تضمنها كلام أبي حيّان جاءت بصورة تراتبية إذ أراد أن يميز بين نتيجتين: الأولى ظاهرة وهي (ليس كلّ أحد له القوة، والمنّة في أنْ يتخلّى عن شهواته: (اللقمة السائغة، والوجه الصبوح، والسلك الناعم)، مستعينًا في تدعيم هذه النتيجة بمجموعة من الحجج وهي أنّ (الإنسان بشر، بنيته متهافتة، ...)، أمّا النتيجة الثانية التي استطاع بها أن ينقض النتيجة الأولى فهي ضمنية من قبيل (يُمكن لكلّ واحد أن يمتلك القوة في الصبر على ملذّات الدنيا) مستعينًا بمجموعة من الحجج التي تخدم هذه النتيجة، وتنقض حجج المجموعة الأولى. ويمكن أن نمثّل لهذا السلّم الحجاجي على النحو الآتي:

---

(١) اللسان والميزان:٢٧٧.

(٢) الامتاع والمؤانسة:٢٢.

لا (ن) ليس كلّ أحد له القوة والمنّة في الصبر على ملذّات الدنيا

(ن) يمكن لكل واحد أن يمتلك القوة والمنّة في الصبر على ملذّات الدنيا

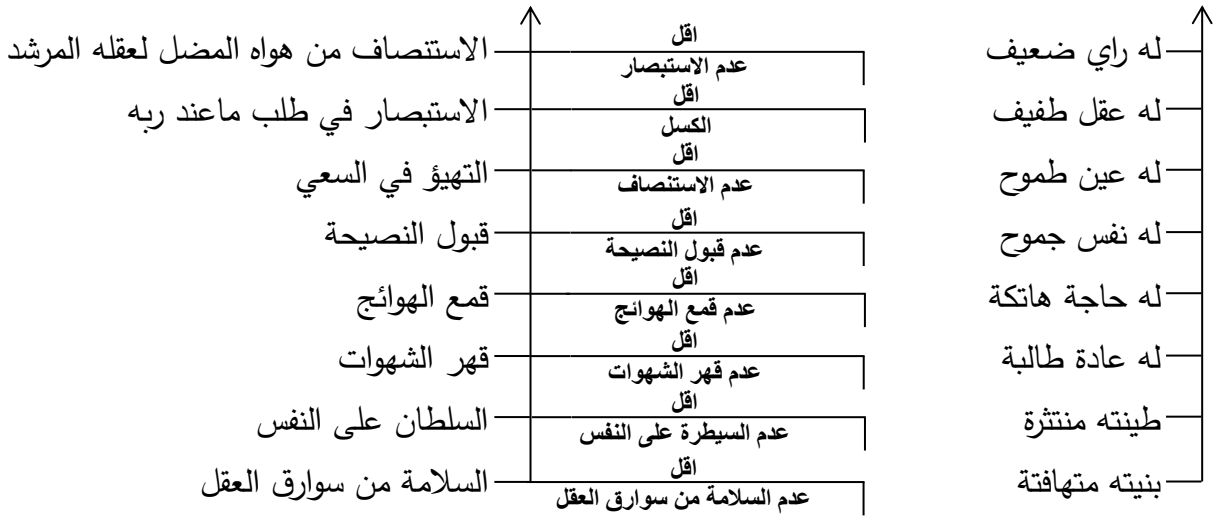

ولعلّ الصعوبة التي تواجه هذا القانون أنّه لا يتموقع في سلّم حجاجي واحد، فلا تندرج الحجج الإثباتية التي تخدم النتيجة (يمكن لكل إنسان أن يمتلك القوة والمنة) مع الحجج المنفية التي تخدم النتيجة (ليس لكل إنسان أن يمتلك القوة والمنة) في الفئة الحجاجية نفسها، ولا السلّم الحجاجي نفسه.[١]

د- الحجج المبنينة للواقع:

هي تلك الحجج التي تسهم في بناء واقع جديد يحاول به المحاجّ إقناع جمهوره به، يقوم هذا الواقع على مستويين أحدهما تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة مثل (شاهد الحال، أو الاستشهاد بـ(القرآن، الحديث، الشعر، المثل ...) أمّا الثاني فهو الاستدلال بوساطة التمثيل.[٢]

وتعدّ الحجج المبنينة للواقع من أهم الحجج التي ذكرها (بيرلمان)، وأكثرها قوة في تقريب المعنى إلى ذهن المتلقي؛ كونها ناتجة عن وقائع متتابعة، ومتعايشة[٣].

---

(١) يُنظر: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه لبني اسرائيل:٣٥.

(٢) يُنظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية:٣٨٥.

(٣) يُنظر: م،ن:٤٠٠.

وما ورد من هذه الحجج عند أبي حيّان من المستوى الأول:

١-شاهد الحال:

من الشواهد المستخرجة من شاهد الحال قول أبي حيّان:

((قال لي ليلة أخرى حدّثني أبو الوفاء عنك حديث الخراساني فأريد أن أسمعه منك قلت: كنتُ قائمًا عشيّةً على زنبرية[١] الجسر في الجانب الشرقي والحاجّ يدخلون وجمالهم قد سدّت عرض الجسر أنتظر جوازها وخفة الطريق منها، فرأيتُ شيخًا من أهل خراسان ذكر لي أنّه من أهل سنجان واقفًا خلف الجمال يسوقها، ويحفظ الرحال التي عليها حتى نظر إلى الجانب الغربي فرأى عليه ابن بقية – وكان وزيرًا صلبه الملك لذنوب كانت له – فقال لا اله إلاّ الله ما أعجب أمور الدنيا، وما أقلّ المفكّر في عِبرها، وغِيَرِها عضد الدولة تحت الأرض، وعدوّه فوق الأرض!))[٢].

وقوله: **((كان هذا الرجل ... بلحية بيضاء تلمع في حمرة وجه يكاد يقطر منه الخمر الصرف، وله عينان كأنّه ينظر بهما من زجاج أخضر ... عليه طيلسان قد أسبل طرفه على جبينه، فإذا رأى مجلسًا ... أخذ يهمس بتلاوة القرآن، ثمّ يسلّم من خلالها على القوم بترخيم، ونغمة فيها شجًى))**[٣].

ففي المثال الأول ذكر أبو حيّان أنّ الوزير ابن سعدان كان قد حدّثه أبو الوفاء عن أبي حيّان حديث الخراساني فطلب من أبي حيّان أن يُسمِعُهُ إيّاه كونه هو من شهد الحديث بنفسه، ولعلّ هذا دليلٌ على مدى رغبة المتلقي في السماع من شاهد الحال؛ لأنّ المعاني المستخرجة من طريق شاهد الحال تكون واقعية، والنفس تميل إليها، فأبو حيّان استطاع أن يُوصل إلى الوزير صورة ذلك الشيخ الخراساني وكأنّه يراه.

أمّا في المثال الثاني فقد قدّم أبو حيّان مجموعة من أوصاف الشيخ، وبعض أخباره، وهذا الشيخ في الحقيقة هو أبو حيّان نفسه، ولكنّه كنّى عن نفسه، وقد

---

(١) إحدى سفينتين كانتا في الجانب الشرقي من بغداد.

(٢) الامتاع والمؤانسة:٤٦.

(٣) الرسالة البغدادية:٥٣.

استعمل ألفاظًا دقيقة في وصفه ولو لم يكن هو نفسه (شاهد الحال) لما استطاع أن يذكر هذه التفاصيل الدقيقة التي من شأنها أن تؤثّر في المتلقي، وتترك أثرها فيه.

ومن ثم انتقل أبو حيّان ليذكر بعض عاداته وبتفصيل دقيق استطاع من خلاله أن ينقل السامع إلى مجلس ذلك الشيخ، وكأنّه يراه بدقة ما ذكره من أوصاف، وأخبار عنه بل وصف حتى طريقة سلامه، ونغمة صوته فبدا واضحًا الخبر ليس كالمعاينة؛ لما لها – المعاينة – من قوة في إقناع المتلقي، وتدعيم الأقوال فلا يدع مجالًا له للشك في قبول ما قاله.

٢-الاستشهاد:

للتأثير في المتلقي، وتحقيق الإقناع نجد أنّ أغلب المؤلفين لا يكادون يستغنون عن ظاهرة الاستشهاد في كتاباتهم، وهي شواهد يتمّ اقتباسها من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو الأدب العربي شعره، ونثره وهي طريقة تدور حول تقوية، وتأكيد الحجج المطروحة[١] وتكون ((جاهزة تكتسب قوتها من مصادرها، ومن مصادقة الناس عليها، وتواترها))[٢] وسمّاها الدكتور (طه عبد الرحمن) بـ(الحجّة العليا)، فيكون بها الفعل الحجاجي أكثر إقناعًا[٣].

أ- القرآن الكريم:

يُعدّ القرآن الكريم أعلى، وأكبر وسائل الاستشهاد في الثقافة العربية الإسلامية، وهو سلطة غير شخصية؛ لأنّه يشكل محط إجماع للكل ودونه كلّ الحجج.[٤]

فلا غرابة أن يوظّف أبو حيّان هذه الحجة بوصفها الوسيلة الأمثل للإقناع منها قوله:

((قال – أطال الله بقاءه – كنت أحبّ أن أعلم من أين قلتَ: إنّ الملك مبعوث أيضًا؟ فإنّ هذه الكلمة ما ثبتت في أذني قطّ، ولا خطرت لي على بال؛ قلتُ

---

(١) يُنظر: بلاغة الإقناع في المناظرة :٢٣٣.

(٢) في بلاغة الخطاب الإقناعي:٦٥.

(٣) يُنظر: اللسان والميزان:٢٦٢.

(٤) يُنظر: بلاغة الإقناع في المناظرة:٢٣٣.

قال الله عزّ وجلّ في تنزيله قَالَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ البقرة:٢٤٧

فعجب وقال: كأنّي لم أسمع بها قط))[1]

وقوله:

((فقال أحسن الله توفيقه هو الهلاك إن لم يُنقِذ الله بفضله، ولم يتغمّد بعفوه، لو غرقتُ في البحر كان رجائي في الخلاص منه أقوى من رجائي في السلامة مما أنا فيه، قلتُ: إذا علم الله من ضميرك هذه العقيدة ألبسك ثوب عفوه وحلاّك شعار عافيته وولايته، وكفاك كيد أعدائك، وعصب برؤوسهم ما يريدونه بك قَالَتَعَالَىٰ:﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ النحل: ١٢٨))[2] ففي المثال الأول نلحظ أنّ أبا حيّان عاد إلى القرآن الكريم وجاء بدليل ليؤكد صحة ما قاله للوزير على سبيل التأثير، والإقناع، وترسيخ الفكرة في ذهنه مفترضًا أنّ المتلقي لم يصل إلى تلك الدرجة المطلوبة من الإقناع فقرر إضافة دليل آخر استقاه من القرآن الكريم ولعلّ تعجب الوزير خير دليل على مدى تأثره بالشاهد القرآني وقوله: ((كأنّي لم أسمع بهذا قطّ)) وبدا البناء الحجاجي لهذا الخطاب على النحو الآتي:

الحجة: قوله تعالى ((إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكًا))

النتيجة: أنّ الملك مبعوثٌ أيضًا.

وفي المثال الثاني نجد أبا حيّان وظّف الشاهد القرآني لتدعيم أقواله في إقناع المتلقي فكان البناء الحجاجي هو:

الحجة: إذا علم الله من ضميرك هذه العقيدة.

النتيجة: ألبسك الله ثوب عفوه وحلاّك شعار عافيته.

وفي الإطار التدعيمي التبريري يقتبس أبو حيّان نصًّا قرآنيًا لتكثيف القوة الحجاجية، والتأثير في المتلقي، وكان اختياره لهذه الآية موفقًا جدًا؛ كونها تحمل

---

(١) الامتاع والمؤانسة:٢٢٣.

(٢) م،ن : ٢٥٨ .

المعنى نفسه الذي أراد المتكلم إيصاله للسامع فجاءت الآية تحمل حجتين، ونتيجة على النحو الآتي:

الحجة١: التقوى.

الحجة٢: الإحسان.

النتيجة: أنّ الله مع المؤمنين.

فالله سبحانه وتعالى وليُّ الذين يجتنبون المعاصي، ووليُّ الذين يُحسنون في أعمالهم، فالحجج الثلاث دعمت نتيجة واحدة.

ب-الشعر:

قال ابن عباس ((إذا خَفي عليكم شيءٌ من القرآن فابتغوه في الشعر؛ فإنّه ديوان العرب))[١].

من هذه المقولة تتجلّى أهمية الشعر في تعضيد، وتأكيد القضية المطروحة، فقد عُدّ الشاهد الشعري سلطةً مرجعيّةً؛ كون المتكلّم ((ينبئ عن فضله بوفرة، وبتنوع استشهاداته، ويُعاتَب إذا لم يتمثّل بكلام غيره))[٢] ((وهو حجة في ردع الخصم، وإفحامه))[٣] وعليه فالشعر يُستدعَى لحجة، وشاهد في المحاورة من أجل الوصول بالمتلقي إلى أعلى درجات الإقناع؛ ولذلك نجد أنّ أبا حيّان قد اتخذ من الشعر وسيلةً، وحجةً لزيادة القوة الحجاجية في خطاباته من ذلك قوله:

((الصراخ ممن يُظنّ أنّه صديق ثم يخرج في مسك عدوٍ قديم، والتّشكّي منه مردود، وليس إلاّ الصبر، و الإغضاء... وأنا أقول هذا؛ لإنّي نظرتُ في حال الإنسان، وصوّبتُ طرفي فيه، وصعّدتُ، وحسبتُ ماله، وما عليه ... فلم أجد له شيئًا خيرًا من الصبر فيه يُقاوَم المكروه، وتُستَدفع البليّة، وبه يُؤدّى شكر النعمة، وما أحلى ما أشار إليه الشاعر حيث قال:

إنّ الزمــان علــى اخــتلاف مــروره ... مــــازال يخلِــــطُ حُزنَـــه بســـروره

لـم يصـفُ عيشًـا مـذ كـان لمعشـرٍ ... إلاّ وعـــاد يجـــدُّ فـــي تكـــديره

---

(١) الاتقان في علوم القرآن: ١٣٦٦/٤.

(٢) الأدب والغرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي: ٧٦.

(٣) جهود الطبري في دراسة الشواهد الشعرية في جامع البيان عن تأويل القرآن (ماجستير):١٨.

فالعاقـــل النحريـــر يُلـــزِم نفســـه صـــبرًا عليـــه فـــي جميـــع أمـــوره
وأحـق مـا صـبر امـرؤٌ مـن أجلـه مـــا لا ســـبيل إلـــى تغييـــره))[1]

وقوله:

((هؤلاء سباع ضارية، وكلاب عاوية، وعقارب لسّاعة، وأفاع نهّاشة، وقى الله هذا الإنسان الحرّ المبارك الكريم الرحيم، فإنّه شريف النفس طاهر الطويّة ليّن العريكة، كثير الديانة وهذه أخلاق لا تصلح اليوم مع الناس، قال زهير:
ومـن لـم يـذُدْ عـن حوضـه بسـلاحه يُهـدّم ومـن لايظلـم النـاس يُظلـم[2]

وقال:

ومن لايذُدْ عن حوضه الناسَ أو يكن لـــه جانـــب يشـــتدُّ إنْ لان جانـــبُ
يطـأ حوضَـــه المســـتوردون وتَغْشَـــه شوائبُ لا تبقى عليها النقائبُ[3]**))**[4]

شكّل أبو حيّان هيكل خطابه الحجاجي الأول من:

الحجة: خروج الصديق في مسك عدو.

النتيجة: ليس له إلاّ الصبر، و الإغضاء.

ثم يدعم هذه النتيجة بحجة أخرى وهي: (أنّي نظرت في حال الإنسان...) وفي الإطار التدعيمي نفسه يستشهد ببعض الأبيات الشعرية؛ لزيادة القوة الحجاجية لخطابه، والتأثير في نفسية السامع محاولًا الكشف عن الأثر السلبي الذي تتركه حقيقة أن يكتشف الصديق أنّه قد صادق، وما يجب عليه فعله في هذه الحال وهو الصبر، والإغضاء؛ ففي الصبر يُقاوَم المكروه، وتُستدفَع البلية فهو شعبة من شعب الإيمان وهو منه بمنزلة الرأس من الجسد.

وجاء البناء الحجاجي في الخطاب الثاني على النحو الآتي:

الحجة١: هؤلاء سباع ضارية، وكلاب عاوية ...

الحجة٢: هذا الإنسان حرّ كريم ... شريف النفس طاهر الطوية ...

---

(١) الصداقة والصديق:٨٨.

(٢) زهير بن أبي سلمى: الديوان:٧٠.

(٣) لم أعثر عليه في ديوان زهير.

(٤) الامتاع والمؤانسة:٤٩.

النتيجة: إنّ هذه الأخلاق لا تصلح مع أناس كهؤلاء.

وبعدها جاء أبو حيّان ببعض الأبيات الشعرية كحجة تدعيمية، وشاهد على ما قاله، ونظرًا لما يتمتع به الشاهد الشعري من سلطة في المحاورة يُعدّ حجة مثبتة ترفع عاليًا درجة الإقناع بالنتيجة، وتتيح المجال واسعًا أمام السامع لتقبلها.(١)

ولعلّ المتكلم يستدرك على نفسه، ويفترض بأنّ السامع قد لا يصل إلى تلك الدرجة المطلوبة من الإقناع فيقر إضافة دليل، وحجة إلى قوله متمثلًا بالشاهد الشعري.

هـ- الحجج شبه المنطقية:

سُمّيت بهذه التسمية؛ لأنّها تستمدّ قوتها الإقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية، والمنطقية في البرهنة لكنّها ليست مثلها تمامًا، إذ في الحجج المنطقية ما يثير الاعتراض فوجب من أجل ذلك تدقيقها.(٢)

بأن يُبذل في بناء استدلالها جهد غير شكلي محض، والحجج شبه المنطقية أنواع منها ما يعتمد على البنى المنطقية مثل التناقض وعدم الاتفاق، ومنها ما يعتمد على العلاقات التبادلية، ومنها ما يعتمد العلاقات الرياضية، وما ورد عند أبي حيّان هي:

- **حجة التناقض وعدم الاتفاق:**

وقد تجلّت هذه الحجة في خطاب أبي حيّان وذلك في قوله:

((يا هذا بأيّ قوة أُنعِشُك عن صرعتك، وأنا على مثال حالك؟ وبأيّ حجة أُطالبك بالحق وأنا مطالب به فيك؟ إلاّ إنّي مع هذه الحال الملتاثة، ومع هذه القحة الظاهرة أقول قولًا صافيه لك، وكدره عليّ إن قبلت، وانتفعت، وراجعت، واستمعت، واستعللت، وارتفعت))(٣).

يمكن أن نرمز للبناء الحجاجي لهذا الخطاب على النحو الآتي:

الحجة١: أنا على مثال حالك

---

(١) يُنظر: بلاغة الإقناع في المناظرة:٢٤١.

(٢) يُنظر: الحجاج في القرآن:٣٣.

(٣) الإشارات الإلهية:٨٥.

النتيجة: لا أستطيع إنعاشك.

الحجة٢: أنا مطالب بالحق.

النتيجة: لا أستطيع أن أطالبك بالحق.

الحجة٣: الحال الملتاثة.

الحجة٤: القحة الظاهرة.

النتيجة: أقول قولًا صافيه لك، وكدره عليّ.

إنّ النظر إلى هذه الحجج، والنتائج يكشف لنا مدى شعور أبي حيّان بالتوتر، والتناقض ولا سيما في الحجتين الثالثة والرابعة اللتين خدمتا نتيجة واحدة فقد ظهر أنّ الحجتين لا تتفقان مع النتيجة، فهو يبرر سبب عدم قدرته على إنعاش مخاطَبه، وعدم مطالبته بالحق، وأمّا احتجاجه بـ(الحال الملتاثة، والقحة الظاهرة) فلا يتفق مطلقًا مع قوله: (أقول قولا صافيه لك ...) ففي هذا القول إيثارٌ من قبل أبي حيّان لمخاطَبه، والذي يُؤثر الآخرين على نفسه يقتضي أن يكون ذا بال صافية، صاحب مودة، وتواصل.

و- ألأفعال اللغوية:

- **الشرط:**

تنماز بنية التركيب الشرطي بأنّها بنية تلازم تصل الحجة بالنتيجة، فالآلية التي يعمل بها هذا التركيب حجاجياً في جعله الحجة تقتضي النتيجة. والنتيجة تقتضي الحجة.[١]؛ كون الشرط أساسا هو تعليق جملة على جملة، وهذا التعليق لا يصحّ فيما انقضى، ووقع ولا فيما كان متحقق الوقوع، أو مستحيلًا وقوعه.[٢]؛ لأنّ الغرض من التعليق هو توليد قوة إنجازية نحو (إن تدرس تنجح) فإنّ القوة الإنجازية المتولّدة من جملة الشرط (أدرس). ويكمن الدور الحجاجي للشرط في علاقة التلازم، والتعالق بين ركني الشرط (جملة الشرط، وجوابه) إذ يمثّلان (الحجة، والنتيجة)، فالقبول بجملة الشرط (الحجة) يقتضي بالضرورة القبول بجملة الجواب (النتيجة)، وهذا بدوره يُفضي إلى رسوخ المضمون الحجاجي الذي يسعى إليه المحاجّ، وهو أن

---

(١) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه:٣٣٥.

(٢) يُنظر: المقتضب، ٢/٥٠.

يُلزم المتلقي على مستوى الشرط بقصد استمالته، والتأثير فيه، وإقناعه بحصره بين ركني الشرط، وهذه أعلى غايات الحجاج وذلك بإقناع السامع بمقاصد المحاجّ ومراميه.[١]

وقد وظّف أبو حيّان هذا الأسلوب حجاجيًا في خطاباته، وسنورِدُها على النحو الآتي:

- **إنْ:**

جعلها الخليل (ت١٧٥هـ) أمّ الجزاء، قال سيبويه (ت١٨٠هـ): ((وزعم الخليل أنّ إنْ هي أمّ الجزاء، فسألته لِمَ قلتَ ذلك؟ فقال: من قبيل أنّي أرى حروف الجزاء قد يتصرّفنَ فيكنّ استفهامًا، ومنها ما يفارقه (ما) فلا يكون فيه الجزاء، وهذه على حال واحدة أبدًا لا تفارق المجازاة))[٢] وتعمل في إنزال غير المتيقّن منزلة المتيقّن، وغير الواقع منزلة الواقع[٣] وهنا يتضح دورها في تكثيف القوة الحجاجية، ومن الخطابات التي وظّف فيها أبو حيّان (إنْ) الشرطية لتدعيم أقواله الحجاجية قوله:

((فإنْ وجدتَ مع هذه الحال التي أنشأتها فأنِسْتَ بها صحابةً يُعينونك بالعلم الحق، ويساعدونك على العمل الصالح، و... فاذهب فإنّك من الذين أنعم الله عليهم، ونظر بالتوفيق إليهم))[٤].

وقوله: **((والله ما أدري ما أقول، إنْ شكرتك على ظاهرك الصحيح لذعْتُك لباطنك السقيم، وإنْ حمِدتُك على أوّلك الجميل، أفسدتُ لآخرك الذي ليس بجميل))**[٥].

بملاحظة الخطاب الأول نجد أنّ بناءه الحجاجي جاء على النحو الآتي:

الحجة: فإنْ وجدتَ ... صحابةً يُعينونك بالعلم الحق ...

النتيجة: فإنّك من الذين أنعم الله عليهم، ونظر بالتوفيق إليهم

---

(١) يُنظر: الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل:٤٠.

(٢) الكتاب: ٤٣٣/١.

(٣) يُنظر: معاني النحو: ٢٧/٤.

(٤) الإشارات الإلهية:٢٩٤.

(٥) الامتاع والمؤانسة:٥٣٢.

عقد أبو حيّان علاقةً بين الحجة، والنتيجة فالأولى تتعلّق بالثانية، وتقتضيها فجعل حصول المتلقي على صحابة ينمازون بصفات ايجابية شرطًا، وحجةً في حصوله على رضا الله، وإنعامه، وتوفيقه، فجاءت البنية الشرطية المكونة من أداة الشرط (إنْ)، وفعل الشرط، وجوابه وسيلة حجاجية استطاع من خلالها المتكلم أن يقنع السامع بأنّ وقوع فعل الشرط الذي مثّل الحجة سيُفضي إلى جواب الشرط الذي هو نتيجة.

ومن الحجاج المبني على هذا الأسلوب ما جاء في الخطاب الثاني إذ جاء البناء الحجاجي فيه:

الحجة١: إنْ شكرتُك على ظاهرك الصحيح.

النتيجة١: لذعْتُك لباطنك السقيم

الحجة٢: إنْ حمِدتُك على أوّلك الجميل

النتيجة٢: أفسدتُ لآخرك الذي ليس بجميل

المقام هنا مقام حجاج على نفي المجاملة، وتوجيه العتب المضمّن للنصح فكان دور (إنْ) إقامة علاقة سببية بين الحجة، والنتيجة، وحصرهما، ممثّلتين بفعل الشرط وجوابه، وهذا الحصر يوحي برغبة المتكلم توجيه النصح للمتلقي، وهو إقرار، وحجة على المتكلم نفسه بأنّه إذا شكر على الظاهر لذع في الباطن، وإذا حمد على الأول أفسد الآخر.

- **إذا:**

ظرف لما يُستقبل من الزمان[١] مضمّنة معنى الشرط؛ لذلك تُجاب بما تُجاب به أدوات الشرط[٢]، ولا تعمل الجزم إلاّ في الضرورة[٣] ذلك لأنّها لما يتيقّن وجوده، أو رجح بخلاف (إنْ)[٤].

---

(١) يُنظر: الكتاب: ٣/٦٠، والمقتضب: ٢/٥٠-٥٦، وحروف المعاني:٦٣.

(٢) يُنظر: الجنى الداني:٣٦٠.

(٣) يُنظر: مغني اللبيب: ١/٩٨.

(٤) يُنظر: الجنى الداني:٣٦٠.

وظّف أبو حيّان اسلوب الشرط بـ(إذا) حجاجيًا من ذلك قوله: ((**إلاّ أنّ العليل إذا قيّض الله له طبيبًا حاذقًا رفيقًا ناصحًا كان إلى العافية أقرب، وللشفاء أرجى، ومن العطب أبعد، وبالاحتياط أعلق**))[١].

وقوله: ((**إذا زخر بك وادي الدعاء فاعلم أنّك مراد بالإجابة، وإذا تابع لك المزيد في النعمة فاعلم أنّك معرّض للشكر، وإذا اكتنفك الكرب من كل ناحية فاعلم أنّك مطالب بالتصفية**))[٢].

ففي المثال الأول نلحظ أنّ المقام مقام توجيه، وهذا دفع أبو حيّان إلى عقد علاقة استنتاجية قائمة على افتراض صلة تبريرية، أشار إليها، واتخذها مرجعاً له وهذه العلاقة الشرطية المصدّرة بـ(إذا) تجعل المتلقي يستنتج حقيقة، وهي أنّ الإنسان العاقل إذا عرف من نفسه عيوبًا معدودة، وأخلاقًا مدخولةً استطبّ لها عقله، وتطبّب فيها بعقله، وتولّى تدبيرها برأيه، ورأي خلصانه، فنفى ما أمكن نفيه، وأصلح ما قُبِل إصلاحه، وقلّل ما استطاع تقليله[٣] فجاء البناء الحجاجي على النحو الآتي:

الحجة: العليل إذا قيّض الله له طبيبًا حاذقًا ناصحًا.

النتيجة: كان إلى العافية أقرب، وللشفاء أرجى.

أمّا الخطاب الثاني فقد تضمّن أكثر من حجة، ونتيجة وهي على النحو الآتي:

الحجة١: إذا زخر بك وادي الدعاء.

النتيجة١: أنّك مراد بالإجابة.

الحجة٢: إذا تابع لك المزيد في النعمة.

النتيجة٢: أنّك معرّض للشكر.

الحجة٣: إذا اكتنفك الكرب من كلّ ناحية.

النتيجة٣: أنّك مطالب بالتصفية.

---

(١) الامتاع والمؤانسة:٦١.

(٢) الإشارات الإلهية:٤٨.

(٣) يُنظر: الامتاع والمؤانسة:٦١.

جاء هذا الخطاب ليُؤكّد على حقيقة وهي طبيعة العلاقة بين العبد المسلم، وربّه سبحانه وتعالى، وقد تجسّدت هذه العلاقة السببية عن طريق التركيب الشرطي المكون من أداة الشرط (إذا) وفعل الشرط وجوابه، فقد حصرت بين الحجة المتمثّلة بفعل الشرط، والنتيجة المتمثّلة بجواب الشرط، وهذا مؤشّر على اقتضاء مفاده أنّ العبد إذا زخر به وادي الدعاء فهو المقصود بالإجابة، وإذا توالت عليه النعم فلابدّ من شكرها، أمّا إذا أُحيط به، وتعرّض للكرب، والضيق فهو في هذه الحال مطالب بوقفة مع نفسه وتصفية حساب. إنّ الحصر بين الحجة، والنتيجة يُعضّد أطروحة المرسِل، ويدفع بالمرسَل إليه إلى التسليم بما جاء به، والمصادقة عليه.

- **لو:**

دلالتها هو أنّها ((تدلّ امتناع لامتناع آخر))[١] أي امتناع الجواب لامتناع الشرط أي: توقف الجواب، وعدم تحقّقه؛ لتوقّف الشرط وعدم تحققه، وهذا ينعكس على الدور الحجاجي لهذه الأداة فمعها تتعطّل النتيجة لتعطّل الحجة لذلك فهي تستعمل ((فيما لا يُتوقّع حدوثه، وفيما يمتنع تحققه أو فيما هو محال، أو من قبيل المحال))[٢].

ومن الشواهد على هذه الأداة قول أبي حيّان:

((ولو أردنا أيضًا أن نجمع ما قاله كلُّ ناظمٍ في شعره، وكلُّ ناثرٍ من لفظه لكان ذلك عسيرًا، بل مُتعذّرًا))[٣].

فإنجاز الفعل الكلامي الثاني الذّي يمثّل النتيجة مشروط بإنجاز الفعل الكلامي الأول (الحجة)؛ ولأنّ هذا الفعل غير متحقق، وغير واقع فإنّ النتيجة لا تتحقق أيضًا، فبنية التلازم هذه ساعدت على حصر، وتقييد المعنى بفضل طبيعة العلاقة التلازمية بين فعل الشرط، وجوابه، وهذا بدوره ساعد على إخراج المعاني الحكمية في قالب تقريري يأتي في شكل قاعدة عامة، أو قانون عام.[٤] فالإنسان

---

(١) التبيان في علم البيان المطّلع على إعجاز القرآن:٨٣.

(٢) في النحو العربي نقد وتوجيه:٣٣٥.

(٣) الصداقة والصديق:٢٢٦.

(٤) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه:١١٥.

مدنيٌّ بالطبع؛ إذ لابدّ له من الإعانة، والاستعانة؛ لآنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه، ولا يستقلّ بجميع حوائجه.(١)

- **لولا:**

حرف امتناع لوجود(٢) أي: امتناع الجواب (النتيجة) لوجود الشرط (الحجة). ولعلّ البعد الحجاجي الذي تُضفيه الجملة الشرطية – المكونة من لولا مع شرطها، وجوابها – هو تثبيت جملة الشرط، والقطع بتحققها(٣).

ومن استعمالات هذه الأداة حجاجيًا عند أبي حيّان قوله:

((ولولا هذه اللّطائف التي هي مشغلة النفوس الوافرة، والناقصة؛ لكانت الصدور تتقرّح بأسًا، والعقول تتحيّر يأسًا، والأرواح تزهق كمدًا، والأكباد تتفتتُ صمدًا))(٤).

وقوله: **((ولولا أنّي خلعتُ الحياءَ خلعًا، وتصدّيتُ للّوم تصديًا، في تحرير هذا الكلام على ما به من اضطراب اللفظ، وانتثار المعنى، وزيغ التأليف، وترامي الحكاية، لكان ذلك كلّه منسيًا في جملة ما نُسي، ومغمورًا في غمار ما جُهل، وفائتًا في عرض ما فات))**(٥).

بدأ أبو حيّان خطابه الأول في التأكيد على حقيقة وهي وجود اللّطائف التي تشغل النفوس، ولتثبيت هذه الحقيقة التجأ أبو حيّان إلى تركيب (الشرط الامتناعي الوجودي) وما يتضمّنه من تلازم بين الشرط، وجوابه فجعله مرتكزًا؛ لإقناع المتلقي بقصده. فجاء البناء الحجاجي على النحو الآتي:

الحجة: وجود اللطائف وهي مشغلة النفوس.

النتائج:

النتيجة١: الصدور تتقرّح بأسًا

---

(١) يُنظر: الصداقة والصديق:٢٢٦.

(٢) يُنظر: المفصل:٣١٦.

(٣) يُنظر: في التركيب اللغوي للشعر المعاصر:١٢٤.

(٤) المقابسات:٣٢٧.

(٥) م،ن:١٣٥.

النتيجة٢: العقول تتحيّر يأسًا

النتيجة٣: الأرواح تزهق كمدًا

النتيجة٤: الأكباد تتفتت صمدًا

فهذه النتائج لم تتحقق؛ لوجود الحجة، وهنا مثّل الشرط (الحجة) قوة حجاجية مكثّفة تدفع المتلقي إلى القناعة، والإقرار بالنتيجة العكسية.

وفي المثال الثاني انطلق الخطاب الحجاجي من طريق توضيح معاناته في تحرير، وترتيب كلام المقابسة الثانية والتي تتعلّق بعلم النجوم، وكيفية ارتباط السفليات بالعلويات، وما يتخلل هذا الكلام من خلط، واضطراب، وترامي الحكاية معولا في ذلك على بنية التركيب الشرطي تلك البنية التلازمية فكان البناء الحجاجي على النحو الآتي:

الحجة١: إنّي خلعتُ الحياء خلْعًا

الحجة٢: تصدّيتُ للّوم تصدّيًا

النتيجة١: كان ذلك منسيًا في جملة ما نُسي

النتيجة٢: مغمورًا في غمار ما جُهل

النتيجة٣: فائتًا في عرض ما فات

فمن أجل ترسيخ حقيقة معاناته – في الحفاظ على كنوز المعرفة – في ذهن المتلقي، وإقناعه بها لجأ إلى تركيب (الشرط الامتناعي الوجودي) المصدّر بالأداة (لولا) هذا الرابط الذي يقوم بتعليق، وحصر النتيجة على الحجة، وتوضيح مقصدية الخطاب، وتوجيه الفعل الكلامي نحو الغرض الذي يقصده المتكلم، ويسعى لتثبيته في ذهن المتلقي.

الخاتمة والنتائج

لقد أفضت بي هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج حاولت أن أفي بقسم منها ولاسيما ما رأيته هامًّا من بين ما استخلصته، فلا أدّعي أنّي قد كشفت عن كلّ نتائج هذا الموضوع ولاسيما مع أهميته، وتشعبه. وهي على النحو الآتي:

- ارتباط مفهوم الاستراتيجية بمفهوم الخطاب؛ لكونه عملية اختيار من قبل المرسِل للعبارات، والكلمات.
- الاستراتيجيات الخطابية لا حصر لها، ولكن يُمكن تصنيفها ضمن ثلاثة معايير هي: المعيار الاجتماعي، والمعيار الشكلي، ومعيار هدف الخطاب.
- يكاد يتفق الباحثون العرب، والغرب على معنى الاستراتيجية وهو الطريقة، أو المسلك الذي يختاره المتكلّم؛ لإيصال خطابه، وتحقيق هدفه.
- ارتباط مفهوم (الكفاية اللغوية، والكفاية التداولية) عند المحدثين بمفهوم (الوضع، والاستعمال) عند العرب القدماء.
- إنّ كلاًّ من المقام، والمتكلّم، والمخاطب عناصر غير لغوية تمثّل ضغوطًا إنجازية قصوى إن رُوعيت حسُن الكلام، ونجعت العملية التخاطبية، وارتقت أعلى القمم البلاغية، ولا يُمكن للمعنى أن يتضح إلاّ باستحضار المقام الحيّ، والمتكلّم الفطن، والمستمع اليقظ.
- العلاقة بين طرفي الخطاب إن لم تكن موجودة سلفًا فإنّ المتكلّم يسعى إلى إيجادها في خطابه، فتنشأ بذلك علاقة تواصلية بين طرفي الخطاب قائمة على خاصية التعاون.
- كشفت الدراسة أنّ قواعد المحادثة لـ(غرايس) بجانبها التبليغي كان قد ذكرها الماوردي مفصلةً في كتابه (أدب الدنيا والدين)، تحت عنوان (شروط الكلام).
- الاستراتيجية التضامنية التي تعمل على كسب المخاطَب من خلال المرونة التي يمنحها استعمال الأدوات، والآليات المتنوعة ساعدت أبا حيّان على التواصل الناجع مع مخاطبيه، والتوفيق بين حالته النفسية، ومخاطَبه، والسياق الذي يسوق فيه خطابه والحرص على التعبير عن قصده منها.

- تُعدّ الإشاريات من التعابير اللغوية الإحالية التي تعتمد اعتمادًا تامًّا على السياق الذي ترد فيه، ولا يُستطاع إنتاجها، أو تفسيرها بمعزل عنه.
- منح استعمال الإشاريات بمختلف أنواعها، ولاسيما الشخصية أبا حيّان إمكانية التعبير عن مقاصده المختلفة، فانعكس ذلك بدوره على أبعاد علاقاته من مخاطبيه، وتطور تلك العلاقة. فبدا واضحًا تأثير استعمال الاسم الصريح لمخاطبه وما لذلك من دلالة على قربه منه، فضلاً على استعماله ضمير المتكلّم بنوعيه المتصل، والمنفصل فقد ساعده هذا في التعبير عن ذاته وبسط الحديث عنها.
- ساهمت التداولية حديثًا في التنبيه على مبادئ التعاون، والتأدّب، والتلطف، والتصديق، فتبين لنا أنّها ظواهر أشار إليها اللغويون العرب قديمًا أمثال الجاحظ، وابن قتيبة، والغزالي، والماوردي، وغيرهم.
- ساعد احترام مبدأ التعاون من قبل أبي حيّان على تقريبه من مخاطَبيه في توجيهه لهم فعلى الرغم من الضغط النفسي الذي كان يُعاني منه بسبب ظروفه المادية الصعبة إلاّ إنّه راعى هذا المبدأ ولم يخلّ به محاولاً توطيد العلاقة مع مخاطَبيه.
- تعدد آليات التوجيه عند أبي حيّان بين (الاستفهام، والامر، والنداء، والنهي، والاغراء، والتحذير). مستغلاً فعل الاستفهام وما ينماز به من قوة متضمنة في توجيه المخاطَب، فضلاً على أسلوب النداء الذي يعمل على لفت انتباه المتلقي، وكسب تعاطفه.
- تبيّن أنّ التوجيه عند أبي حيّان قد انماز بمجموعة من الخصائص النوعية من بينها أنّه يتأسس على مجموعة من الضوابط الأخلاقية التي تجعل المتكلّم يلتزم بالأدب عند توجيهه لغيره، فضلاً على تقيده بالضوابط المنطقية التي جعلت من توجيهه مقبولاً عقلاً، ومتفقًا عليه.
- استعمل أبو حيّان المستوى التلميحي عن طريق الأفعال الكلامية غير المباشرة آخذًا بعين الاعتبار المواقف التواصلية التي تفرض أفعالاً متضمّنة في القول تستمدّ قوتها الإنجازية من السياق الذي ترد فيه، وخروجها عن الظاهر يمثّل

الاستراتيجية التلميحية أي خروج عن المعنى الأصلي إلى المعنى الذي يفرضه السياق، وقد تجلّى ذلك في (الاستعارة، والكناية، والتشبيه، والتهكّم، والاستلزام).

- كشفت الدراسة أنّ اللغويين العرب مطبقون على أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة، وأنّ الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأنّ الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر، في حين انقسم المحدثون على فريقين الأول: ولاسيما دعاة نظرية الصلة (المناسبة) التي تُعدّ من أهم النظريات في الدرس اللغوي الحديث على إنّ الجانب الصريح من التواصل أغنى، وأكثر استدلالية، وبالتالي فهو أجدر بالبحث، أمّا الثاني: فلم يختلف عمّا ذهب إليه اللغويون العرب.
- دلالة المصطلحات (المنطوق، والمفهوم – والحقيقة، والمجاز) تقترب كثيرًا من مفهوم الدلالة الطبيعية، وغير الطبيعية عند (غرايس).
- كشفت الدراسة أنّ بعض الباحثين حصر الاستلزام الحواري بخرق قواعد المحادثة، في حين ذهب آخرون إلى القول بأنّ الاستلزام الحواري يقع حتى مع التقيد بهذه القواعد.
- ارتبط الحجاج عند الغرب بـ(بيرلمان) وهو عنده البلاغة الجديدة، أمّا عند (ديكرو) فهو قائم في جوهر اللغة بصرف النظر عن استعمالها، وفي التراث البلاغي العربي فقد ظهر الحجاج مرادفًا للجدل.
- أظهرت الدراسة أنّ الخاصية البنائية للخطاب الحجاجي خاصية استدلالية يتمّ بها الانتقال من الحجة إلى النتيجة، والحجة هي الوحدة البنائية الأولى في العملية الحجاجية لذا يُشترط فيها أن تكون مناسبة، وملائمة للخطاب.
- ساعدت الآليات البلاغية في إثبات دعاوى أبي حيّان من خلال تتبعنا لخطابه الحجاجي، ونستنتج أنّ الصورة البيانية مع مختلف المتلقين تراوحت بين البساطة، والتعقيد ولكنّها في نهاية الأمر تدفع للاستنتاج. ما يجعلهم يتأثرون بما يسمعون، ومن ثَمّ يُقبلون على مساندة أبي حيّان في آرائه.
- احتواء خطابات أبي حيّان على أغلب الآليات الحجاجية وهو دليلُ كفايته اللغوية، والتداولية. فقدّم الحجج، بل وأكثر منها لتخدم نتائج ظاهرة، وضمنية.
- اعتماده على الحجج الجاهزة (قرآن كريم، شعر).

- إنّ أبا حيّان في حجاجه لم يكن يسعى لبناء نظرية مشتركة بقدر ما أراد إثارة انفعال الطرف الآخر ما يجعل حجاجه حجاجًا انفعاليًا يُحافظ على الاختلاف بينه وبين متلقيه.

وفي الختام لابدّ من الإشارة إلى أنّني لا أدّعي الإلمام، والإحاطة بكلّ الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع، ويبقى المجال مفتوحًا دائمًا، والأفق فيه أوسع لمن أراد أن يتغلغل في حيثيات هذا المنهج المتشعبة، والمتداخلة فيما بينها.

والحمدُ لله ربّ العالمين

The Republic of Iraq
Ministry of Higher Education and Scientific Research
Mustansiriya University
Faculty of Arts
Department of Arabic Language

DISCOURSE STRATEGIES IN LITERATURE ABU HAYYAN MONOTHEISTIC (D.414 AH)

Thesis submitted by Student

Omar Hussien Abdul Muhsin ALmayyahi

To the Council of Literature Faculty at the University of Mustansiriya
And is part of the requirements for a PhD in the philosophy of Arabic Language and Literature

Supervision

Prof. Dr. Sami Madi Ebrahem

2017 **1438**

Abstract

discourse has taken on great importance in ancient, and modern, times and its many facets are between what is oral, and what is written, it is a linguistic event sent by a speaker, sent to addressee, or sent to him in order to give him new information, or newsi in a specific place, or the conditions and conditions common to thos who do not know each other, is a communicative activity based on the language spoken first, and is associated with the expression of all systems of benefit in social Practicell.

For each speaker to be able to choos the appropriate strategy for the speech must have linguistic and deliberative competence.

Abo Hayan al Tawhedi is one of the greatest writers of the century . He was recognized by his wide and rich knowledge out put . In spite of may scholars dealt with al Tawhedi Brography and in his writings but they neglected his particular way in speech Therefore .I choose his literary out put like Albasaer wa al thakaer , Alemtaa wa al muanasa , al mukabasat… etc , a Field to my study .

This study is devided in to three chapters, followed by a conclusion .chapter one entitled "social criteria of the discourse" which contains three sections about the relaf : on ship between the parties of discourse and consildatory (friendly strategy) . chapter two sheds light on linguistic shepe of discourse ie hidden gesture used by speakers. Chapter three designed to deal

with aims of discourse ie using prove to satisfy and ience . finally conclusion contained that strategis are many , but they are grouped under three criteris , social , form language discourse, and aims behind discourse.